فرائد نفيسة

من مقدمات الدكتور محمد محمد أبو موسى وسيرته

أ.د. أحمد بن صالح السديس

مكتبة الرشد
ناشرون

فرائد نفيسة

من مقدمات الدكتور محمد أبو موسى وسيرته

ح مكتبة الرشد، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السديس ، أحمد بن صالح
فرائد نفيسة. / أحمد بن صالح السديس. - الرياض ، ١٤٤٠ هـ
٢٣٦ ص ؛ .. سم
ردمك: ٨-٣٤-٨٢٦٤-٦٠٣-٩٧٨

١- الأدب العربي - مجموعات أ. العنوان

ديوي ٨١٠,٨ ١٤٤٠ / ٤٥٤٣

ردمك: ٨-٣٤-٨٢٦٤-٦٠٣-٩٧٨ رقم الإيداع ٤٥٤٣ / ١٤٤٠

مكتبة الرشد ناشرون

الطبعة الأولى تاريخ : ١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

المملكة العربية السعودية – الرياض
الإدارة : العليا فيو – طريق الملك فهد

ص.ب : ١٧٥٢٢الرياض ١١٤٩٤ هاتف :٠١١٤٦٠٤٨١٨ فاكس :٠١١٤٦٠٢٤٩٧
Twitter: @ALRUSHDBOOKSTORE
Email: info@rushd.com.sa
Website : www.rushd.com.sa

فروعنا داخل المملكة

الفرع	هاتف	فاكس
المركز الرئيسي بالرياض: الدائري الغربي	٤٣٢٩٣٣٢	٤٣٢٩٣٣٢
فرع التعاون بالرياض :	٢٠٥١٥٠٠	٢٢٥٣٨٦٤
فرع مكة المكرمة :	٥٥٨٥٤٠١	٥٥٨٣٥٠٦
فرع المدينة المنورة :	٨٣٤٠٦٠٠	٨٣٨٣٤٢٧
فرع جدة :	٦٣٣١١٨٣	٦٣٣٠٣١٥
فرع القصيم :	٣٢٤٢٢١٤	٣٦٩٥٤٥١
فرع خميس مشيط :	٢٣٧٨١٢٩	٢٢١٧٩١٣
فرع الدمام :	٨١٥٠٥٥٦	٨٤١٨٤٧٣
فرع حائل :	٥٣٢٢٢٤٦	٥٦٦٢٢٤٦
فرع الإحساء :	٥٨١٣٠٢٨	٥٨١٣١١٥
فرع تبوك:	٤٢٤١٦٤٠	٤٢٣٨٩٢٧
فرع المجمعة:	٤٣٢٠١٩٢	٤٣٢٠١٩٢
فرع عرعر:	٤٦٦١٢١٠٠	
فرع الطائف:	٠٥٠٠١٥٩٧٢٥	

فروعنا في الخارج

الفرع	هاتف	فاكس
القاهرة	٢٢٧٢٨٩١١/٢٧٤٤٦٠٥	٢٢٧١٣٦٢٥

فرائد نفيسة

من مقدمات الدكتور محمد أبو موسى وسيرته

أ.د. أحمد بن صالح السديس

مكتبة الرشد ناشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى شيخي الجليل وأستاذي الكبير محمد أبو موسى، شاكرًا له تَفضُّلَه بالموافقة على هذا البحث وقراءتِه، وما هو إلا بذرةٌ في ربيع علمه وخصبِ عطائه، نفعنا اللهُ والأمَّةَ به، وبارك فيه.

شيخُ البلاغة

فَيْضٌ مِنَ الغَيثِ أم حَلْيٌ مِنَ الذَّهَبِ ... سُطُورُ أحْرُفِهِ في وَاحَةِ الكُتُبِ؟

والصَّوتُ في أُذُني يَشُوبُه نَغَمٌ؛ ... فالشَّمْسُ بادِيَةٌ، والطَّيرُ في طَرَبِ

خاطبتُ قافيتي: قُولي، فلم تَقُلِ ... أعْطيتُ لِلقَلْبِ أقلامًا، فلم يُجِبِ

حَرَّكْتُ عَاطِفَتي، أبحرتُ في سُفُني، ... قَلَّبتُ مِحْبَرَتي، فتُهتُ في عَجَبي!

لكنَّ نَزْفَ فُؤاديْ خَطَّهُ قَلَمٌ ... وكُنتُ أحسَبُ فِكريْ غيرَ مُنسَكِبِ

لِلهِ طَوْدٌ لَهُ ذِكْرٌ ومَفْخَرَةٌ ... في العِلْمِ والكُتْبِ، ذا مِنْ أشْرَفِ النَّسَبِ

هذا الذي لم تَزَلْ في الدَّرْسِ صَولَتُهُ ... ولِلمَعَالي ومَعْ صَمْصَامَةِ الكُرَبِ

مَا زِلْتُ أرْقُبُ لُقْيَاهُ كَذي عَطَشٍ ... والشَّوقُ يَعْصِفُ حَتىٰ كادَ يَغْدُرُ بي



شيخَ البلاغةِ كَم أهْدَيْتَ مِن دُرَرٍ ... وكَم وَهَبْتَ، وكم حَقَّقْتَ مِن أرَبِ

كأنّها عَلَمٌ والصِّدْقُ يَنشُرُهُ ... نَشْرَ الرِّيَاحِ إذا اشْتَدَّتْ بِلا حُجُبِ

بِها هِدَايَةُ سَارٍ تَاهَ في لُجَجٍ ... حَتّىٰ رآها كَمِثْلِ النَّجْمِ والشُّهُبِ

كَمْ أظْهَرَ الصِّدقُ مِنْ عِلْمٍ ومِن أدَبٍ ... وكَمْ أفَاضَ بِها رَيًّا بِلا نَصَبِ

ستّونَ عَامًا وما كلَّتْ أنامِلُهُ ... يا ربِّ صُنْها عن الآلامِ والتَّعَبِ

مَـا حَـلَّ في بَلَـدٍ إلا أحـاطَ بِـهِ كُلُّ الكِـرَامِ وجَمْـعُ الصِّيـدِ والنُّجُـبِ

ومـا ذَكَـرْتُ بَديعًـا مِـن مَحَابِـرِهِ إلا ارْتَوَيْـتُ بِـهِ مِـن أكْـرَمِ السُّـحُبِ

تَـرَىٰ بِـهِ حَاتِـمًا إنْ جئـتَ تَسـأَلُهُ يَجُودُ بِالفَضْلِ لَـمْ يَحْجِبْ ولَـم يَخِبِ

فـكلُّ مَعْنًـىٰ جَميـلٍ كُنْـتَ تَسْـمَعُهُ أبصَرْتُـهُ فِيـهِ لَـم يُخْلَـفْ ولَـم يَغِبِ

هِـيَ المَـكَارِمُ إنْ أعْطَتْـكَ أوَّلَهَـا أَلَـحَّ آخِرُهَـا في السَّـعْيِ والطَّلَـبِ

❋❋❋

أحمد

الرياض

٢٣/ ٣/ ١٤٤٠هـ

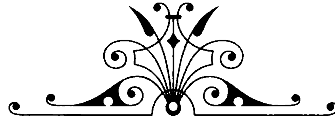
والوطني، وقد أحسن الدكتور أحمد في اختيار الأحاديث

لصديق العزيز الدكتور

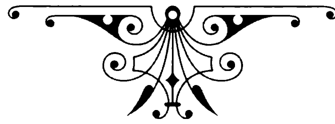
محاولة كتب سماحة البيان النبوي محاولة جيدة

لا تخضع لأقلام كثيرة، ولا شك أن

النبوي موفقة



المقدّمة



المقدّمـة

اللهم لك الحمد فأنت أهله، ولك الشكر فأنت أهله، لا تزال مِنَنُك تترىٰ، ولا يزال تقصيرنا يطغىٰ، فأسألك اللهمّ رحمةً من عندك تهدي بها قلبي، وتلمّ بها شعَثي، وأسألك الحول والعزم والقوّة في الحق والخير، وأسألك اللهم علمًا نافعًا، وقلبًا مخلصًا صادقًا، وجنانًا ثابتًا. وأصلّي وأسلّم علىٰ معلّم الناس الخير، وقدوتهم في العدل والبرّ، محمد بن عبدالله الصادق الأمين، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

فمن رحمة الله بهذه الأمة أنْ جعلها كالنبع الدفّاق، لا يجفّ ماؤها، ولا ينضب عطاؤها، ولا تُجدب أرضها. ولا تزال طائفة من أبنائها علىٰ الحق سائرين، لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم. وكان لهذه الأمة في كل خلف وجيل رجالٌ عدولٌ، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وكيد الكائدين، ولا تزال أوقاتُهم وقفًا لأمتهم، وأقلامُهم مشرعةً دفاعًا عن حياضهم، وألسنتُهم تلهج نصيحةً لقومهم.

ومن هؤلاء ـ فيما أحسب ـ أستاذي الجليل، بل وأستاذ الجيل: الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسىٰ[1]، الذي أمضىٰ جُلّ عمره مع العلم ومن أجل العلم، وسارت بمؤلفاته الركبان، وتنقَّل بين العديد من البلدان؛ تدريسًا وتعليمًا، ومناقشة وتوجيهًا، حتىٰ بوّأه ذلك منْزلةً يستحقها، ومكانةً يتفرّد بها.

---

(١) التزمت في جميع المواضع في هذا البحث بحكاية "أبو موسىٰ"؛ لأنه لم يُستخدم كنية، بل أضحىٰ لقبًا لعائلته.

ووفاءً للعلم وأهله، وقيامًا ببعض حقهم، وكشفًا لجهود علمية قيمة، وتنبيهًا إلىٰ قضايا شغلتْ الروَّادَ وأهمّتهمْ، ورغبةً في فتح باب جديد من أبواب البحث؛ أقدمتُ علىٰ تأمّل مقدّمات شيخي الكبير ـ أطال الله عمره علىٰ طاعته، وأمدّه بالتوفيق والعافية، وحباه قرَّة عين دائمة ـ بما حوته وغَزُرتْ به. وكم أوصيتُ طلابي ونصحتهم بالقراءة للشيخ؛ لأنها تفتح أبوابًا لمسائل وأفكار ورؤىٰ نافعة بإذن الله، تزخر بها مقدّماته وتوجيهاته، وتفيض بها بحوثُه ومؤلَّفاتُه، فهي غذاء لنقاء المنهج، وصفاء الفكر، والعزيمة علىٰ البحث، وزادٌ يُهديه عالم بصير، ومجرِّبٌ خبير، وأعظمُ ما يكون للعالم من أثر حين تكون دراساته منبّهةً لقضايا، ومؤسِّسةً لأصول، ومقيمةً لمنارات يهتدي بها الباحثون، وحين تكون كلماته زادًا يَشحذ الهمم، ويُعلّم القيم، ويحذِّر من الخطر.

وعلّمنا الشيخُ ـ وما أكثرَ ما علَّمنا وأزكاه! ـ أنّ من عادات العلماء الكريمة السخية التنبيهَ إلىٰ آفاق جديدة في البحث يتّسع بها العلم وينمو، ويتواصل اتساعُه ونموُّه[1]، قال ذلك في سياق حديثٍ يصف فيه علم أبي الفتح ابن جنّي، وما قرأت هذا القول إلا وجدته يعبّر عن ذات منهجه وعلمه، ولا عجب إذْ "شبيهُ الشيء منجذبٌ إليه"، وقد كان الشيخ ابنًا بارًّا بأولئك الأسلاف الأفذاذ، يحيي بما يكتبه ويدعو إليه ويعمل به ذِكرَهم وسِيرَهم، ويبثّ أنفاسَهم، وينشر أريجَهم، حتىٰ كأنّ أبا الطيّب يعنيه حين شدا:

قطَفَ الرِّجالُ القَولَ وقتَ نباتِهِ ... وقطفتَ أنت القولَ لمَّا نوَّرَا

فَهوَ المُتَبَّعُ بالمَسامِعِ إنْ مضَىٰ ... وَهوَ المُضَاعَفُ حُسنُهُ إنْ كُرِّرَا

(١) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٨١.

وَلَـقِـيـتُ كُــلَّ الـفَـاضِـلِـيـنَ كـأنّـمَـا ... رَدَّ الإلَــهُ نُـفُـوسَـهُـمْ وَالأعْـصُـرَا

إنها دراسة موجزة تسعىٰ لاستخراج أهمّ ما تضمّنته مقدّمات الأستاذ الدكتور محمد أبو موسىٰ من قضايا فكريّة، ومسائل علمية، وهي دراسة تثقل خطاها في تتبُّع الشيخ الكريم، بعرض آرائه المبثوثة في هذه المقدّمات وترتيبها، وترىٰ أنّ هذا العرض يمكن أنْ يكون مقدّمة لدراسات أوسع وأشمل، وجهود أبلغ وأرسخ(1). وإني عازم إنْ كان في العمر بقيّة، وفي العزيمة جذوة، مع مشيئة الله وعونه، أنْ أتوسَّع في هذه الدراسة لتمتدّ إلىٰ متون مؤلَّفاته، فقد كان في مقدّماته إلماحات وفي متون بحوثه إفاضات، وفي مقدّماته دعوات وفي بحوثه تطبيقات.

وكان من أسباب تأخري في طباعة هذا البحث وإخراجه أني كنت أودّ أن أضيف إليه المقدّمات التي كتبها ـ حفظه الله ـ بعد بحثي؛ أي بعد عام ١٤٢٩هـ، لكني وجدتُ الشيخ ـ حفظه الله ورعاه ـ أكثر همّة، وأسبقَ عَدوًا، وعلمتُ أني لن أسبقه، وأنّ التأجيل ربما يكون سببًا في فوات خير كثير؛ فرأيت المبادرة إلىٰ إخراجه خيرًا من التسويف، بعد أنْ همس القطامي في أذني:

وربّمـا ضَـرَّ بعـضَ النـاسِ حَزْمُهُـمُ ... وكان خيـرًا لهـمْ لـو أنّهـمْ عَجَلُـوا!

لاسيما ومقدّماته المضمّنة في هذا البحث كافية لتمثيل فكره وآرائه وتوجُّهاته اللغوية والبلاغية والتربوية والفكرية.

---

(١) مما تنبغي الإشارة إليه والتنبيه عليه أنّ ما أنقله عنه من غير توثيق له من كتبه هو مما أخذته عنه مشافهة، في أحد اللقاءات التي شرفتُ بها، ورأيتُ أنّ فيها فائدة أو إضافة، وقد يكون لها وجودٌ ندَّ عني في موضعٍ ما من مقدّماته أو كتبه.

وقد ظلّ هذا البحث ـ علىٰ مدىٰ سنوات ـ قريبًا مني أطالعه بين الفينة والأخرىٰ، وأدوّن عليه ملحوظات، أو إضافات، حتىٰ تبيّن نموّه بأربع مراحل:

الأولىٰ: بعنوان "معالم التجديد البلاغي والنقدي في مقدّمات الدكتور محمد أبو موسىٰ الصادرة حتىٰ نهاية العام ١٤٢٩هـ"، ونُشر في العدد السابع والعشرين الصادر عام ١٤٣٠هـ من مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر في القاهرة. وقد قرأ الشيخ هذه النسخة وأجازها قبل أن أقدّمها للتحكيم والنشر.

والثانية: تقديمه مختصرًا ضمن بحوث مؤتمر "معالم التجديد في علوم اللغة العربية" المقام في رحاب كلية اللغة العربية بالزقازيق في جمهورية مصر في منتصف شهر ربيع الآخر من عام ١٤٣٠.

والثالثة: إضافة الكثير من الآراء والأقوال التي أتحفني الشيخ بها في لقاءاتنا ودروسنا الخاصة التي شرُفت بها بعد المرحلتين الأوليين. وقد اطلّع الشيخ علىٰ هذه النسخة في منتصف عام ١٤٣٩هـ في القاهرة، وأجازها بعد تعديلات طفيفة طلب إجراءها، ونفّذتُها.

والرابعة: هي النسخة الماثلة بين يدي القارئ الكريم، وهي التي عنونتها بـ"فرائد نفيسة من مقدّمات الدكتور محمد أبو موسىٰ وسيرته"، وذلك أني مكثت أشهرًا بعد عرضي للنسخة الثالثة عليه ـ حفظه الله ـ أقلّب النظر فيها، وأضمّ إليها أقوالًا وآراء غير التي سبق إدراجها، أفادني بها خلال ثماني سنوات، إضافة إلىٰ فوائد في لقاءاتي الأخيرة معه في بيته في القاهرة شهر جمادىٰ الأولىٰ من عام ١٤٣٩هـ، وصرتُ أضمّ النظير إلىٰ النظير، وأربط بين الأقوال والآراء، حتىٰ وجدتُ أنّ ما تجمّع لديّ ليس خاصًا

بمقدّمات كتبه، بل إنّ ما عرفته عنه، وما أفادني به يستحق أنْ يكون في لُبّ البحث، وهذا ما كان. ولربما اقترب البحث بصورته الحاضرة من كونه سيرة مجملة للشيخ؛ بما حواه من ترجمة له، ونظر في أقواله وآرائه في شتىٰ المجالات[1].

وأصْل هذا البحث ـ فيما أعلم ـ أول بحث كُتب في الشيخ وعلمه، وكان شديد العزوف ـ ولا يزال ـ عن أن يكتب أحدٌ فيه شيئًا، ولهذا البحث قصةٌ معه تستحقّ أن تُروىٰ؛ لأنها تكشف عن معدن نبيل، وصدق وإخلاص في يقين. فحين عزمتُ علىٰ كتابة البحث هاتفته مستشيرًا ومستأذنًا، وكنت علىٰ تواصل دائم معه؛ فوجدتُ منه حِدَّةً وغضبًا، وبدأ يلومني علىٰ التفكير في هذا الموضوع، وقال لي بالحرف الواحد: "لا تنشغلْ بي ولا بغيري من الأشخاص يا أحمد، وانشغل بالعلم ولا تحِدْ عنه؛ فإنْ كنتَ لابدّ فاعلًا فعليك بأهل العلم القدماء". حاولت إقناعه بأنّ البحث يسعىٰ لتقريبِ علمه وآرائه، ولا يتجه للحديث عنه بذاته، أو مدحه والثناء عليه، فهو في غِنىٰ عنه، لكنه نهرني، فأنهيت المكالمة بعد أن شعرت أنه يوشك علىٰ قطْع المكالمة بيننا!

وظللتُ أيَّامًا أبحث عن وسيلة لإقناعه، ثم اتصلت عليه ملاطفًا ومعيدًا لطلبي، فأصرَّ علىٰ رفضه ورأيه، فأجبته بأني اتصلت به واستأذنته، لكنّ غيري ممن لا يعرفه قد يكتب من غير استئذانه، وكم يتشوّق الباحثون والطلّاب إلىٰ التعرّف علىٰ أبرز محطّات حياته وآرائه، طلبًا للانتفاع وإثراء التجارب، وبناء الآخر علىٰ الأول، كما يحثّ هو، فَلانَ عند ذلك، وإنْ بقي متردِّدًا. ثم وعدته بأني سأعرض البحث عليه بعد

---

(١) أجد من الواجب أنْ أشير إلىٰ أنّ ما بثثته من شعر أو ثناء في أعطاف سطور المقدّمة والترجمة كان إضافات مني أواخر مراجعات إعداد الدراسة للنشر، ولم أُطلعه عليها ليقيني أنه سيرفضها، لكني لم أجد بُدًّا من أنْ أجعل ذلك سبيلًا يعبّر عن بعضٍ من مشاعر مكتومة ترىٰ من حقِّها وحقّ العلم أنْ يُفرجَ عنها، والشيخ يستحقّ أكثرَ!

الانتهاء منه ليقرأه قبل أيِّ أحد غيره، وليتأكّد من صحة فهمي لكلامه وآرائه، فإنْ وجده مناسبًا أخرجته، وإلا فله الحق في تمزيقه؛ فقبل مشكورًا مأجورًا. ومضيت في عملي بنفس مقبلة مطمئنّة، حتىٰ إذا انتهيت بعثت إليه بنسخة منه، واتصل بي بعد أيام مقرًّا وموافقًا، وقال: «والله يا أحمد لقد دمعت عيني وأنا أقرأ قولك عني في البحث: "إني كنذير في أعلىٰ جبل يرىٰ خيول العدو مقبلة من أمامه، ويرىٰ قومه غافلين من ورائه، فهو يصيح فيهم: النجاء النجاء!"، جعلنا الله ممن يقوم بواجبه!».

ومما يرتبط بسبب إلىٰ هذا السياق ويتّصل به قصّةٌ حدثت بعد تسعة أعوام من قصّتي السابقة، وهي التي حدّثني بها الناشر الأستاذ سلطان حسين وهبة في القاهرة أثناء مراحل طباعة هذا البحث، حيث ذكر موقف الدكتور محمد أبو موسىٰ من كتاب أراد أستاذي الجليل الدكتور محمود توفيق محمد سعد تلميذُ الشيخ البارُّ أن يطبعه لدىٰ مكتبة وهبة، وهو كتاب "الكلمة نور" الذي كتبه قراءةً لكتاب شيخنا أبو موسىٰ "شرح أحاديث من صحيح مسلم"، وبيانًا لمنهج الشيخ في شرحه وتحليله، فما إنْ علم شيخنا بذلك حتىٰ اتصل بالناشر وقال له: "أنا خصيم لك يوم القيامة إن نشرت هذا الكتاب"، وقد ظنه مدحًا وثناءً! لكنّ الأستاذ وهبة أجابه إجابةَ الفطنِ الأريب وقد علم غاية قصد الشيخ: "لكنك ستتحمّل وِزرَ كتم العلم!"، فسأل شيخنا متعجّبًا عن السبب، فأجابه: "إن الكتاب يتضمّن وقفات مع شرحك، وفيها نقد واستدراك، ويتضمّن بيانًا لطلاب العلم يكشف عن طريقة فهم كلامك وتحليلك"، وعند ذاك قَبِل الشيخ الماجد نشرَ الكتاب!! ثمّ لقيتُه فسألته عن موقفه ذاك، فقال: «إني لم أعلم بالكتاب إلا بعد أن كُتب، ولو استشارني محمود قبل أن يكتب أو علمت بما يخطّط له فلن أقبل، وما دام قد كُتب فلا وجه لمنع نشره».

وهذه الدِّراسة تُهدىٰ مع كل التقدير إلىٰ شخصه الكريم، الذي كانت توجيهاته الشخصية للباحث في مناقشتيه وبعدهما[1] حافزًا إلىٰ مزيد من السعي والجدّ في تحصيل علم نافع، وكم شعر الباحث بضعف وفتور كان لقاء شيخه كافيًا في دفعه.

كانت مُسَاءلةُ الرُّكبانِ تُخبرُنا ... عن جعفرِ بنِ فلاحٍ أطيبَ الخبرِ

ثمّ التَقَينا، فلا واللهِ مَا سَمِعَتْ ... أُذُني بِأحسنَ مما قد رَأىٰ بَصَري!

وكان ينطبق عليه بحقٍّ وصفُه لشيخه محمود شاكر ﵀، حين قال: «منحَ هذه الأمّةَ عقلًا زاكيًا، ووجهًا قاصدًا، وعزمًا ماضيًا، وعاش يرعىٰ العلم وأهله، رعاية نبيلة في زمن غير نبيل، وأعاد بذلك قبَسًا باهرًا من سيرة سلف هذه الأمّة ﵃، وألحقنا بهم كرامةَ نفس وقرّةَ عين»[2].

وأمّا المؤلِّف فحسبه أنْ يقدّم لقارئ هذا الكتاب مفاتيحَ يفتح بها أبوابًا من علم الشيخ، وأنْ يكون مثل "قَطَاةٍ تَهدي إلىٰ مورد ماء!"، مستحضرًا تنبيه شيخه إلىٰ «أنّ علم العلماء الذي نقرأه مَسْكونٌ فيه علمٌ مسكوتٌ عنه لم تقرأه، وربما كان أزكىٰ وأصفىٰ وأنقىٰ من العلم الذي نقرأه، ولا شكّ أنّ من مهمات الأقلام الحيّة التي تحرّكها عقول

---

(١) تمتدّ صلة الباحث الشخصية بأستاذه إلىٰ عام ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، حين ناقشه في مرحلة الماجستير، ثم شرُف الباحث بأن ناقشه كذلك في مرحلة الدكتوراه في عام ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م، وبعد ذلك شرّفه شيخه بأنْ كان بينهما لقاءات واجتماعات ومناقشات ودروس خاصة في الرياض ومكة والقاهرة، وكان يهديه كتبه، ويكتب بخطه عبارات إهداء يفخر بها الباحث ويسعد. وزاده تشريفًا بأنْ قرأ بحوثه المقدّمة للترقية وأقرّه عليها وأجازه بها قبل القرار الرسمي بالموافقة عليها، وشجّعه بثناء كريم، وحفّزه للمزيد؛ جزاه الله عنه خير ما جزىٰ أستاذًا عن تلميذ!

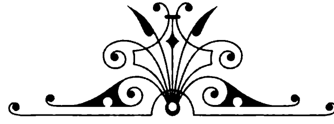
(٢) دلالات التراكيب ٢٠.

حية البحثَ عن هذا الساكن المسكوت عنه»[1]. ولعلّ قارئًا يكون مُلْهَب الطبع، حادَّ القريحة، تتبيّن في أضواء عقله أسرار، وتتكشّف علىٰ يديه علوم[2]، والله وحده الموفِّق والمعين، وهو الهادي إلىٰ سواء السبيل.



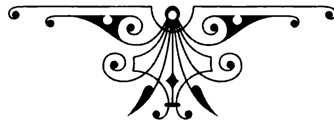
(١) المسكوت عنه في التراث البلاغي ١٢.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ٤٥١.



التمهيد

- سِيرة الدكتور محمد أبو موسى
- مقدّمات الدكتور محمد أبو موسى



التمهيد

سِيرة الدكتور محمد أبو موسى

هو[1] أستاذ الجيل من البلاغيين، ورائد البلاغة في العصر الحديث، محمد بن محمد بن حسنين أبو موسىٰ[2]، وُلد في قرية الزوامل البحرية، من مركز دسوق، في محافظة كرم الشيخ، في اليوم الثلاثين من الشهر السادس من عام ١٩٣٧م.

حفظ القرآن الكريم في صغره، وبدأ الدراسة في الأزهر عام ١٩٤٩م، حتىٰ حصل عام ١٩٦٣م علىٰ الإجازة العالية - وهي المسمّاة حاليًّا بالبكالريوس - من كلية اللغة العربية. وكان نظام الدراسة في وقته أنّ طالب كلية اللغة العربية يختار في السنة الثالثة شعبةً من إحدىٰ الشعب الثلاث: الفلسفة، أو الشريعة، أو التاريخ، وقد التحق أستاذنا حينها بشعبة الفلسفة، لكنّ النظام تغيّر بعد إنهائه السنة الثالثة، فأصبحت الكلية في السنتين الأخيرتين مقسومة إلىٰ شعبتين: الشعبة اللغوية، والشعبة الأدبية، فاختار الشعبة اللغوية، وتخرّج فيها بتقدير جيد جدًا، وكان من أوائل الكلية، ومن النادر جدًا أن يحصل أحد من الطلاب حينذاك علىٰ تقدير أفضل من هذا، ولهذا كان أحد خمسة من الطلاب اختيروا للعمل معيدين.

---

(١) أخذت ترجمته منه مشافهة في لقاءات عديدة، ثم عرضتها عليه في أواخر جمادىٰ الأولىٰ من عام ١٤٣٩هـ، وسيرد في المباحث الفرائد بعض القصص التي تمثل جوانب شخصية من حياته، لكني ألحقتها بتلك المباحث لتعلّقها بها، ولكونها تشرح جوانب منها.

(٢) اسمُ والده "محمد" كاسمه، واسمُ جدّه حسنين، وأمّا تسمية أبيه بـ "حسنين" فهو خطأ ظهر علىٰ غلاف طبعة قديمة لكتابه "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري".

تعيّن معيدًا في الكلية ذاتها عام ١٩٦٤م، وحصل علىٰ إجازة التخصص ـ وهي المسماة حاليًّا بالماجستير ـ في البلاغة والنقد عام ١٩٦٧م. وقد كانت الدراسة في هذه المرحلة مكونة من دراسة مقررات لمدة سنتين، ثم بحث تكميلي، كان عنوانه: "بلاغة المفتاح: دراسة وتقويم"، لكنّ هذا البحث لم يكن إلا نسخة وحيدة مكتوبة بخط اليد، سُلِّمتْ للمشرف، ولم تعُدْ!

وفي عام ١٩٧١م حصل علىٰ إجازة العالِمية ـ وهي المسماة حاليًّا بالدكتوراه ـ في البلاغة والنقد، وكان عنوان أطروحته: "البحث البلاغي في تفسير الكشاف وأثره في الدراسات البلاغية"، ومشرفه في تلك المرحلة هو الشيخ كامل الخولي، الذي أفاده كثيرًا؛ إذْ كان رجلًا شديد التدقيق كما يصفه.

وناقشه في تلك الأطروحة الدكتور محمد جمعة حسنين، والدكتور بدوي طبانة. قال الدكتور بدوي في آخر مناقشته: "مرَّت ثلاث ساعات وأنا أحاول أنْ أهدّ أبو موسىٰ فلم أستطع!"، وقد نقل أحد الأساتذة ممن حضر تلك المناقشة أنّ الدكتور بدوي قال: "نحن في مناقشة عالم، لكنّ طبيعة هذه المناقشات تفرض أن نستثير الطالب لنعرف قدرته علىٰ المحاورة، واقتناعه بما يقول"[1].

ومن ذكريات الشيخ حول هذه المناقشة أنه قابل الدكتور بدوي قبلها، فقال له: «أودّ أنْ أعرف في المناقشة مستواي، وأنْ تخبرني إنْ كنت أستحق المواصلة في هذا الباب، أم أنصرف عنه إلىٰ غيره! وأمّا الدرجة العلمية والرتبة الوظيفية فلا تهمّني في شيء!».

---

(١) أظنه الأستاذ الدكتور صابر عبدالدايم، تعليقًا علىٰ أصل هذا البحث حين قدّمت مختصَرًا له في مؤتمر "معالم التجديد في علوم اللغة العربية".

كما لفت نظري إلىٰ أمر مهمّ نافع، حيث قال: ((من الغريب أني في هذه الرسالة لم أناقش أحدًا من المعاصرين غير بدوي طبانة وشوقي ضيف، وقد ناقشتهما ـ مع تقديري لهما ـ مناقشةَ الرافض لبعض آرائهما، ولم يرتض الدكتور بدوي هذا الموقف مني ولم ير رأيي، إلا أنّ ذلك لم يؤثّر في حكمه عليّ)).

وقد نشر هذا البحث فيما بعد بعنوان: "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية"، ويروي قصة تغيير عنوان هذا البحث بقوله: ((كان من شيوخنا الشيخ أحمد الشرباصي، وهو رجل ألوفٌ لم يُعهد مثله، إذْ كان شديد المتابعة لنا كمتابعته لأولاده. وأذكر أنه علم بموعد مناقشتي في الدكتوراه وهو في مطار القاهرة عائدًا من مؤتمر في ليبيا فخرج من المطار إلىٰ الجامعة، وكان معه ورقة أثناء المناقشة يدوّن فيها ملحوظاته، وبعدها بأسبوع نشر دراسة حول المناقشة. وحين علم بعزمي علىٰ طباعة رسالة الدكتوراه، أشار عليّ بأن أغيّر عنوانها إلىٰ عنوان يكون أدخل بالقرآن؛ لأنّ هذا أدعىٰ إلىٰ انتشارها، فاقترحت أن يكون العنوان "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري"، فأيّد ذلك ووافق عليه، وهذا ما كان)).

ثم كان من أوائل بحوثه بعد تلك المرحلة بحثاه الغنيّان النافعان "خصائص التراكيب" و"التصوير البياني"، والأول متضمّن للجزء الأول من علم المعاني، والثاني متضمّن لعلم البيان، حيث عرض مسائل العلمين بأسلوب تحليلي مميّز، وناقش فيهما قضاياهما مناقشة ثريّة، ظهر فيها نفَسُه وعُمقُه. وعلىٰ أعتاب هذين البحثين جاءت ترقيتُه إلىٰ درجة أستاذ مشارك عام ١٩٧٧م.

وذكر في هذا السياق قصة واقعية طريفة، حيث ذكر أنّ الأزهر أصدر قرارًا في بدايات حياته العملية بأنه لا يحقُّ للمتقدم للترقية أن تكون بحوثه في متن العلم، ولأنّه

لم يكن يكتب ويبحث لغرض الترقية لم يلتزم بذلك، وقال: ((بل سأكتب! فإنْ شئتم فرقُّوني، وإنْ شئتم فلا!))، فكتب "خصائص التراكيب" و"التصوير البياني"، فكانا محلَّ إجماع علىٰ أهليّته للترقية.

ومع مكانة ما كتبه فيهما، وإجماع المجالس العلمية علىٰ أحقيته للترقية بموجبهما، فقد فاجأني ذات يوم بقوله: ((ندمتُ علىٰ أني كتبت في المعاني والبيان في مطلع حياتي العلمية؛ لأني أرىٰ أنّ هذه المسائل كانت تحتاج إلىٰ نُضج علميٍّ وطول ممارسة، ولو تأخرتُ وتريّثتُ في تأليفها لربما خرجت في حال أفضل. ويوضِّح بأنّه نزع فيهما إلىٰ الكتابة بأسلوب يسير علىٰ الطلاب، وبلغة حرص أنْ يتنزّل فيها إلىٰ مستواهم، لكنه بعد ذلك عرف أنّ الواجب أنْ يكتب بلغة تليق بمستوىٰ المادة العلمية التي يقدّمها، لا بمستوىٰ من تُقدَّم لهم، وأنّ المؤلِّف بهذا يرتفع ويرتقي بمستوىٰ القرّاء، ويحافظ علىٰ متانة العلم، وأنّ هذا هو السبيل الأنفع والأقوم)).

وواصل بعد ذلك الكتابة في متن العلم، فصدر بحثه العالي "دلالات التراكيب"، المتضمّن للجزء الثاني من علم المعاني، وبه كانت ترقيتُه إلىٰ درجة أستاذ عام ١٩٨١م. وسألته عن سبب عدم تضمّن هذا الكتاب لمبحث "الإيجاز والإطناب والمساواة" فجاءت إجابته لتؤكِّد لي صدقًا وجدًّا واجتهادًا في تقديم الجديد النافع، حيث قال: ((سبب ذلك أنّ "الإيجاز والإطناب" من ثوابت المعرفة التي قلّما يتغيّر منها شيء في كتاب، وأنّ مَن يُحصِّلها في "الإيضاح" ـ أو في غيره من كتب العلم ـ فقد حصّلها، وأنا لم أشأ أنْ أكتب إلا فيما يمكن أنْ أضيف فيه شيئًا ينفع الناس، ولـمّا لم أجد في هذا الباب الشريف عندي شيئًا ينفع الناس أحجمتُ عن الكتابة فيه)).

ولفت نظري اختلافُ عنوانَي دراسَتَي علم المعاني؛ فالأولىٰ أخرجها بعنوان "خصائص التراكيب" والثانية أخرجها بعنوان "دلالات التراكيب"، فاستفسرتُ منه عن سرّ ذلك؛ فأجابني بأنّ السبب لا يرجع إلىٰ أمر علميّ. وتوضيحًا لذلك قال: «كنت أنوي الكتابة في علم المعاني كله تحت عنوان "دلالات التراكيب"؛ لكون هذا المصطلح أقرب إلىٰ روح البلاغة الباحثة وراء الدلالات والأسرار، وبهذا العنوان خرج الجزء الأول أثناء وجودي في ليبيا، وكان لجامعة بني غازي حق نشره لمدة محدّدة حيث توزّعه علىٰ طلاب العلم هناك مع كتابي الآخر "التصوير البياني". وحين أردتُ نشره بعد ذلك بسنوات في مصر اخترت له عنوانًا آخر ليميّزه عن النسخة الليبية، وهو "خصائص التراكيب"، وبلغني أنّ جامعة قاريونس لا زالت تطبع هذا الجزء. وحصل الخلط بسبب هذا بين الكتابين، فـ"دلالات التراكيب" في الطبعة الليبية هو "خصائص التراكيب" في الطبعة المصرية، و"دلالات التراكيب" في الطبعة المصرية غيرُهما، وكُتبت بعدهما بسنوات».

كما لفت نظري أنه فصَل بين دراسَتيه في علم المعاني (الخصائص والدلالات) بدراسة علم البيان في "التصوير البياني"، فسألت عن سبب هذا الفصل وداعيه. فأخبرني أنه كان لا يكتب في مسائل العلم إلا بعد أنْ يدرّسه سنوات في قاعات الدرس؛ لأنّ تدريس المادة العلمية يصقل علم الأستاذ، ويستزيد بتدريسها في معرفة أصولها ومراجعها وأقوال أهل العلم فيها، وأنه في كل فصل دراسي يراجع وينقّح ويتأمّل ويزداد معرفة وبصيرة؛ فإذا أقدم علىٰ التأليف فيها كان ذلك مبنيًّا علىٰ استيعاب دقيق وفهم عميق. ومن أجل ذلك كتب "الخصائص" في أحوال الإسناد، وكتب "التصوير البياني" إذْ كان يدرّسهما في ليبيا، ولم يكتب "الدلالات" المتضمنة لمسائل القصر

ونوعي الكلام والفصل والوصل إلا بعد تدريس هذه المباحث في مصر، وكذلك لم يكتب "الشعر الجاهلي" إلا بعد تدريسه سنوات. وأمّا بحوثه الأخرىٰ فلم يرتبط تأليفه لها بتدريس مقرّرات لأنها بحوث تطبيقية، تفرّعت من علوم البلاغة.

وينبّه إلىٰ أنه من الخطأ علىٰ الدارسين أن يتركوا دراسة متون العلوم، بل يوصي المتخصِّصين في البلاغة أن يدرسوا أبوابها أو شيئًا من أبوابها، كدراسة الفصل والوصل مثلًا أو القصر أو التشبيه؛ لأن من يقوم بذلك سيقدمه بأسلوبه وبروح عصره مما يكون نفعه أكبر علىٰ الطلاب. ويضرب مثلًا لهذا بالفقه حيث إنّ حركة التأليف في الفقه الحنبلي لم تتوقف بعد أحمد بن حنبل، بل ها هو الشيخ ابن عثيمين قد كتب وانتفع الطلاب بذلك؛ ويرىٰ من الخطأ الكبير انتقاص فائدة التأليف في هذا الميدان بحجّة أنه نوعٌ من التأليف المدرسيّ. ومثل ذلك يقال عن الدراسات التطبيقية علىٰ أحد أبواب علم البلاغة؛ لأنها تقرّب العلم إلىٰ نفوس الطلاب، وتزيدهم وعيًا به، وفهمًا له.

وممّا له صلة بهذا السياق معلومة خفيّة تتعلق ببدء حياته العلمية، إذْ قال لي: "كنت أثناء دراستي أجتهد في مادة البلاغة أكثر مما أجتهده في غيرها من المواد؛ لأني لم أكن مقتنعًا بها مطلع حياتي، ولأني أجد صعوبة فيها، وكنت أخاف أنْ تكون سببًا في نقص درجاتي، أو تخلّفي عن الترتيب الأول الذي كنت أناله في مراحل الدراسة الجامعية كلها بفضل الله. فكان هذا الأمر حافزًا لي من أول وقت حملت فيه القلم أنْ أحقّق أمرين:

أولهما: تذليل هذه المادة، وتسهيل ما فيها من صعوبة في لغتها، فمهمّة العلماء نقل العلم إلىٰ لغة العصر.

وثانيهما: أنْ أشوّق القارئ إلىٰ هذه المادة عن طريق ما يجده فيها من فائدة علمية، ومن عون علىٰ فهم القرآن والسنّة والشعر والأدب.

وبناء علىٰ هذين الهدفين صرت لا ألتفت إلىٰ أنْ يقال إني نجحت أو لم أنجح، أو أن يقال: "ما الذي غيرتَه في الواقع؟"؛ لأنّ عليّ أنْ أعمل وليس عليّ النتائج، والرسل وهم أكرم البشر ليس عليهم إلا البلاغ، وتأمّل قول الحكيم سبحانه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢]، فكأنّ الله يقول لرسوله: "في كل الأحوال ليس عليك إلا البذل والجهد والعمل"، وهذا حماني من الإحباط».

وسألته عن سرّ عدم كتابته كتابًا خاصًّا في البديع، كما كتب في المعاني والبيان، مع أنه وقف في تحليلاته في كتبه عند صور منه، وأبان ما فيها من بلاغة وجمال، وهل هذا يعبّر عن رأي عنده في علم البديع؟ فأجاب أنّ الأمر لا يعبّر عن شيء من ذلك، بل إنه يتمنىٰ لو كتب فيه، لكنّ ذلك يرجع إلىٰ سببين:

الأول: يرجع إلىٰ ارتباط ذلك لديه بتدريس مسائله مدة كافية لاستيعابها، وحيث إنه درّس البديع، لكنّ ذلك كان في مدة محدودة لم تتكرّر، فقد انصرف عن التأليف فيه. وهذا يؤكّد ظاهرة في منهجه، وهي أنه لا يكتب في باب إلا بعد أن يستوعبه استيعابًا شاملًا وكافيًا للكتابة والتأليف فيه.

والثاني: أنه بعد أنْ كتب في المعاني والبيان وجد قضايا أهمَّ شغلته عن تخصيص كتاب للبديع، وهي النظر في القرآن والحديث والشعر الجاهلي، وأنها الأصول التي يجب أن تولىٰ العناية التي تستحقّها. لأنّ علم البلاغة حين يُتعامل معه بوصفه متنًا ستكون فائدته محدودة جدًّا، لكنه حين يكون وسيلة لتحليل كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ والشعر الجاهلي فستكون فائدته جليلة جدًّا.

وبيّن أنّه كتب قديمًا مذكّرة مختصرة في البديع، وأنّ الدكتور محمود توفيق طلب منه أنْ يُكملها، لكنه كان مشغولًا عن ذلك. ثم علم مؤخرًا (في العام ١٤٣٩هـ) أنّ الدكتور محمود يعمل في استخراج تحليلاته لصور البديع في جميع كتبه ليخرجها في كتاب، وهو العمل الذي استجاب الشيخُ له بعد إلحاح وإن كان لم يوافق عليه؛ لأنه يقول: «لا أحبّ أن يُسند لي إلا ما كتبته يداي». وقد فرحتُ بهذا المشروع، وأبديتُ للشيخ فرحي به وإن خالف رأيه؛ لأنّ الدكتور محمود توفيق خير من سيقوم بذلك؛ فهو رجل علم، وتلميذ للشيخ قريب منه، يُحسن فهم كلامه وعرضَ آرائه.



وحين ننظر في سيرته العمليّة والوظيفية تظهر لنا رحلاتٌ وتنقُّلات، وعملٌ دؤوب في رحاب دول وجامعات، خلال قرابة سبعة وثلاثين عامًا؛ امتدت من عام ١٩٧٣م إلىٰ عام ٢٠١٠م.

حيث عمل من عام ١٩٧٣م إلىٰ ١٩٧٧م في كلية اللغة العربية بجامعة بني غازي بليبيا، وهي الجامعة التي تأسست تحت اسم "جامعة محمد بن إدريس السنوسي"، ثم تغير اسمها إلىٰ "الجامعة الإسلامية"، ثم تغير اسمها إلىٰ "جامعة بني غازي"، ثم أصبح اسمها "جامعة قاريونس".

ثم عمل أستاذًا زائرًا في كلية الآداب للبنات بجامعة أم درمان السودانية عام ١٩٧٩م لمدة ثلاثة أشهر. وخلال تلك الأشهر وضع منهج البلاغة لسنوات الدراسة الأربع، وعُرض هذا المنهج علىٰ لجنة الأساتذة، ووُفِق عليه دون أيّ تعديل، فرأوا مكافأته علىٰ ذلك بدعوته للعمل في الكلية لمدة أطول، إلا أنه اعتذر؛ لأنّ وعدًا منه كان قد سبق لجامعة أمّ القرىٰ بمكة المكرّمة، وكان توّاقًا إلىٰ مجاورة الحرم الشريف.

وتحقّقت رغبته في الأعوام من ١٩٨١م إلىٰ ١٩٨٥م حيث عمل أستاذًا في جامعة أم القرىٰ، عاد بعدها ليرأس قسم البلاغة في كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر بالقاهرة، ثم عمل أستاذًا زائرًا في جامعة أم القرىٰ لمدة ثلاثة أشهر عام ١٩٨٦م. وعاد بعدها إلىٰ القاهرة ليستمرّ رئيسًا لقسم البلاغة حتىٰ العام ١٩٩٤م.

ويبدو أنّ الشوق إلىٰ بلد الله الحرام قد غلب علىٰ أستاذنا، فعاد مرة أخرىٰ للعمل أستاذًا في جامعة أم القرىٰ لمدة أربعة عشر عامًا متواصلة، وذلك في الأعوام من ١٩٩٤م إلىٰ ٢٠٠٨م. وبعد انقطاع عام عن البلد الحرام عاد إليه مرة أخرىٰ في العام ٢٠١٠م حيث ظفرت به جامعة أم القرىٰ التي أحبّته وأحبّها، ليُمضي فيها عامًا جديدًا[١].

وبعد تلك المسيرة الحافلة ألقىٰ عصا الترحال، وعاد موفور الكرامة إلىٰ بلده، مستلذًّا برحاب الأزهر وأروقته:

فألقَتْ عصاها واستقرَّ بها النَّوَىٰ ... كما قرَّ عينًا بالإيابِ المسافرُ

وخلال تلك المدة الطويلة والأعوام المتتابعة التي عمل فيها خارج وطنه الأمّ توثّقت صِلاتُه العلمية بالجامعات وأساتذتها وطلاب العلم، وأشرف علىٰ العديد من

(١) مما يُبين حبَّه للبلد الحرام أني سعيت بعد انتهاء عمله في جامعة أم القرىٰ إلىٰ الظفر به في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بكلية اللغة العربية في جامعة الإمام بالرياض، وكنت إذْ ذاك رئيسًا للقسم، فاتصلت به وبذلت جهدًا لإقناعه، محتجًّا عليه بأن لطلاب الرياض حقًا في الإفادة منه بعد سنوات في مكة، فكان يعتذر بصعوبة الإجراءات لأن عمره حفظه الله قد تجاوز السبعين، ثم استجاب بعد إلحاح ووعد مني بالحصول علىٰ الاستثناء المطلوب، لكنّ الإجراءات الإدارية طالت، وحين تحققت الموافقة هاتفته فرِحًا (أواخر العام ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م)، فأجابني بأن الزمن قد امتدّ، وأنّ جامعة أم القرىٰ وجدت وسيلة إلىٰ إعادته إليها، فرغب في إعفائه معتذرًا بقوله: "والله يا أحمد لولا تلك البَنيّة (يقصد الكعبة) لما وافقت في هذا العمر علىٰ الخروج من مصر!"، فلم يكن لي بدٌّ حينها من الموافقة علىٰ إعفائه من تشرّفنا به!

الرسائل العلمية، كما شارك في مناقشة الكثير منها في مختلف الجامعات السعودية، وفي الأردن والبحرين، إضافة إلىٰ بلده الأمّ. وله في تلك السنوات مشاركات في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية، وله أيضًا مقالات وبحوث في العديد من المجلات الثقافية والعلمية. وحصل في عام ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م) علىٰ جائزة الأداء المتميز في جامعة أم القرىٰ تقديرًا من الجامعة لجهوده وإثرائه الحركة العلمية فيها.

وفي عام ٢٠١٣م صدر قرار بتشكيل أول هيئة لكبار علماءِ الأزهر تضمّ خمسة عشر عضوًا، جرىٰ اختيارهم وانتقاؤهم؛ فكان أحدَهم، وهو تعيين تفاجأ به ولم يسع يومًا إليه ولا إلىٰ غيره. ولا يزال حتىٰ صدور هذا البحث (أواخر عام ٢٠١٨م) عضوًا فيها، مع ما طرأ علىٰ نظامها من توسُّع في زيادة أعضائها، وطريقة تعيينهم.

وخلال عمله في تلك الأعمال داخل مصر وخارجها لم يخالف منهجه الذي درج عليه، وأدام الدعوة إليه، وظلّ منافحًا عن علوم الأمة وتراثها لا تأخذه في ذلك لومة لائم، بل كان يتابع تلاميذه وإنْ كبِروا. وكان شديد التأكيد علىٰ وجوب اتصاف الأستاذ بالعدل والصدق والوضوح والوقوف مع الحق أينما كان، وأينما يعمل؛ لأنّ الأستاذ يجب أن يبقىٰ قدوة صالحة في أعين طلابه.

وربما كشف عن ذلك قوله: «يجب علىٰ مَن ظهر له صواب أنْ يتكلّم به، ولا يعنيه موافقٌ ولا مخالفٌ، وقد نقل الشيخ الشاطبي كلمة جليلة في كتاب الاعتصام تقول: "اسلكوا سبيل الحق، ولا تستوحشوا من قلّة أهله"»(١).



---

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٣٣. والمقالة المذكورة نقلها الشاطبي عن سفيان رحمهما الله في الاعتصام ١/ ٣٤، وقد توسع ﷺ في مقدمة "الاعتصام" في الحديث بهذا المعنىٰ.

ولا يزال وقد تجاوز الثمانين من عمره ـ حفظه الله، وعافاه، وبارك في وقته وعلمه وصحته ـ يمارس التدريس، ويحرص عليه، مع ما يعتريه من تعب، فله درسٌ في أحد أروقة الجامع الأزهر صباح كل ثلاثاء، لا يتخلّف عنه، ويرىٰ فيه سعادة وأُنسًا ودَّ معها لو كان بدأه منذ وقت مبكر[1]؛ لأنه وجد فيه طلّابًا للعلم في مختلف الأعمار والمستويات، لم يأتِ بهم إلا حبُّ العلم والاستزادة منه، والأستاذ مع أمثال هؤلاء ـ كما يقول ـ يجد لذّة لا تعدلها لذّة.

لا يعـرفُ الشَّـوقَ إلا مَـن يُكابِـدُهُ ... ولا الصَّبَابَـةَ إلا مَـن يُعانيهـا

كما أنّ له درسًا في الدراسات العليا في كلية اللغة العربية، ودرسًا لطلاب السنة الرابعة في الكلية، ولا يزال علىٰ هذا، ويرفض أنْ يكتفي بتدريس طلاب الدراسات العليا. وقد حدّثني منذ سنوات عن حرصه علىٰ تدريس طلاب السنة الأخيرة؛ حتىٰ يتعرّف عليهم، ويكتشف قدراتهم، ويتبيّن المتميِّز فيهم. وذكر أنّه أدرك أساتذته وشيوخه ولهم منهج عجيب فريد؛ إذْ كانوا يحرصون حرصًا بالغًا علىٰ أن يدرّسوا لطلاب السنة الأولىٰ وطلاب السنة الأخيرة في الكلية، بحيث يدرّسون للدفعتين في آن واحد؛ لأنهم في السنة الأولىٰ يتعرّفون علىٰ الطلاب، ثم يوجّهونهم نحو أمثل طريقة للجدّ والعلم، ويعوّدونهم علىٰ البحث والمدارسة والصبر، ويعرّفونهم علىٰ أمّات كتب العلم، ويغرسون في عقولهم ونفوسهم غِراس العلم وحبَّه؛ ثم هم في السنة الأخيرة يقفون علىٰ مستوياتهم بعد أن أمضوا ثلاثة أعوام في رحاب الكلية، ويعرفون الصالح منهم لمواصلة سبيل العلم، ويأخذون بأيديهم؛ فهم يستقبلون الطلاب في الكلية ويودّعونهم، يكتشفون النابهين ويرعونهم، ويشخّصون حال الضعفاء ويعالجونهم.

---

(١) ينظر: المسكوت عنه في التراث البلاغي ٥.

وهو مؤمن بهذا المنهج ويعيب علىٰ أساتذة صاروا يأنفون من تدريس المستويات الأولىٰ، ويحرصون علىٰ اقتصار عملهم علىٰ طلاب الدراسات العليا، وألا يدرّسوا غيرهم؛ لأنهم يرون في العمل في هذا المستوىٰ وجاهة وذكرًا. ويأسف كثيرًا لحالهم ويأسىٰ؛ لعلمه أنّ التعليم رسالة سامية، وأنّ أستاذ الجامعة بصورة أخصّ صاحب رسالة وليس مجرّد موظّف، وأنّه إن نسي ذلك أو كان يدرّس ليقال إنه أستاذ للدراسات العليا فلن يصنع للجيل شيئًا، ولن يكون له أثرٌ ولا إرْث، وأنه حين يستشعر هذه الرسالة وهو في قاعة الدرس فسيجد لذلك لذة، وسيفتح الله عليه في العلم فتوحات جليلة، ويقول: «مكانتك ليست في الصف الذي تدرِّسه، بل في العلم الذي تقدِّمه!».

ويحثّ علىٰ شحذ همم طلاب الدراسات العليا للوصول إلىٰ جزء من معلومات المادّة بأنفسهم، مع اجتهاد الأستاذ في بيان أهمّ القضايا والمسائل وربطها بمصادرها ومراجعها، وعلىٰ طلاب هذه المراحل المتقدّمة أنْ يعتادوا علىٰ ذلك، وإلا لما كانوا صالحين للدراسات العليا.

ويرىٰ أنّ الطالب في الدراسات العليا يحتاج إلىٰ من يقف معه في اختيار موضوع دراسته، وأنه لا بأس في أن يختار له أستاذه موضوعًا بعد أنْ يعرف قدراته وميوله، أو يقوّم اختياراته ويعينه. ويشيدُ بشيخه كامل الخولي ويدعو له لأنه وجّهه إلىٰ دراسة "الكشاف" واستخراج بلاغته[1].

والشيخ ممن يفرّ من المناصب الإدارية بحرص واقتناع كما يسعىٰ إليها البعض بقضّهم وقضيضهم! وكان كثير النصح لي بالسلامة منها والتفرّغ للبحث والتدريس والعلم، مهنّئًا لي بفرح إذا أُعفيتُ من عمل إداريّ.

---

(١) ما أسعدَ الأستاذ وأكرمَ حظَّه حين يكون مِن طلابه من يبزّه ويتفوّق عليه!

ومن ذكرياته في ذلك أنّ الدكتور عبدالرحمن الكردي أبلغه قرابة العام ١٩٨٥ أنه علم بأنّ مدير جامعة الأزهر حينها الدكتور السعدي فرهود ينوي تعيينه عميدًا لكلية اللغة العربية، فما كان منه إلا أنْ سارع إلىٰ مدير الجامعة، وأصرَّ علىٰ رفْضِ ذلك التعيين، وثنْيِ المدير عن قراره قائلًا: ((لو كلّفتني بذلك فستضرّ الكلية والطلاب، وتجني عليهم، وعليك أن تتركني للبحث والتعليم))، فتركه وشأنَه! ومن الطريف أنّ أحد أبنائه ـ وكان إذْ ذاك في المرحلة الابتدائية ـ قال له: "اقبلْها حتىٰ يقال لي: ابنُ العميد"، فردّ عليه: ((من الأفضل أن يقال لك: ابنُ الذي رفض العمادة!)).

وأمّا المؤتمرات العلمية فكان له حرص مطلع حياته علىٰ حضورها لهدفٍ سامٍ ونبيل؛ إذْ كان ذلك منه لمعرفة التيارات الفكرية التي لها وجود في العقول والنفوس؛ لظهور نابتة قليلة من الطلاب الذين بدأوا يسيرون في فلك الدراسات الغربية، ويزداد حرصه حين يكون المؤتمر في رحاب إحدىٰ الجامعات غير المعتنية بالتراث العربي والإسلاميّ؛ لإدراكه أنّ هذه التيارات المضادّة لحضارة الأمّة تظهر بصورة أوضح وأجلىٰ فيها.

وكان من دعواته التي لا يفتأ يؤكّد عليها أنّ الاجتهاد في العلوم ومحاولة مواكبة العصر بها لا يعني الأخذ من العلوم الغربية ومحاولة التلفيق بينها وبين علومنا؛ فهذا عمل سهل وإسقاط غير مجهد، لكنّ الاجتهاد والتجديد والتطوير يكون داخل علوم الأمة نفسها، كأن نستفيد من النحو أو من الفقه أو من التفسير في البلاغة.

❋❋❋❋

لا عجب إذن أنْ يكون هذا الرجل الرَّحَّالةُ في سبيل العلم والتعليم من أشدّ الدعاة إليه، وضع لي قاعدة جليلة قال فيها: ((لا يكفي أن نفهم العلم بل لابدّ أن



نقتنع به، ولا يكفي أن نكون من حملته بل لابدّ أن نكون من حُماته، ولا يكفي أن نكون علماء بل لابدّ أن نكون دعاة إليه». وقال وهو يقرأ نصًّا لعبدالقاهر: «هذا النص يوجب أنْ تكون كل حقيقة من حقائق المعرفة لها برهان يؤكِّدها، وحجَّةٌ تُستظهر بها، وأنْ يكون حملة العلم مقتنعين بمسائله، وقادرين علىٰ الإقناع بها؛ فليس المطلوب أنْ نُحصِّل العلم ونحملَه فقط، وإنما الواجب أن نكون قادرين علىٰ حمايته بحجته وبرهانه، وبذلك يكون حامل العلم حاميًا له»[1]، إنه يريد من حملة العلم أنْ يكونوا أقوياء فيه، فخورين به، حُماةً له، منافحين عنه.

وقال لي ذات يوم ناصحًا ومرشدًا: «لم يَشغلني شيء منذ مطلع حياتي عن العلم؛ لإيماني أنّ من انشغل بشيئين سيكون اهتمامه بأحدهما أكثر، وقد ينشغل بالمهمّ عن الأهمّ»، وقال: «شغلني العلمُ عن كل شيء، ولم يَشغلني عنه شيء!».

وإذا عرفنا ذلك في طبيعته وميوله رسخ ما عُرف عنه، وصرَّح به أمامي مرّات عديدة؛ من أنه لم يشتغل بالسياسة، ولم ينتَمِ إلىٰ أحزاب، ولم يجعل ذلك له شغلًا أو همًّا، لكنّه في المقابل حريص علىٰ معرفة الواقع، مطَّلعٌ علىٰ ما يُكتب أو يقال، معنيٌّ من ذلك بما له أثر في نهضة الأمة وحضارتها، ورقيّها وعزّتها.

ولا عجبَ أيضًا أنْ يكون أُنسُه في العلم ومع العلم، وقد وجدتُه مرارًا يبدأ درسَه معي متعبًا أشفق عليه، ثم لا يلبث أنْ ينشط ويأنس. وكان مما شدّني إليه ما أجده فيه من اندماجٍ وابتهاجٍ بالنصّ النفيس والجليل، وما يبدو عليه من مظاهر البهجة والسرور ـ وقد لا أبالغ لو قلت: الطرب! ـ إذا مرّت بنا بعض العبارات في كلام عبدالقاهر، وقد يكبّر ويقول: "الله، ما أجمل هذا الكلام!". ومن الطريف أنه حين تحدث عن الأُنس

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٣٢.

الذي هو من أثر التمثيل ـ وكان كلام عبدالقاهر في ذلك يعجبه كثيرًا ـ ضحك وهو يقول: إنّ أُنس العلماء في مدارسة العلم!

ومن مظاهر ذلك استغراقه طوال الوقت في القراءة والبحث، لا يصرفه عن ذلك مرض أو تعب، ويزداد اجتهاده وأُنسُه حين يكون ذلك في تأمّل الكتاب العزيز والبحث فيه، مضيفًا إلىٰ أُنْسِه شدّةَ حذرٍ وتروٍّ، تدعوه إلىٰ تكرار التنبيه إلىٰ ضرورة ذلك حين يكون التعامل مع النصوص الشرعيّة.

ومما أذكره وأعِيه أني كنت في منتصف العام ١٤٣٠هـ في ضيافته في القاهرة، وكان ابنه الدكتور أحمد سيأخذنا في جولة في القاهرة القديمة، لكنّ أستاذي اعتذر بأنّ مسألة تشغل تفكيره منذ أيام، وأنه لن يرافقنا لأجلها، فسألته عنها، فقال: ((مسألة علاقة قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزُّخرُف: ٣٦] بما قبلها، ومناسبتها للسياق، وأنه لا يزال يتأمّل الآيات وكتب التفسير، ولم يهتد في هذا إلىٰ ما يطمئنّ به قلبه!))، وذلك أثناء كتابته بحثه في "الشورىٰ والزخرف والدخان"، يقول ذلك وقد جاوز السبعين من عمره، وألّف خمسة عشر مؤلّفًا في آلاف الصفحات، ودرَّس وحاضر وناقش! وبعد يومين لقِيتُه متهلِّلًا مستبشرًا وأخبرني بأنه وصل إلىٰ ما تطمئنّ إليه نفسه في هذه الآية. وحين أهداني بحثه بعد طباعته، كان أول ما نظرتُ فيه كلامَه في هذا الموضع، فعلمتُ أنّ طول تأمّله كان بسبب كراهيته مخالفة أئمة التفسير، وأنه أحبَّ أنْ يلقىٰ الله متَّبِعًا لهم، لا مبتدعًا[1]!

وأثناء مدارسَةٍ معه حول وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم في اتصال هاتفيّ قبل تسليم هذا البحث بأيّام، وكان عائدًا لتوّه من درسه في الجامعة، حذّر من

(١) ينظر: آل حم الشورىٰ ـ الزخرف ـ الدخان ٣٥٨.

التعجّل في إبداء رأي في كلام الله ﷻ، وأشار إلىٰ أنه فطِن أثناء درسه إلىٰ معنىً دقيق في فعل "شغف" يمكن أنْ يحمله قول الله ﷻ في حكاية قول النسوة: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، لكنّه أحجم عنه تأدُّبًا وتحوّطًا.



وللشيخ في تدريسه منهجٌ عُرِف به؛ فاهتمامه كثيرًا ما يكون منصبًّا علىٰ عرض قضايا كبرىٰ، إذْ لا يخرج عن النص الذي بين يديه إلا ليقيس عليه الكثير من أحداث الواقع علىٰ غرار ما يكتب في مقدّماته؛ لأنه صاحب رسالة ومبدأٍ لا يساوم عليه. بل يرىٰ أنّ عزل هذه الأفكار عن الدرس العربي يقتله، ويرىٰ أنّ علينا أنْ نرتقي بالطالب وأنْ نربّيَه علىٰ قضايا أمته.

ومن توابع هذا المنهج الجميل لدىٰ الشيخ حفظه الله: حرصه علىٰ الوقوف عند مضمون الشواهد والأبيات، من غير اكتفاء علىٰ الوقوف علىٰ موضع الشاهد أو وجه الإيراد لها في الكتاب، ويذكر أنه كان كثيرًا ما يقف مع الطلاب عند شاهد من شواهد عبدالقاهر ليقول للطلاب: إنّ عبدالقاهر لم يختر هذا الشاهد عبثًا، بل اختاره لما فيه من مضمون جيد، ثم يبين ما فيه من ذلك. وعند إحدىٰ قراءاتنا في "الدلائل" توقف عند بيت إبراهيم بن المهدي:

جَرَحْتُ خَدَّيهِ بِلَحْظِي فَمَا ... بَرِحْتُ حَتَّىٰ اقْتَصَّ مِن قَلبي[1]

وعلّق عليه تعليقًا طريفًا، فقال: «هذا من الترف الذي نسيناه بما في عصرنا من مشكلات ومآسٍ، وأين اليوم المرأة التي تجرح خدّيها بلحظيك؟!».

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز ٤٨٦.

وأمّا في مناقشاته العلمية فمنهجه ليس ببعيد عن منهجه في التدريس والتأليف؛ إذْ يفيض علىٰ طلابه والحضور بتوجيهاته التي لا تتوقف عند حدود ما كتب الطالب، بل تتجاوزه إلىٰ آفاق أوسع وأبعد وأشمل. ويرىٰ أنّ من النافع أنْ يعترض الأستاذ المناقِش علىٰ الطالب في بعض المسائل حتىٰ لو يكن مقتنعًا بوجه اعتراضه؛ ليعرف قدرته علىٰ المناقشة والحوار، واقتناعه بما يقول ويكتب، وحتىٰ يتعوّد علىٰ مثل هذه المناقشات والاعتراضات. كما يتّسم في هذه المناقشات بفراسة قويّة، وقدرة فذَّة في تقدير جهد الطالب، ومعرفة مستواه، مع عدل وموضوعية وإنصاف في تقديره وتقييم عمله.



والشيخ العزيز محبٌّ للوفاء، ذاك الخلُق الذي أفلت شمسُه عند فئام من طلاب العلم والباحثين، خاصةً حين يكون الوفاء للعلماء والأشياخ وأصحاب الفضل، ولذا وقف معي في لفتة تربوية جميلة عند قول ابن نُخَيلة: "إنّ الشكرَ حبلٌ من التُّقَىٰ"، مؤكّدًا علىٰ قيمة الوفاء وإعطاء صاحب المعروف حقه، ويقول: «قرأت عبارة وأنا صغير جدًّا، ولا زلت أتذكرها ولا يزال أثرها باقيًا في نفسي، وهي: "إنّ عارًا ونقيصة علىٰ الكريم أنْ يموت وعليه دَين من ديون المعروف"»، ويقول: «إنّ من أخسّ أخلاق المرء أنْ يقصّر في الوفاء!».

ومن مظاهر وفائه أنْ اجتهد في فهم علم الرِّجال الذين أحبَّهم، ونهل من مواردهم، واستقىٰ من وابلهم، وهم: عبدالقاهر الجرجاني، وجار الله الزمخشري، وحازم القرطاجنّي، ومحمود شاكر، ثمّ قرّب علومهم لغيره، وألَّف في ذلك، وذكرُهم يتردّد في صفحات كتبه وقاعات دروسه.

ولعلمي بوفائه كنتُ كثيرًا ما أسأله عن أساتذته وشيوخه، وذكرياته معهم، وأكثرهم تأثيرًا عليه في حياته ومسيرته، وكنتُ أجد منه حُبًّا غامرًا لهم، وابتهاجًا بذكرهم، وأجد لي في ذلك متعة ونفعًا.

وكان مما ذكره لي من ذلك في لقاءات عديدة ما أستحسن روايته علىٰ لسانه ـ حفظه الله ـ فيما يلي: «هؤلاء كثير جدًّا، وقد كان أكثر مشايخنا يقومون بعملهم تعبُّدًا لله، حتىٰ رأيت منهم من هو في درسه كأنه في صلاة، لما يشبه الخشوع في قوله وشرحه واجتهاده، فإذا رأىٰ مشقة اعترتنا من الدرس قال لنا طرفة ليخفّف عنا لأواء الدرس وصعوبته، لا يمنعه من ذلك أنه شيخ جليل في الفقه أو اللغة؛ فالتلمذة والتعليم بينهما بنوّة وأبوّة، وبينهما رحم قائمة لا يجوز قطعها، أو عقوقها. ومَن كان هذا سمتَه وهديَه لم يكن غريبًا أنْ يكون له أثر في طلابه، لكنّ بعضهم كان أثره أشدّ بقاءً، وذكراه أوثق ثبوتًا، ومن هؤلاء:

• شيخنا: الشيخ عبدالسميع شبانة، الذي درّسني النحو، وكنتَ تسمع منه النحو كأنك تسمع شعرًا في الغزل؛ لحلاوة لفظه وجميل شرحه وحسن بيانه، وكم كنت أتمنىٰ أنْ يكون لديّ تسجيل لتلك الدروس العذبة؛ فلقد كان له صوت ونَغَم وعلم يفتح باب القلب المغلق(١)! ومن ذكرياتي مع هذا الشيخ ما يشير إلىٰ أمانة شديدة في حفظ وقت المحاضرة، وأدائها في أحسن صورة؛ فكان يأتي في الدقائق الخمس التي تسبق محاضرته ليكتب أمثلة درسه، حتىٰ لا يضيع شيء من وقت المحاضرة، وما يكتبه من أمثلة لا تكاد تتسع لها سبّورة القاعة، فإذا بدأ الدرس ألفيته لا يقرّ له قرار بل يتجوّل أثناء شرحه بين الطلاب في أجزاء القاعة كلها،

---

(١) صدق وربِّ الكعبة؛ فحين قال ذلك تذكّرت أساتذة أفذاذًا لا تزال أصواتهم نغَمًا يتهادىٰ في سمعي وعقلي، وخطوطهم لوحات فنية؛ كأستاذي الجليل عاصم البيطار ﷺ، الذي اشتقتُ إلىٰ رنّة صوته، وجميل لهجته!

وكانت له طريقة يتأكد فيها من انتباه الطلاب وفهمهم، حيث يفاجئ أحدنا من خلفه بسؤال، وبهذه الطريقة عرف بعضُنا بعضًا؛ إذْ أدركت بسبب ذلك مِن زملائي مَن كان سريع الحفظ ودقيق الاستيعاب.

• ومنهم: الدكتور محمد رفعت فتح الله عضو مجمع اللغة العربية، الذي كان ذا مقدرة علىٰ تفتيح الأفكار والأفهام، وكان قرينًا للشيخ محمد عبدالخالق عضيمة، وكنا نقارن بينهما فنقول: "إنّ عقل محمد رفعت أكبر من علمه، وعلم محمد عضيمة أكبر من عقله".

• وأستاذنا السيد أحمد صقر، المحقّق المعروف، الذي كانت اللغة العربية تخصصه الأصلي، إلا أنه كان يدرّس علم الحديث في كلية أصول الدين، وكان مقرها قريبًا لكلية اللغة العربية، مما جعله دائم الحضور إلينا فيها، وكان يتبنىٰ طلابها، ويفيدنا في العلم كثيرًا. ومن المعروف أنّ الكتب المحقّقة تصل إليه وإلىٰ الشيخ محمود شاكر قبل غيرهما، فكان يحدّثنا عنها ويشوّقنا إليها، وأذكر أنّ الأستاذ صقر جمعنا وحدّثنا عن "منهاج البلغاء" لحازم القرطاجني بعد أنْ حقَّقه الحبيب بن خوجة، فله علينا أيادٍ لا ننكرها[1].

• ومنهم: الشيخ سُليمان دُغيش الذي درسني فيما قبل المرحلة الجامعية، وكان من ذكراه: أنه إذا قرأ موضوع إنشاء لطالب، ثم وجد فيه جملة حيّةً طلب من الطالب أنْ يقرأ موضوعه علىٰ الطلاب، حتىٰ إذا وصل إلىٰ هذه الجملة وقف عندها شارحًا ومبيّنًا جمالها، بطريقة تُلهب مشاعرَنا، وتحفّزنا إلىٰ جميل القول[2].

غفر الله لهم جميعًا، ورفع درجاتهم)).

---

(١) تأمّل فضل الأستاذ المخلص علىٰ الطالب الجادّ الوفيّ، وتذكَّرْ أنّ أحد كتب الشيخ السائرة: "تقريب منهاج البلغاء"؛ إنها سلسلة، وذريةٌ طيبة بعضها من بعض!

(٢) وهذا هو فنّ التعليم، لا التلقين!

وحين سألته عن العلماء الذين كان لهم أثر في شخصيته العلمية من القدماء والمعاصرين، عدا الشيخين عبدالقاهر والزمخشري؛ لأنّ أثرهما ليس بحاجة إلىٰ بيان[1]، أجابني: «ممن تأثرت بهم في المرحلة الثانوية: ابن هشام في "أوضح المسالك" في دقة عباراته وتحريراته؛ فقد كان ذلك يُبهرني، وكنت كثير القراءة فيه؛ لكونه الكتاب المقرّر، وحين أردت تلخيصه كتبت أكثر مما كتب ابن هشام؛ فهو مما يجب أنْ يُدرّس من حيث قدرته علىٰ تلخيص المسائل العلمية، إذْ لا تستطيع أنْ تغيّر منه كلمة.

وأمّا في المرحلة الجامعية فقد تأثرت بتنبيهات الأشموني، حتىٰ كدت أحفظها عن ظهر قلب؛ لما فيها من دقة وتمحيص.

وفي مرحلة الدراسات العليا بدأت علاقتي تتوثق بسعد الدين التفتازاني ـ الذي قرأت له "المختصر" في المرحلة الثانوية ـ حيث قرأت له "المطول" في مرحلة "الماجستير"، فتأثّرت بعمقه وكيفية إدارته المسألة ومناقشة الأقوال فيها، وقد سألْنا أستاذَنا محمد عتيبة الذي كان يقرّر علينا "المطول"، عن سبب عدم تدريسه "العمدة" و"الموازنة"، فأجابنا: بأنه لو صنع ذلك لما استطعنا فهم "المطول" وأمثاله، لكننا إذا فهمنا "المطول" سنفهم غيره، فأفدت من ذلك أنّ علينا أنْ نقدّم للطلاب الجزء الأصعب؛ ليسهُل عليهم فهمُ غيره[2].

---

(١) أهدَىٰ أول كتبه "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري" إلىٰ ثلاثة رجال خالطوا قلبه، وكان لهم من نفسه موقع جليل، وطالما أبصر أطيافهم حائمة في آفاقه، ترسل النور وتبعث الأمل: عبدالقاهر الجرجاني، وجار الله الزمخشري، ووالده الذي توفي وهو يستعد لإنهاء مرحلة الدكتوراه.

(٢) ومن مظاهر عنايته بـ "مطوّل التفتازاني" ما أفاض به عليّ في مناقشته لتحقيقي له، حيث وصفه بأنه: "ثاني اثنين في البلاغة العربية بعد كتابي عبدالقاهر".

وأمّا من العلماء المعاصرين فيبقىٰ للشيخ محمود محمد شاكر ﵀ مكانة خاصة في قلبي، فقد كان رجلًا واسع العلم، عظيم الأثر».

وقد وصف محمودَ شاكر في إحدىٰ مقدّماته بأنه «شيخ العربية، وعين علمائها في زماننا»[1]. كما أهدىٰ كتابه "دلالات التراكيب" إليه قائلاً: «أقدِّم هذه الدراسة المتواضعة إلىٰ حضرة شيخنا العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر، الذي هُدي أوّلَ طريقِه إلىٰ حقيقة ما أقبل عليه الناس وزينوا له، وتهالكوا فيه، فاجتواه، وانصرف إلىٰ ما انصرفوا عنه، فمنح هذه الأمة عقلًا زاكيًا، ووجهًا قاصدًا، وعزمًا ماضيًا، وعاش يرعىٰ العلم وأهله، رعاية نبيلة في زمن غير نبيل، وأعاد بذلك قبسًا باهرًا من سيرة سلف هذه الأمة ﵃ وألحقنا بهم كرامة نفس وقرّة عين، وكانت تعليقاته علىٰ هذه الدراسة في طبعتها الأولىٰ ذات أثر حميد فيما عساه يكون فيها من صواب»[2].

وحكىٰ لي بعض ذكرياته مع الشيخ محمود شاكر ﵀، ومن ذلك أني حين بدأت القراءة بـ "أسرار البلاغة" عليه طلب مني أن أقرأ مقدّمة محمود شاكر لأهميتها في تأريخ علوم البلاغة. والجديد الذي أفادني به شيخي أن محمود شاكر انتهىٰ من الكتاب وكتب مقدّمته لكنه لم ينشرهما سنوات؛ لأنه أول من تحدّث عن الشيخ محمد عبده، وذكر أنه أول من فتح النار علىٰ كتب الأمة وتراثها، وعلم أبو فهر أن نشره لمثل هذه المعلومات سيثير لغطًا وجدالًا، فتردَّد في النشر سنوات. يقول شيخي: «لم يبدأني محمود شاكر بالاتصال إلا ثلاث مرات؛ الأولىٰ: حين قرأ مقدّمة كتابي "دراسة في البلاغة والشعر" فاتّصل مشيدًا بها، والثانية: حين أجريت عملية في عيني وعلم متأخِّرًا فاتّصل مسلِّمًا ومتابعًا ومستفسرًا، فقلتُ له: "إنّ سؤالك عنّي حبّب إليّ المرض!"،

---

(١) خصائص التراكيب ن.

(٢) دلالات التراكيب ٢٠.

والثالثة: حين تردّد في نشر مقدّمة "أسرار البلاغة" فاتصل بي[١]، فقلت له: إنّ معرفة حقائق التاريخ من الأهمية بمكان مهما كان تقديرنا للأشخاص».

وهذا يكشف عن احترامٍ غير مستتر من الشيخ شاكر لأستاذنا الكبير، ومما يدعم ذلك أنّ الدكتور سيد محمد الديب[٢] ذكر أنه زار الشيخ محمود شاكر ﷺ في بيته في شارع المرصفي مع عدد من زملائه، فسألوه عن جيلهم، فأثنىٰ علىٰ محمد أبو موسىٰ وعمق تحليلاته وقراءاته.

وأمّا رأيه في معاصريه فقد أثنىٰ علىٰ الأساتذة الدكاترة شوقي ضيف ويوسف خليف وعبدالرحمن شعيب (صاحب "المتنبي بين ناقديه") وفتحي عامر، وذكر بأنه كان يحرص علىٰ إشراكهم في مناقشات الرسائل، وخصّ الأول بمزيد ثناء لعلمه ودينه وصدقه، وأشار إلىٰ أنّ له سقطات حين تابع طه حسين وأمين الخولي في بعض آرائهما.



وقد بلغت مؤلفات الدكتور محمد أبو موسىٰ المطبوعة عشرين مؤلَّفًا، في أكثر من تسعة آلاف صفحة، مكتوبة ببنط صغير. وهذه المؤلفات هي[٣]:

---

(١) كنتُ قد كتبتُ هذه العبارة: "فاتصل مستشيرًا"، وحين عرضتُ علىٰ شيخي تلك النسخة ضرب بقلمه علىٰ كلمة "مستشيرًا" وعدَّلها إلىٰ "بي"، ثمّ عدّل صياغة العبارة بعدها، وعرفتُ أنّ سبب ذلك أنه لا يحبّ أن يظهر أمام قارئ هذا البحث بصورة المستشار لشيخه، وفي هذا الموقف ما فيه من التواضع واحترامه لشيوخه.

(٢) قال ذلك معقبًا علىٰ تقديمي مختصر هذا البحث في إحدىٰ جلسات مؤتمر "معالم التجديد في علوم اللغة العربية"، في شهر ربيع الثاني من عام ١٤٣٠هـ.

(٣) رتّبتها بناء علىٰ تاريخ كتابة مقدمة الطبعة الأولىٰ، الدالّة علىٰ تاريخ نشر هذه الكتب، لكنّ بعضها قد يكون سابقًا لبعض في التأليف، إلا أنه بقي عنده مدة قد تصل إلىٰ ثلاث سنوات ليراجعه ويضيف إليه، كما أفادني بذلك.

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية.
- من أسرار التعبير القرآني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب (١/ ١١/ ١٣٩٢هـ).
- خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني (١٣٩٤هـ).
- التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان (١٤/ ٥/ ١٣٩٦هـ).
- قراءة في الأدب القديم (٢٧/ ١/ ١٣٩٨هـ).
- دلالات التراكيب: دراسة بلاغية (٩/ ٣/ ١٣٩٨هـ).
- القوس العذراء وقراءة التراث (١٩/ ١١/ ١٤٠٢هـ).
- الإعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم (١/ ٩/ ١٤٠٤هـ).
- دراسة في البلاغة والشعر (٣/ ١٢/ ١٤١٠هـ).
- مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر الجرجاني (١٢/ ٣/ ١٤١٨هـ).
- شرح أحاديث من صحيح البخاري: دراسة في سمت الكلام الأول (٦/ ١١/ ١٤٢١هـ).
- تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجنّي (٢٠/ ٤/ ١٤٢٦هـ).
- مراجعات في أصول الدرس البلاغيّ (١/ ٦/ ١٤٢٦هـ).
- الشعر الجاهلي: دراسة في منازع الشعراء (١٤٢٨هـ).
- آل حم "غافر - فصلت": دراسة في أسرار البيان (١٤/ ١٠/ ١٤٢٩هـ).
- آل حم "الشورىٰ-الزخرف-الدخان": دراسة في أسرار البيان (٢٧/ ٦/ ١٤٣٠هـ).
- الزمر - محمد وعلاقتهما بآل حم: دراسة في أسرار البيان (٢٣/ ١٢/ ١٤٣٢هـ).

- شرح أحاديث من صحيح مسلم: دراسة في سمت الكلام الأول (١٣/ ٧/ ١٤٣٥هـ).
- المسكوت عنه في التراث البلاغي (رجب ١٤٣٨هـ).
- من الحصاد القديم (ذو القعدة ١٤٣٩هـ)، وهو عبارة عن جمع لمقالاته التي كتبها في بدايات مسيرته العلمية والعملية[1].
- إضافة إلىٰ محاضرة له في نادي القصيم الأدبي طُبعت طبعة خاصة بعنوان: "علماؤنا وتراث الأمم".

وقد جعل الله لهذه المؤلَّفات قبولًا حسنًا عند طلاب العلم، ولا يزالون يتداولونها؛ بسبب ما اتصفت به من دقة في التحليل، وقوة في العرض، وجمال في الأسلوب، وتنظير وتطبيق، حتىٰ صارت علامة بارزة في التأليف البلاغي المعاصر.

أولئكَ قومٌ إنْ بَنَوا أحسنوا البُنَىٰ   وإنْ عاهدوا أوفَوا وإنْ عقدُوا شَدُّوا

ويعمل حاليًّا (في جمادىٰ الأولىٰ من عام ١٤٣٩هـ) علىٰ طباعة كتاب يتضمن مراجعات في كتب التراث النقدي القديم.



روىٰ لي تلميذه الأستاذ الدكتور إبراهيم الهدهد أنّ الشيخ رُشِّح لجائزة الدولة، فعُرض ترشيحه في مجلس جامعة الأزهر، فقال الأستاذ الدكتور عبدالله الحسيني: "أشهد شهادة لله أنّ سطرًا واحدًا مما كتبه هذا الرجل خير مما كتبناه جميعًا"، فوافقت الجامعة علىٰ ترشيحه! وكِلا الأستاذين الكريمين صارا فيما بعد رئيسين للجامعة.

---

(١) لم يشمل هذا البحثُ الكتبَ الخمسة الأخيرة؛ لنشرها بعد عام ١٤٢٩هـ.

وأكرمني الله بصحبته في عدّة مؤتمرات علمية في الزقازيق وأسيوط والرياض؛ فرأيتُ رأيَ العين حفاوةَ الأساتذة في هذه المؤتمرات بالشيخ، وتقديمهم له، واحتفاءهم بآرائه وتوجيهاته، واحترامهم لمقامه وعلمه وآرائه، وأذكر أنه حين دخل صالة المؤتمر في الزقازيق ــ وكانت القاعة مكتظّة ــ أطاف به الحضور وأحاطوا، وتوافدوا للسلام عليه والترحيب به، واشرأبّت الأعناق إليه؛ وتلك صنيعةُ العلم، وأحسبُها عاجلَ البشرىٰ له حفظه الله.

مُتجمِّعينَ كأنَّهم سِرْبُ القَطا ... مُتَدَفِّقين كأنَّهم أَنْهارُ

قَدْ لَوَّحوا بالرَّاحَتَيْن وزاحَمُوا ... وتَلَفَّتوا بالنَّاظِرَيْن ومَارُوا

لهمُ دَوِيٌّ بالهُتافِ وضَجَّةٌ ... ولهمْ بِصِدْقِ دُعائِهم تَهْدَارُ

مَنْ يَغْرِسِ الصُّنْعَ الْجَميلَ بأُمَّةٍ ... فَلهُ مِن الشُّكْرِ الْجَميلِ ثِمَارُ

ومع ذلك كله فلم يكن ينظر إلىٰ ثناء المثنين ومديح المادحين ــ مع كثرتهم ــ ولا يلتفت إلىٰ انتقاص المنتقصين ــ مع نُدرتهم ــ ولسان حاله يردّد قول القائل: "ماضٍ وأعرف ما دربي وما هدفي". لقي تلميذَه وأستاذي الدكتورَ محمود توفيق محمد سعد بعد طباعة كتابه "الكلمة نور"، فقال له: «علىٰ كلٍّ منا أن يتوقف عن مدح الآخر، حتىٰ لا يتخذ الطلاب ذلك منهجًا، وحتىٰ لا يظنوا أنّا نبحث عن ذلك»، والحقّ أني ما عرفتهما إلا بعيدين عن ذلك أشدّ البعد، منصرفَين إلىٰ العلم والبحث، منقطعَين له.

وما أجمل ما حدّثني به من حديث يكشف عن تواضعٍ وتجرّد وحبٍّ للعلم، ولأتركْه يروِ القصة بلسانه: «حين كنت مدرِّسًا في الكلية في أول حياتي العملية كان من طلابي طالب يسمع المحاضرة فيكتبها ويعطيها لي، فإذا قرأتها كأنني أقرأ غير كلامي؛

لأنه كان شديد الذكاء؛ فإذا سمع منّي وعىٰ، وإذا كتب عنّي كتب بروحه ونفَسِه هو، فكان فيما بعد من كبار الأساتذة في الكلية، وهو الدكتور عبدالستار زمّوط ﷺ، وكان هذا الرجل من عطاء الله لي؛ لأنّه يقرأ كل كتاب لي في أول صدوره ثم يكتب لي عدّة صفحات في ملحوظات واستدراكات، ويقدّم لي غفلاتي التي اعترتني أثناء كتابتي، ويوقفني عليها، وكنت أحمد له ذلك كثيرًا».

عَلَوتُمُ فَتَوَاضعتُمْ علىٰ ثِقةٍ　　　لمّا تواضعَ أقوامٌ علىٰ غَرَرِ

نسأل الله أنْ يبارك في عمر أستاذنا، وعلمه، وعمله، وأنْ يرزقنا جميعًا الإخلاص في القول والعمل.



وأمّا علىٰ الصعيد الشخصيّ فقد رُزق أستاذنا بثلاثة أبناء وبنتين؛ ثلاثة منهم أطبّاء، أكبرهم الدكتور أحمد استشاري المخّ والأعصاب، رأيت فيهم حسنَ التربية، وجميل البرِّ بأبيهم، وفّقهم الله، وبارك فيهم. وله منهم أحفادٌ ــ أصلحهم الله، وحفظهم ــ لا يخلو بيته من بعضهم؛ ذاك يخرج وهذا يدخل، وهو يشتكي من إزعاجهم شكوىٰ المحبّ المتدلِّه بهم، ورأيت في عينيه وحديثه معهم حنانًا وعطفًا غامرين.

وأحسبُ أنّ عطفه وحبّه ولطيفَ رعايته يمتدّ إلىٰ تلاميذه؛ ومن الطرائف أنه كان كثيرًا ما يقول لي أثناء الدرس: "يا ولد، يا أحمد"، أو: "فاهم يا ولد؟"، وكانت في أذني حلوة جميلة، تشعرني بأبوّة ومودّة!

ومن صفات شيخي ــ بارك الله فيه وله ــ أنه تامّ اليقظة، شديد الملاحظة، فقد تخرج كلمةٌ ثم أكتم تتمّة كلامي حتىٰ لا أقاطعه، فيعقّب عليها بعد أن ينتهي، وقد

أقول له الشيء فأظنه قد نسي أو لم يهتمّ به، فأعرف بعد يوم أو يومين رأيه فيه. كانت إحدىٰ زياراتي له في القاهرة في أعقاب وفاة شقيقي عبدالله ﷺ، فأعطيته قصيدتي في رثائه، وما ظننتُ أنه سيقرأها، لكني فوجئت به في اليوم التالي متأثّرًا سائلًا، ومعقّبًا علىٰ القصيدة ومعلّقًا، ثم سألني عن قصيدتي في رثاء والدي ﷺ قبل ذلك بأربع سنوات، وفي اليوم التالي افتتح جلستنا بالإشارة إلىٰ بعض أبياتها وصورها وتحليلها والتعليق عليها. زاده الله بركة في عقله وقوته وعلمه وماله وأهله وولده.

واتصف الشيخ بإقبال علىٰ البحث والعلم لا يتوقف ولا يفتر، مع كبر سنه، حتىٰ إنه صار يكتب ويبحث ويؤلّف وهو جالس علىٰ سريره، ملتحفٌ بغطائه، وعلىٰ هذه الحال أخرج كتابه الأخير "المسكوت عنه في التراث البلاغيّ"، ويعمل في كتبه المقبلة.

وفي المقابل بينه وبين الإعلام ووسائله نفرةٌ، وكان عنها مدبرًا؛ فما له وما لها وكتبه بين أيدي الطلاب يتخاطفونها ويقبلون عليها؟! في أثناء إحدىٰ جلساتي معه في بيته في القاهرة قبل سنوات اتصل به مندوب إحدىٰ القنوات، وكنت بجواره أسمع بعض كلام المتصل، وكان يريد أن يعقد معه لقاءات، ويلحّ للموافقة علىٰ لقاء واحد علىٰ الأقل، فرفض الشيخ قائلًا: «أنا عملي في الكتب، ومن أرادني فليقرأ كتبي». وبعد انتهاء المكالمة التفت إليَّ مبيّنًا رأيه في هذه اللقاءات والقنوات، وأنها مَشْغَلَةٌ ومَضْيَعَة، لا يتعلّق بها، ويجري خلفها، إلا مَن يشعر بنقص، أو يتتبّع السراب، أو يسعىٰ لمصالح دنيوية!

هذا بعض ما عرفته عن شيخي الجليل، الذي كان يختم كل لقاء لي معه أو اتصال به بإلحاحٍ عليَّ بالدّعاء؛ فأسأل الله أن ييسِّر أموره، ويصلحَ شؤونه، ويحقِّق

أمانيه، ويرفع ذكره، ويدفع عنه وعن آله السوءَ، ويبارك في وقته وعلمه وولده، وأنْ يمتِّعنا به علىٰ طولِ عمْر، وحسنِ عمل، وصحّةٍ وعافية، ورضا وهناءٍ، وحُسنِ ختام.



مقدّمات الدكتور محمد أبو موسى

إنّ مقدّمة أيّ كتاب تمثّل بداية علاقة القارئ به وبمؤلفه، فهي تمثّل إضاءة يعرف منها القارئ اتجاه المؤلف، وأسلوبه، ومدىٰ إحساسه بالمشكلة التي يسعىٰ الكتاب إلىٰ حلها، أو بالسؤال الذي يسعىٰ الكتاب إلىٰ الإجابة عنه. وقد يكتفي القارئ أحيانًا بقراءة مقدّمة الكتاب؛ لأنّ المؤلف كثيرًا ما يبين فيها رأيه حيال قضية الكتاب.

ولا يخلو كتاب ـ قديمًا كان أو حديثًا ـ من مقدّمة، إلا أنّ المؤلفين يختلفون في مقدّماتهم؛ طولًا وقصرًا، وسطحية وعمقًا، ومنهجية وانفتاحًا. ومن المشاهَد غلبة مقدّمات بعض المؤلفات علىٰ المؤلفات نفسها، حتىٰ صارت ـ لغزارتها، وعمقها ـ بمثابة كتاب مستقل، ومن أبين الأمثلة علىٰ ذلك "مقدّمة ابن خلدون"، التي كانت مقدّمةً لكتابه "العبر"، فعرف الناس المقدّمة، ولم يعرف الكثيرون كتابها.

وقد وقف القدماء عند مفهوم المقدّمة، كالتفتازاني في مطلع "مطوَّله" حين قال: ((و"المقدّمة" مأخوذة من مقدّمة الجيش، للجماعة المتقدّمة منها؛ من "قدّم" بمعنىٰ تقدّم ... و"مقدّمة الكتاب" لطائفة من كلامه قُدِّمتْ أمام المقصود؛ لارتباط له بها، وانتفاعٍ بها فيه، سواء توقف عليها أم لا))(١).

والشيخ نفسه ينبّه إلىٰ أهمية مقدّمات الكتب، حيث ((كان علماؤنا في الزمن الأول ـ زمنِ النهوض واحترام الفكر ـ يقفون عند هذه المقدّمات، وبعضهم يُفردها بالتصنيف))(٢).

---

(١) المطول ١/ ٩٢.

(٢) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ٥١.

ومقدّمات كتب أستاذنا الجليل ليست مقدّمات تقليدية، يبيّن فيها أسباب تأليفه الكتاب، ومنهجه فيه، والصعوبات التي واجهته، وغير ذلك. بل هي مقدّمات لها ميسمها الخاص، وفيها شيء من روحه وهمّه، وقد لا يكون اتصالها بموضوع الكتاب بطريق مباشر وظاهر، إلا أنّ هذا لا ينفي تماسّ هذه المقدّمات به من جهةٍ ما، ومنهجه يربّي علىٰ التأمل والتمحيص والاستنباط. وإذا كان هو نفسه يرىٰ أنّ لكل زمن ميسمًا خاصًّا، ولكل كاتب خصوصياتٍ خاصة، يتضح فيها نفَسُه وهمُّه؛ فإنّ مقدّماته تتّضح فيها ـ بلا ريب ـ هذه الخصوصيات.

والمقدّمات التي نظر فيها هذا البحثُ تبلغ ثلاثًا وعشرين مقدّمة، في ثلاثمئة وعشرين صفحة تقريبًا، تمثل حقبة زمانية تزيد علىٰ ثمانية وثلاثين عامًا، وهي الحقبة الممتدة بين عامي ١٣٩٠هـ و١٤٢٩هـ (١٩٧١م و٢٠٠٨م). والغالب أنْ يكتب مقدّمة لكل طبعة، لكنّه لم يكتب مقدّمة لبعض الطبعات؛ كالطبعة الثالثة من "خصائص التراكيب"، والطبعة الثالثة من "التصوير البياني"، والطبعة الثانية من "الإعجاز البلاغي". وإذا استثنينا مقدّمة الطبعة الأولىٰ من "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري" فإننا نجده يختم كل مقدّمة بتوقيع، يبين فيه الزمان والمكان.

وتتفاوت مقدّماته في طولها، لكنّ الغالب في كتبه الصادرة قبل عام ١٤١٠هـ (قبل عام ١٩٩٠م) أن تكون مقدّمة طبعتها الأولىٰ قصيرة لا تتجاوز تسع صفحات، ولم يشذَّ عن ذلك إلا مقدّمة "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري"، التي كان لها طبيعتها الخاصة بحكم كون الكتاب في أصله رسالةً علمية، كما أنّ مقدّمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب تُعدّ هي الأطول بين مقدّماته، إذْ بلغت اثنتين وثلاثين صفحة.

ومن الظواهر الملحوظة في مقدّماته ـ وقد تكون غريبة بعض الشيء ـ أنك لا تلحظ كثيرًا أثر الزمن في هذه المقدّمات، فمع أنّ الفارق الزماني بين أولها وآخرها يقارب الأربعين عامًا، تجد نَفَس المؤلف لم يتغير كثيرًا، وكذلك تجد مذهبه البلاغيّ وآراءه وتوجيهاته.

لكنّ القارئ يمكن أن يلمح أثر الزمن في ظواهر ومظاهر معينة، فقد يبدو في مقدّمة كتابه الأول "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري"، حيث يجده القارئ يتجاوز فيها كثيرًا من التفصيلات التي اعتاد الباحثون أن تكون في مقدّمات الرسائل العلمية، لكنّه لا يُغفل الوقوف عند فصول البحث ومباحثه، في بيانٍ تَميَّزَ بأنه لا يكتفي بسرد المباحث في سرد مملّ كما هو الحال عند كثير من الباحثين، بل كان يبين سبب وضع كل مبحث في موضعه، مما يجعل القارئ أمام بنيان متماسك يشعر به ويحسّه من أول أبوابه[1]. كما أنه أشار إلىٰ أهم الدراسات التي سبقته في النظر في "الكشاف"، وأشاد بدراستي الأستاذ مصطفىٰ الجويني، والدكتور شوقي ضيف[2].

ومما يبدو فيه الزمن من مقدّماته مواضعُ يشير فيها إلىٰ أنه مكث زمانًا يتدبر مسألة ويبحث عن إجابة حتىٰ هدي إلىٰ رأي فيها، أو ردوده لبعض الشبهات والاتهامات التي ظهرت وأثيرت حول البلاغة[3].

لكنّ الظاهرة الجليَّة التي بدت في آخر ثلاثة كتب ظهرت قبل العام ١٤٣٠هـ هي عنونته لمقدّماته؛ فمقدّمة كتاب "تقريب منهاج البلغاء" كانت بعنوان: "واقع مخيف

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٠.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٢.

(٣) ينظر علىٰ سبيل المثال: مقدّمة الطبعة السادسة من خصائص التراكيب، ومدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٤، والشعر الجاهلي ٨ و١٢.

يجب أنْ يتغير"، ومقدّمة كتاب "مراجعات في أصول الدرس البلاغي" كانت بعنوان: "أبواب يجب أنْ تُدرس"، ومقدّمة كتاب "الشعر الجاهلي" كانت بعنوان: "مقدّمة في دراسة الشعر الجاهلي". والذي أفهمه من هذه العنوانات أنّ اتجاهًا جديدًا طرأ علىٰ منهج الشيخ في كتابة مقدّماته، وهو اتجاه ينْزع إلىٰ تحديد الموضوع أو الإطار العام الذي سيتحدّث فيه، مما له علاقة بعنوان الكتاب الأصلي.

وهذا يقودني إلىٰ الحديث عن مضمون مقدّمات كتبه، ومدىٰ اقترابها وتماسّها أو ابتعادها وانفصالها عن مادّة الكتاب الأصلي، وقد كنت أشعر في قراءاتي الأولىٰ لمقدّماته أنه كثير الاستطراد والخروج عن موضوع الكتاب، لكني ـ بتكرار القراءة وتركيزها، مع الفحص والتأمّل ـ وجدت أستاذي الكريم يدور في فلك الموضوع الأصلي للكتاب، مع قدرة علىٰ تشقيق الموضوعات، والكشف عن العلاقات الخفية بين أطرافها، مما جعله ينتقل من موضوع فرعيّ إلىٰ آخر، ثم يعود إلىٰ الموضوع الأصليّ، كمن يتجول في غرف مبنىٰ كبير، وإنْ شئت فقل: كسائرٍ في محاذاة نهر، متتبعًا لكل فرع من فروعه أو جدول من جداوله. ومقدّمات الطبعات المختلفة بينها علاقة من حيث قربها من موضوع الكتاب، لكنّ الحديث فيها يأتي في الغالب منفكًّا عن الحديث في سابقتها أو لاحقتها.

وليس ثمة مقدّمة من مقدّمات الطبعات الأولىٰ من كتبه إلا وهو يشير فيها صراحة إلىٰ مادة الكتاب، ومنهجه فيه، والقضايا التي يودّ مناقشتها، وقد يشير إلىٰ قضايا كان يودّ لو كانت في صلب الكتاب، لكنه يذكر ذلك في بيان موجز، مفضِّلًا أن يناقش قضايا ذات علاقة، أو لها فائدة وثمرة علىٰ قارئ الكتاب قبل الخوض في مسائله، والدخول في دهاليزه، وكأنه يقدّم له تدريبًا حيًّا، وعرضًا لقضايا عامة ينبغي أن يستحضرها، ليتسلّح بأدوات تنفعه في فهم موضوع الكتاب ومادّته.

وحين تقرأ مقدّمات شيخنا الجليل تجد فيها ذلك النَّفَس الزكيَّ الممتلئَ اعتزازًا بأمته وتاريخها وحضارتها، وتجدُ فيه ذلك القلب الحيَّ النابضَ بهموم أمته وآلامها وآمالها، وتجدُ فيه تلك الرُّوح الفائرةَ المتوثِّبة دفاعًا عن رجالها وقضاياها؛ ولا غرابة في ذلك وقد قال: «مقدّمة الكتاب تحدّثنا عن الهمّ الذي أهمّ الكاتبَ فحمل قلمَه ليكتب كتابَه فيه»[1]. وفي موضع آخر قال: «يحرص كثير من أهل العلم علىٰ قراءة مقدّمات كتب العلماء لأنّ فيها ما ليس في بطون الكتب، ومن أهم ما فيها أنها تشرح قضيةَ الكتاب، والقصدَ الذي تقصد هذه القضيةُ إلىٰ تحقيقِه ومشاركةِ هذا الكتاب في تحقيق أهداف فكرية وإنسانية، وهذا مهم لأنه يكشف وظيفة هذا العلم أو رسالته عند المؤلِّف، ولو لم يشرح هذا داخل الكتاب لأنّه حين يدخل الكتابَ يشتغل بمسائله الجزئيّة»[2].

والدكتور محمد أبو موسىٰ في مقدّماته كثير الذكر للعلماء المتقدمين، والاستشهادِ بكلامهم، والتمثيلِ عليهم، ولا ينازع أحدٌ عبدَالقاهر في هذا الباب. وهو في المقابل قليل الاستشهاد بكلام المتأخرين، وكثيرًا ما يرد ذكره لهم في سياق المناقشة، بأسلوب لا تفقد فيه أدبًا وحسنَ حوار، وهو حين يشتدّ لا يصرّح بأسماء. ولا ينازع أحدٌ من المتأخرين الشيخَ محمود شاكر في استشهاد أستاذنا بكلامه وإشادته به[3].

---

(١) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٢٦٩.

(٢) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ٥١.

(٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ١٦، وخصائص التراكيب ن، وقراءة في الأدب القديم ٣، ٢٥، والإعجاز البلاغي ٢٨، ودلالات التراكيب ٢٠، وشرح أحاديث من صحيح البخاري ١٦، وتقريب منهاج البلغاء ٩، ١٦، ومراجعات في أصول الدرس البلاغي ١٩، والشعر الجاهلي ٧، ٩، ١٠.

ومن المتأخرين الذين ذكرهم في معرض الإشادة بهم: الشيخ الطاهر ابن عاشور[1]، ومصطفىٰ الجويني[2]، والدكتور شوقي ضيف[3]، ومحمود الزيني[4]، ومحمد البهي[5]، كما أشاد باثنين من تلاميذه، هما: الدكتور محمود توفيق محمد سعد[6]، والدكتور إبراهيم الهدهد[7]؛ فليهنهما ذكرُه الطيبُ لهما! وفي أحد لقاءاتي معه خصّ اثنين بثناء خاص: الدكتور محمود توفيق محمد سعد، والدكتور محمد الأمين الخضري، قائلًا: «هما من طراز نادر؛ إذْ إنّ عملهما ـ فيما أحسب ـ لله، ولا يبغيان الظهور والبروز».

وممن نَقل عنهم من المتأخرين: مالكُ بن نبي[8]، والرافعي[9]، وفتحي رضوان[10]، والشيخ أحمد شاكر[11]، وعباس العقاد[12]، وزكي نجيب محمود[13]،

(١) ينظر: خصائص التراكيب ٩.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤١.

(٣) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤١.

(٤) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ٤.

(٥) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ٩.

(٦) ينظر: قراءة في الأدب القديم ١٢.

(٧) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ٢٧.

(٨) ينظر: دلالات التراكيب ٥، وشرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٨، وتقريب منهاج البلغاء ١٧.

(٩) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٠.

(١٠) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ٨، ١٠، ١٦، والشعر الجاهلي ١٠.

(١١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري ٦، ١٦.

(١٢) ينظر: خصائص التراكيب ٣٦، وقراءة في الأدب القديم ٢٤.

(١٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ٨، والإعجاز البلاغي ٢٧.

والأستاذ الديدي[1]، والدكتور علي العماري[2]، والدكتور لطفي عبدالبديع[3]، والأستاذ المازني[4]، وناصر الحاني[5]، والدكتور الخالدي[6]، والدكتور عبدالله إبراهيم[7]، وصلاح الدين حافظ[8].

وأمّا الأدباء والشعراء الذين يذكرهم، أو يستشهد بشعرهم، أو يمثّل عليهم، فكانوا من القدماء، وأكثرهم من شعراء العصر الجاهلي، ولم يذكر من المتأخرين إلا شاعرًا واحدًا هو محمود حسن إسماعيل في معرض الموازنة بين أبيات في الرثاء له ولشاعرين آخرين متقدّمين هما: أوس وابن خفاجة[9].

ومن أكثر الشعراء ذكرًا في مقدّماته: امرؤ القيس[10]، والنابغة[11]، وزهير[12]،

---

(١) ينظر: خصائص التراكيب ٣٧.

(٢) ينظر: التصوير البياني ١١.

(٣) ينظر: التصوير البياني ١٢.

(٤) ينظر: التصوير البياني ١٢، و تقريب منهاج البلغاء ٧.

(٥) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢١.

(٦) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ٥.

(٧) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ١٠.

(٨) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ١٦.

(٩) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ١٣.

(١٠) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ٢٨، وخصائص التراكيب ٣٢، والتصوير البياني ٨، ودلالات التراكيب ٧، وشرح أحاديث من صحيح البخاري ٢١، والشعر الجاهلي ٦، ١٣، ١٥.

(١١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٣، ٣٤، ومن أسرار التعبير القرآني ٢٨، والتصوير البياني ٩، ودلالات التراكيب ٧، ومراجعات في أصول الدرس البلاغي ٢١، والشعر الجاهلي ٦.

(١٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٢، ٣٤، والتصوير البياني ٨، ومراجعات في أصول الدرس البلاغي ١٢، والشعر الجاهلي ٦.

وأوس بن حجر[1]، والأعشىٰ[2]، وأبو تمام[3]، والمتنبي[4].

وشيخنا الجليل غلب علىٰ مقدّماته التنظير، لكنّ تنظيرَه ـ في غالبه ـ لا يخرج عن الحثِّ علىٰ التطبيق؛ إذْ كان جوهرُ مذهبه البلاغيّ الدعوةَ إلىٰ التطبيق وتحليل النصوص، حتىٰ تكون البلاغة حية في النفوس والألسن، وحتىٰ يكون لها أثرها وتقوم بدورها، ولذا فإنّ كتبه كلها ـ كما سنرىٰ ـ تطبيقٌ حيٌّ لهذه الدعوة الكريمة. ومع هذا فإنّ هذه المقدّمات لا تخلو من تحليل يُعدّ تطبيقًا علىٰ دعوته، وهذا التطبيق تجده مبثوثًا بإيجاز في بعض المواضع، حين يقف محلِّلًا لأبيات في بعض المواضع من مقدّماته، أو كاشِفًا عن أسرار بعض الصيغ، أو لافتًا إلىٰ بعض المعاني المستترة.

من ذلك: كشفه صورة مشي الوَجي الوَحِلِ في قصيدة الأعشىٰ "ودّع هريرة"، التي عدّها بعض المحدثين صورة جامدة، وكيف مضىٰ في تأمل القصيدة حتىٰ تجاوز ثلاثة وأربعين بيتًا، ليكشف عن علاقة هذا البيت بتلك الصورة، بعد أنْ وقف وحلّل، ونظر واستنطق[5].

---

(١) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ٦، ٧، ومراجعات في أصول الدرس البلاغي ٩، ١٢، والشعر الجاهلي ٦، ١٧.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٢، وخصائص التراكيب ٩، ومن أسرار التعبير القرآني ٢٨، وشرح أحاديث من صحيح البخاري ٢١، والشعر الجاهلي ٦.

(٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ١٢، و خصائص التراكيب ٥، وشرح أحاديث من صحيح البخاري ٥، ١٩، ومراجعات في أصول الدرس البلاغي ١٢.

(٤) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ٨، وقراءة في الأدب القديم ١٧، ودلالات التراكيب ٧، وشرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٢، ومراجعات في أصول الدرس البلاغي ٩، ١٢.

(٥) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ١٦.

وتأمّلْ وقوفه عند قصيدة علقمة الفحل "طحا بكَ قلبٌ في الحسانِ طروبُ"، وكيف استطاع أنْ يكشف أنّ تصوير الشاعر لمحبوبته "ليلىٰ" له علاقة بغرض القصيدة الأصلي، وهو مدح ملك من ملوك الغساسنة؛ ففي صور ليلىٰ صورٌ من صور الملك، وإنْ كان يذكر امرأة منعّمة[1].

وانظر في موازنته بين أبيات في الرثاء لشاعر جاهلي وأخرىٰ لشاعر أندلسي وثالثة لشاعر معاصر، لتتبين الفروقُ في كلام كل منهم[2]. وهو في مثل هذه الوقفات يذكّر بأنّ حديثه في المقدّمة لا يحتمل الإسهاب، «ولا يدلك علىٰ معرفة الفرق بين كلام وكلام إلا أنت، إذا راجعت وتدبرت، ووَعَيتَ ودقّقت، واستوعبت العناصر المكوّنة للشعر؛ من معنىٰ، ولفظ، وصورة، وخاطر، وسانح. وحين أكلمك أنا في الذي أراه فأنا أكلمك عن لحظة عابرة، وضعت فيها الشعر بين يدي، ولم أستقص ما فيه؛ لأنني أكتب مقدّمة، راجيًا أنْ أفتح أبوابًا للجيل القادم بها»[3].

وتبقىٰ كلمة في هذا السياق تتعلق بأسلوب الدكتور أبو موسىٰ في مقدّماته، فقد كان أسلوبًا جزلًا فخمًا، فيه من كلام الأولين الذين أَحبَّهم، وهدْيِهم. وأنا في هذا المقام ناقل لك ثلاث فقرات من كلامه، حرصت علىٰ أن تكون الأولىٰ في أول صفحة نَشَرَ، وأن تكون الثانية بعد قرابة عشرين عامًا، وأنْ تكون الثالثة من أواخر ما كتب، لترىٰ أسلوبًا وُلد جزلًا، فما زادته السنون إلا جزالة وبهاءً!

اقرأْ قوله في أول صفحة من مقدّمة كتابه الأول مشيرًا إلىٰ منهج عبدالقاهر: «هذا الاتجاه كان في حاجة إلىٰ كثير من الحواريين ينهضون لتثبيته وتمكينه وإتمامه، حتىٰ

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢١.

(٢) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ١٢.

(٣) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ١٤.

يكتمل بناء متناسقًا يمهّد سابقه للاحقه، ولكنّ القدر لم يهيئ لهذا العالم السني إلا فتىٰ من فتيان المعتزلة، أنبتته أرضُه، فهضم تراثَه، وارتضىٰ منهجَه، ونسج علىٰ منواله، وأضاف لَبِنات في هذا البناء لا تختلف في نسقها ونوعها عما بدأه الأستاذ، ولو قُدّر لهذا الاتجاه أنْ تتواصل حلقاته لكان بين أيدينا منه الخير الكثير»(١).

واقرأ قوله بعد عشرين عامًا: «لا كان العلم إذن ولا كان أهله إذا أغمض العلماء عيونهم عما حولهم، وتركوا الإنسان تضربه مقامع الذلّ بيد أهل الجهالة والغشم، وهم عاكفون في صوامعهم يتنطّسون ويتبتّلون! لا، ليست هذه سير العلماء، وإنما هم تلك الشعلة المضيئة، والجذوة المتقدة التي تعيش في أعماق الأمة وفي قلبها النابض، كما تعيش الأمة في أعماقهم وفي نبض قلوبهم. نعم، إنهم ليسوا من أهل التهريج السياسي، ولا الهيجان الجماهيري، وإنما هم أهل علم وحكمة، ولهم بوادر يخشاها كبار رجال الدولة؛ لأنّ أيّ نظام يفتقد تأييد العلماء لا بدّ له أنْ يهتزّ»(٢).

ثم اقرأ قوله بعد قرابة عشرين عامًا أخرىٰ: «والباحث الصادق المنقطع الذي يلابس بابًا من أبواب العلم بيقظة وفهم وصدق وصبر، إذا لم يستخرج من هذه المعرفة فكرًا جديدًا استخرجت هي منه فكرًا جديدًا؛ لأنه يلابسها بكل خواطره، فإذا لم تستخرج خواطرُه الحية المتوقّدة منها فكرًا ألهمت هي هذه الخواطرَ فكرًا، وكما أنّ الأمّة إذا تركت الجهاد ذلّت، هي أيضًا إذا تركت الاجتهاد غابت»(٣).

وقد كان أسلوبه مليئًا بالصور الحية التي تصوّر المعنىٰ وتجليه، وتحلّق بالقارئ في سماوات الإبداع، وقد عهدنا كثيرًا من المؤلفات العلمية تبثّ أفكارها بألفاظ مباشرة،

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٦.

(٢) دراسة في البلاغة والشعر ٨.

(٣) الشعر الجاهلي ١٠.

تتفاوت في حسنها وأدائها وبيانها، لكنّ أستاذنا جمع بين الرصانة العلمية والأسلوب الأدبي الأخاذ، وهو الأسلوب الذي أجده امتدادًا لمنهج عبدالقاهر وأشياعه.

والمقام لا يحتمل إطالة في تحليل هذه الصور، لكني أردت أنْ يقف القارئ علىٰ نماذج من صور كثيرة بثّها في مقدّماته، وجعلها كالزهور وسط حديقة خضراء. فقد صوّر استكشاف حال المجاذبة بين اللغة والنفس، «حيث نرىٰ البيان هناك يناغي النفس مناغاة الأمّ وليدَها حين تستثير أشواق الطفل نحو شيء ثم تشبعها، ثم تستثيرها ثم تشبعها، وهكذا يتولد الحبُّ وتكون الألفة بين السامع واللغة التي أثارت أشواقًا وأشبعت رغائب»(١).

وحين دعا إلىٰ إعطاء الأفكار حقها من الحفاوة والعناية، وإسكانها داخل النفس، «حيث تُحتضن الأفكار كما تُحتضن البذرة الملقاة في الأرض الطيبة، فإذا لم تنشق سدوف النفس وحجب الغفلة عن الفكرة البكر، وماتت الفكرة هناك؛ كانت كالبذرة الملقاة في القيعان»(٢).

وجَعَل المعاني الغامضة في النصوص ملفّعةً بضباب أبيض ناعم، «يشبه ضباب الفجر، لا يحجب الرؤية فتظل النفس في سكونها، ولا يكشف كشف النهار المضيء، وإنما يظلّ يخاتل القلب ويستخفُّه»(٣).

وبيّن أنّ الأمّة حين تترك علومها وتتجه إلىٰ علوم غيرها تصبح «كتلك التاركة بيضها في العراء، وحاضنةٍ بَيَض أخرىٰ حماقةً وسفاهةً»(٤)، وحين ذاك تدور الرحا علىٰ

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ١٥.

(٢) خصائص التراكيب ١٥.

(٣) دلالات التراكيب ٢٢.

(٤) الإعجاز البلاغي ٢٦.

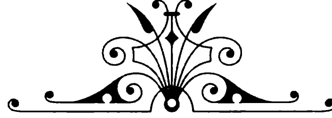
طحين آخر، فتتدفق علوم الآخرين، وتغيّب علومنا[1].

وأختم هذا التمهيد بصورة ختم بها مقدّمة كتابه "التصوير البياني"، قال فيها: ((فإذا كانت حصيلة مسيرتك في هذا الكتاب كحصيلة من يعبر صحراء مقفرة باحثًا عن ظل، فأدعو الله أن يلهمنا كيف نغرس الشجرة، أو نلقي علىٰ الأقل بذرتها في وادي حياتنا المقفر))[2]، وأنا أقول: آمين، آمين!



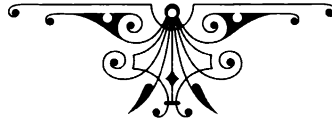
(١) ينظر: الشعر الجاهلي ٩.

(٢) التصوير البياني ٢٤.



الفرائد المنهجيّة والفكرية

- العلم والتعليم
- قراءة النصوص وتحليلها
- التجديد
- تزكية الثقافة العربية



الفرائد المنهجيّة والفكريّة

عرفتُ الدكتور محمد أبو موسىٰ وعرفه من تعامل معه أو ناقشه أو تتلمذ علىٰ يديه أنه رجل مبدأ، وصاحب رسالة، وحمّال همّ؛ حمل علىٰ عاتقه الرغبة في الإصلاح، وثبت علىٰ مبادئه، وظلّ وفيًّا لقيم عالية، ومُثُل رفيعة، لم تزده السنون إلا ثباتًا، والمحنُ إلا صمودًا. من أجل ذلك كانت حياته وكتبه خزائنَ لإرشادات وتوصيات، وحوايا لتنبيهات وتحذيرات، يرىٰ التنبيه عليها من أوجب الواجبات، لا يشغله عنها شاغل، ولا يصدّه عنها مخذِّلٌ أو صادّ!

ومن هذه القيم والمثل ما كان متعلّقًا بطرائق التربية، ومنها ما كان متعلّقًا بأهداب العلم والتعلّم والتعليم، ومنها ما كان يتطلّع إلىٰ بناء حضارة الأمّة وتميّزها وريادتها. وكان لابدّ لهذا النوع من الفرائد أنْ يُفرد ويُبرَز، ويُشار ويُنبَّه إليه.

العلم والتعليم

عرفتُ في شيخي الجليل صفةً كثيرًا ما شدّتني وأسرتني، وهي عنايته الشديدة بالعلم والتعليم، وحرصُه ـ مع ما يجده من تعب ـ علىٰ الاستمرار في محاضراته ودروسه، مقبلًا مستبشرًا محبًّا مواظبًا.

وهو دائم التأكيد علىٰ أهمية الإخلاص في طلب العلم وتعليمه، وأنه هو سبيل النجاح الوحيد، وأنّ الذي لا يخلص لا يمكن أن يكون له أثر في هذا الباب. وأشهد أني ما لقيته أو اتصلت به إلا وجدتُ حافزًا للبحث والعلم؛ إذْ كان كثير الحثِّ لي علىٰ

مواصلة البحث والاستمرارِ في مجال التعليم، بل حذَّرني بعد ترقيتي إلىٰ رتبة أستاذ أن أركن إلىٰ ذلك، وأن يكون آخر العهد بالبحث، حتىٰ صرتُ أميل إلىٰ التواصل معه في كل حينٍ فترةٍ. ومن ذلك أنه حين تفضّل فقرأ أحد بحوثي كتب لي: «لا أخاف عليك من شيء إلا من شيء واحد، وهو أن تكون كتابتك للترقية، فإذا تمّ وضعتَ رحلَك وألقيتَ عصاك، وأعيذك بالله أنْ تكون كذلك، وعليك أنْ تبدأ العمل العلميَّ المحرَّر من التقويم واللجان، وليس فيه إلا المتعة، وثواب العلماء في العلم نفسه؛ لأنّ الله سبحانه جعل العلم أجلَّ من أنْ يطلب أهلُه الصُّرحاءُ الثوابَ من أحد».

ولعل من المناسب في هذا السياق إيراد قصة رواها لي ـ حفظه الله ـ عن أحد طلاب الدراسات العليا الذين أشرفَ عليهم، ويرىٰ فيه النجابة والقدرة العلمية، وكان الطالب من أسرة ثريّة موسرة، ويعمل معيدًا في أحد فروع جامعة الأزهر، فقدّم استقالته لسببٍ ما، ثم جاء إلىٰ الشيخ في القاهرة ليراجع معه بحثه، وأخبره بنبأ الاستقالة، فكان ردّ الشيخ: «ستجد الاعتذار عن الإشراف عليك سابقًا لك إذا أصررت علىٰ الاستقالة؛ لأننا لا نعلّم العلم من أجل أن تُعلَّق الشهادات علىٰ الجدران، ولكنّا نعلّمه لمن يعلّمونه؛ فإنْ كنت مستغنيًا عنه فانصرف إلىٰ غيره!»، فعاد الطالب إلىٰ بلده وسحب استقالته؛ احترامًا وإكرامًا لشيخه!

ويعتقد ـ وهو في ذلك مصيب ولا ريب ـ أنّ من النصح للطالب وأهله وأمّته ألَّا ينجح إلا إنْ كان للنجاح مستحقًّا، وأنْ يكون للأستاذ أثرٌ في إرشاد الطالب إلىٰ أسباب نجاحه وتفوّقه وفهمه للعلم. حكىٰ لي يومًا قصته مع أحد تلاميذه ـ أحدِ أساتذة اليوم ـ فقال: «أخبرته أثناء الدراسة المنهجية في الأزهر أنه لن ينجح، فتوسّل إليّ، فاشترطتُ عليه ألا يسجّل الماجستير حتىٰ أختبره في "مطوَّل" التفتازانيّ، فوافق، لكنه حنث بوعده

فسجّل من غير علمي، ومضىٰ في بحثه حتىٰ حان أوان تكوين لجنة مناقشته فكنتُ فيها، فاستدعيته وقلت له: "سأردّ الرسالة لأنك لم تفِ بوعدك لي"، وكان رجلًا رقيق الحال! فاعتذر واشتكىٰ، فقلت له: "إذن نعود إلىٰ شرطنا الذي نقضتَه، فإذا اختبرتك في "المطول" ونجحت حدّدتُ في الجلسة نفسها موعد المناقشة"، فوافق، وأتاني فاختبرته، فوجدته يحفظ "المطوّل" ويفهمه جيدًا، وناقشته وأجزته، وفي الدكتوراه سجّل في دراسةٍ لشعر شاعر، وكان في لجنة مناقشته الدكتور شوقي ضيف، الذي أشاد به كثيرًا، بعد أن اكتشف ـ من غير أن يعلم بقصتي معه ـ أنّ الطالب يعي "المطول" جيدًا، وأنّ "المطوّل" دخل في تحليل الشعر، وأنّ نَفَسَ التفتازاني كان حاضرًا!».

وذكر أيضًا أنّ طالبًا درس عنده مرّتين في مرحلة الماجستير، ورسب فيهما، فترك الدراسة، وحين قابله بعد سنوات عانقه الطالبُ عناقًا حارًّا، فاستغرب ذلك منه، وقال له: «كان المتوقع ألّا تُسلّم عليّ»، فأجابه الطالب العاقل: "أنت لم تسمح بنجاحي لأنّي كنت مهملًا، ولا أستحق النجاح في المرتين، وكنت أظن أنك ستُحرج في المرة الثانية فتسمح لي بالنجاح، فلما لم يكن ذلك عرفت نفسي وتركت الدراسة، وأنا الآن أعمل في وظيفة جيدة جدًا، ولو خدعتني لما صرتُ شيئًا!".

ومن المعروف والمتعارف عليه أنّ الأستاذ الجامعيَّ حين يشارك في تحكيم بحوث أستاذ آخر للترقية فإنه يحرص علىٰ عدم علم المحكَّم له بذلك حين يكون رأيه سلبيًّا، لكنّ أستاذنا حين يحكّم بحوث أحد الأساتذة لترقيته، ثم لا يرىٰ بحوثه أهلًا لتكون سببًا لترقيته؛ فإنه حين يلقاه يناقشه في بحثه وأوجه القصور فيه، رغبةً في انتفاعه بالملحوظات وتقويم المسار، لأنّ رائده الحق والنفع أبدًا ودومًا.

ويتفرّع من هذا النّبع العذب صراحتُه وصدقُه؛ فلا يمدح أحدًا إلا بما يعلمه ويتيقّنه فيه، ولا يجامل ولا يُداهن، حتىٰ صرتُ لا أتردّد في قبول أوصافه وأحكامه علىٰ معاصريه؛ لأنه لا يلقي القول جزافًا، ولا ظنًّا، ولا رغبًا أو رهبًا؛ قد ينتقد من يحبّ، ويمدح من لا يميل إليه، هاديه الحقّ والنّصح، وهو من غير شك ولا ريب كـ"حذام"، و"إذا قالت حذام فصدّقوها"!

سألته عن أحد الأساتذة المعاصرين؛ فأجابني بصدق وعدل: «هو ممتاز علميًّا، لكني اكتشفت له سقطة أسقطته، وذلك في بحوثه للترقية، إذْ علمت أنّ فيها أخذًا وسرقة». وسألته عن عدد من المعاصرين الذين يخالفهم في كثير من آرائهم، فكان يقول فيهم بالعدل؛ مبيِّنًا مزاياهم قبل أنْ يبيّن أخطاءهم وسقطاتهم. وفي المقابل لا يتردّد في بيان أخطاء أحبابه ـ إنْ رأىٰ مصلحة في ذلك ـ منبِّهًا علىٰ قدرهم وفضلهم.



وأستاذنا يريد من المعلّم ـ أيًّا كان وفي أي مرحلة ـ ألّا يكونَ مجرّد موظف يقوم بعمل يتقاضىٰ عليه راتبًا، بل عليه أن يسعىٰ ليكون طلابه خيرًا منه. وله كلام نفيس جليل في حثّ المعلّم علىٰ الاجتهاد في عمله، مفادُه أنّ المعلِّم الذي يتخرّج علىٰ يديه من هو أقلّ منه يحكم علىٰ الأمّة بالتخلّف، ولا يرتكب البشرُ أسوأَ من هذا! وأنّ من يتخرّج علىٰ يديه من هو مثله يحكم علىٰ مسيرة الأمة بالتوقّف، وهذه مصيبة أيضًا؛ لأنه يعني أن يسبقنا الآخرون! وأنّ من يتخرّج علىٰ يديه من هو خير منه يحكم علىٰ الأمّة بالنهضة والتطوّر؛ لأنّه يعني مزيدًا من العطاء والابتكار والإبداع؛ فلا خير فينا إن لم نسع لنكون من رجال الصنف الثالث؛ ليكون لنا يدٌ في نهضة أمّتنا وحضارتنا وتطوّرها[1].

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٣.

ومن توجيهاته الرائعة لكل معلّم: «أعط تلاميذك كلَّ ما عندك، وإنْ تيقَّنت أنهم لن يعقلوه، فليس للأستاذ عذر في أنْ يكتم شيئًا من علمه في صدره مهما كان، لأنّ كلمةً ربما تبلغ تلميذًا فيصنع منها شيئًا! فالله ﷻ يقول: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٥]، والاستفهام للإنكار؛ بمعنىٰ: "لن نضرب عنكم الذكر صفحًا بسبب إسرافكم"».

ولذا فهو يرىٰ أنّ أحد الذين يُلقَون في النار حصائدَ ألسنتهم المعلمُ الذي لا يقوم بأداء مهمته علىٰ الوجه المأمول. وذكر بأنّ مِن أعظم نعم الله علىٰ المرء أن يكون رزقه بسبب العلم؛ أي: أنه يعلّم الطلاب وله علىٰ ذلك راتب جيد يكفيه لتسيير حياته وتيسيرها؛ لأنه بهذا جمع بين خيرِ الدنيا بالعيش المريح الحلال، وخيرِ الآخرة بالأجر المستمر الذي لا يتوقف بسبب حركة العلم وطلابه.

وحين أفاض عليَّ يومًا بهذا الحديث علا صوته وزاد حماسُه وقال: «وإني بعد هذه السنوات الطوال في البحث والدرس والتدريس، والعلم والتعليمِ، لمندهشٌ من عطاء ربي ﷻ عليّ؛ فقد كفاني أمر دنياي، وأفاض عليّ فيها بعطاءٍ لو انقطعتُ لطلبه لما نلتُه!»، وأحسبُ أنّ هذا من بركة العلم، وصدق الشيخ وإخلاصه، والله حسيبنا وحسيبه.

وفي سياق ذكرياته الشائقة وحثّه علىٰ العلم ذكر لي قصة حدثت له مع زميله الدكتور محمد إبراهيم البنا[١] في مجلس شيخهما محمود شاكر، حيث تناقشوا في

(١) الدكتور محمد البنا ﷺ أحد أقرب زملاء الشيخ وأحبابه، أخبرني عن موافقات عجيبة حصلت لهما مع أنّ الدكتور البنا تخصّص في النحو؛ فقد تعيّنا مدرِّسين (أستاذين مساعدين) في قرار واحد، وترقّيا إلىٰ رتبة أستاذ مشارك في قرار واحد، وإلىٰ رتبة أستاذ في قرار واحد، وصدر لهما قرار واحد بالموافقة علىٰ الإعارة لجامعة بني غازي في ليبيا، وكذلك كان الحال في قرار إعارتهما لجامعة أم القرىٰ.

مسألة علمية ولم يصلوا فيها إلىٰ حلٍّ شافٍ، يقول: "فتفرَّقنا، وحين وصلت إلىٰ الكلية في الصباح الباكر من يوم الغد وجدت الشيخ قد أرسل لي مع الأستاذ منصور مهران ورقة فيها نصٌّ يحلّ تلك المسألة العلمية، مما يدلّ علىٰ أنه اشتغل بها حتىٰ وصل فيها إلىٰ ما يريد، ثم لم يكتمه عنا بل سارع خلال ساعات إلىٰ إرساله إلينا".

ويستحضر دومًا أنّ التعليم رسالة نبيلة، يجب أنْ يجتهد فيها صاحبها، ويوليَها عناية خاصّة، يبيّن عن هذا بقوله: "وإذا كان عملنا هو تربيةَ الأجيال، وبناءَ نفوسهم وعقولهم؛ فقد وجب المزيدُ من الجهد في البحث عن طلب الحق، حتىٰ لا نزرع في هذه القلوب الغضَّة إلا ما يُثمر الخير، ولا يسمعوا منا من العلم والمعرفة إلا ما استيقنّا صوابَه ونقاءَه وصدقَه وصحَّةَ أثره في نفوسهم، وأنه يَستخرج من هذه النفوس أزكىٰ ما أودعه الله فيها وأطيبَه"[1].

وكم شغلته هذه القضيةُ وشغلَه اجتهادُه في بناء الأستاذ الكفء؛ الكفء في علمه والكفء في إخلاصه؛ ليقينٍ بأهميته فاضتْ به جوانبُ نفسه وحدّث به ذاتَ صفحة في سياق ماتع نبيل يجمعه بابن جني وشيخه أبي علي الفارسي: "والذي دمّر أجيالنا أنهم لم يعرفوا هذه القدوة الحسنة من أساتذتهم، وإنما رأوا منهم الذي تراه وأراه ... فرقٌ بين من يربّي جيلًا تلْتقي جِلّتُه وأعيانُه وتَبذل الوقتَ كلَّه، والوَكْدَ كلَّه، لتستخرج قياسًا، ومن يربّي جيلًا يتلقَّط بلسانه كلمةً من هنا وكلمةً من هناك كحاطب ليل!"[2].



(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٧.

(٢) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٨٦.

قراءة النصوص وتحليلها

بداية يجدر أنْ أشير إلىٰ أنّ تحليل النص لم يكن عند أستاذنا الكريم أمرًا خاصًّا بالبلاغيّ أو الناقد، بل هو عمل تشترك فيه كثير من الميادين التي لها علاقة بالنظر في النصوص والتراكيب.

فالنحو مشارك فاعل في تحليل النصوص؛ لأنّ عمل النحويّ عملٌ في بنية النص، وتحليلٌ لهذه البنية، وللعلاقات بين الكلمات المكوّنة للنص، والإعرابُ لازم لفهم كل كلام مصقول، ابتداء من المعلقات وانتهاء بآخر كلام يدور به آخر لسان ناطق بهذه العربية الشريفة، وإذا تاهت العلاقات النحوية والتبست وغابت، دخل النصُّ كله في سراديب الجهالة والغموض، وافتقد صفة الكلام الذي يفيد فائدة يحسن السكوت عليها[1].

والأمر عند الفقهاء أوسع وأضبط؛ فهم الذين يستنبطون مراد الحقّ سبحانه، ومنهجهم في التحليل والاستنباط بلغ الغاية في الحذر والدقة والمرونة، ولهم ضوابط محكمة تصلح أنْ تكون أساسًا في تحليل النّصوص؛ بما اتسمت به من دقّة وحدّة نظر[2]. ويشير إلىٰ أنّ مثل هذا الكلام قد لا يروق لفضلاء النقّاد، الذين يرون أنّ الفقه علم المشايخ، مع ما ظهر جليًّا لدىٰ الفقهاء من دقة الملاحظة، وبُعد النفوذ في قلب الدلالة، ولمح الإشارة، واقتناص السوانح. بل إنّ كلام الفقهاء في آيات الأحكام هو مما يقرّبنا من الأدب، ويغرينا بودائعه، ويقذف بنا في مجاهله، أو يكشف لنا منه سرًا غمُض، أو يفسّر لنا منه مجملًا أُبهم[3].

---

(١) ينظر: قراءة في الأدب القديم ١٢.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥، وقراءة في الأدب القديم ١٢.

(٣) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ٨.

وهو يذكر الفقه في هذا المقام من حيث كونه منهجًا «في التفسير والتحليل والمراجعة، وفيه نرىٰ حركة العقل، وأصول المنهج، والحذر والاحتياط، كل ذلك مقرون بالتذوق والبصيرة والتحليل الرفيع للعناصر اللغوية المكوِّنة للنص، والخبرة الزاكية بالدلالات والرموز والإشارات، ولهذا نبغ كثير من الفقهاء في تذوق الشعر ونقده»[1]. ويؤكّد علىٰ الحذر في تطبيق هذا المنهج في تحليل النصوص حين يكون التعامل مع الكتاب والسنة؛ لأنّ خطر الزلل فيهما كبير، يترتّب عليه أحكام لا يصحّ أنْ يتسرَّع فيها أحد.

ويقول عن علوم أخرىٰ: «ولا أحدّثك عن التفسير وعلومه، والحديث وعلومه؛ لأنك تعلم أنّ مكتبة التفسير وحواشي المفسِّرين وأعلاقهم واستدراكاتهم، وكذلك مكتبة الحديث وحواشيه وأعلاقه، كل هذا سَبْرٌ واعتصار وتحليل وتشريح وإضاءات لزوايا وخفايا وسراديب وظلال في البناء اللغوي، وهذا جوهر تحليل النص ... وقد سمعت أستاذًا يقول للشيخ أبي الحسن الندوي: كيف يستقيم لأصحاب الأدب الإسلامي أن يشرحوه ويحلِّلوه وينقدوه في ضوء المناهج الغربية المسيحية؟ وهل أعلن العقل الإسلامي عجزه عن تذوق الأدب الإسلامي، إلا أنْ يجد في لسانه ريقًا أعجميًّا يذوق به؟ وقد أنكر الشيخ هذا، وقال أحد الأساتذة الأجلاء: إننا نصطنع مناهجهم حتىٰ يتم لنا وضع مناهجنا، وكيف أفهم سينية البحتري إذا أنا طرحت هذه المناهج المسيحية؟ فقال له الأستاذ: اسأل تراث المفسِّرين، وتراث أربعة عشر قرنًا كيف يحلِّلون النص، وكيف يذوقونه، أو دعْ هذا كلَّه واذهب إلىٰ الشيخ الألوسي في "روح المعاني"، وتعلّم منه كيف تُحلِّل سينية البحتري»[2].

(١) من أسرار التعبير القرآني ٨.

(٢) قراءة في الأدب القديم ١٣.

وله اهتمام جليل بالتفسير وأقوال المفسّرين بالذات، ويرىٰ أنّ خير ما يعين علىٰ التحليل كتبُ التفسير؛ لأنه يرىٰ المفسّرين قد أوفوا التحليلَ حقَّه في سعيهم لفهم مراد كلام الله ﷻ.

وأقدرُ الناس عنده في تذوق البيان ـ فيما قرأ ـ الجاحظُ، والقاضي الجرجاني، وعبدالقاهر الجرجاني، والزمخشري، ويجعل هؤلاء في طبقة واحدة. ويرىٰ أنّ للزمخشري قدرةً باهرةً علىٰ النفاذ إلىٰ النص واستنباط دلالته، بقطع النظر ـ بطبيعة الحال ـ عن معتقده، فجهة النظر هنا البراعة في الاستنباط والاستنتاج وبناء المعاني.



وللقراءة النافعة المنتجة يضع الشيخ ثلاثة أصول: تكرار القراءة وإدمانها، ثم القراءة بتدبّر وتفكّر واستنباط، ثم تطبيق ذلك علىٰ الشعر.

فأمّا أولها فإنه يؤكِّد كثيرًا علىٰ أنّ باب العلم لا يُفتح إلا بكثرة المزاولة، وأنّ النصّ لا يُفتح لقارئه إلا بعد قراءته عشرات المرات، وينبّه إلىٰ أنّ كثيرًا من مقاصد العلماء ومدلولات عباراتهم لا تنكشف إلا بعد عشرات القراءات، ممثِّلًا لذلك بأنه لا يزال كلما كتب شيئًا عن عبدالقاهر ثم نظر فيه بعد عام تمنىٰ لو أنه زاد فيه كذا وكذا.

وينقل قول إسماعيل بن يحيىٰ المزني ـ صاحب الشافعي ـ بأنه قرأ "الرسالة" خمسمئة مرة، وأنه في كل مرة يفهم شيئًا جديدًا[1]، ومن البدهيّ أنه لا يعني تحصيله للمعاني الظاهرة في الكتاب؛ لأنها معان تنكشف في قراءة واحدة أو قراءات محدودة، لكنه يعني تلك المعاني الخفية، والدلالات المستترة، والفوائد المستنبطة، وهي ما يتمايز القراء في اكتشافها والوقوف عليها وفهمها.

(١) ينظر: الرسالة ١/ ٤.

فالعالم حين يكتب إنما يحاول الإبانة عن نزعة في نفسه وروحه، وهذا يجعل لكل عبارة صدًى خاصًّا ينبئ عن فكرة تتقعقع في نفسه وتتجلجل في صدره، والموفّق من كشف هذا الخبيء وفهمه ووعاه. يقول حفظه الله: «فمن أراد أنْ يُفتح له بابُ العلم ـ وهو خير ما يُفتح في هذه الأرض؛ لأنّ فيه خيري الدنيا والآخرة إذا صحّت النوايا ـ فعليه بالانقطاع الكامل والقراءة الدائمة». مشيرًا إلى فكرة الجاحظ، وبها مُشيدًا، التي جعل فيها لذَّةً لانفتاح باب العلم بعد إدمان القرع، لا يكاد يجاريها إلا لذّةُ السرور بالظفر على الأعداء[1]، مؤكّدًا على مدلول كلمة "الإدمان" في هذا السياق. وهذا على حدّ قول محمد بن بشير الرياشي:

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبرِ أنْ يحْظىٰ بِحاجتِهِ ... ومُدْمِنِ القـرْعِ للأبـوابِ أنْ يَلِجَـا

حثّني ذات يوم بقوله: «أنا مؤمن بأنّ الكتاب لن يُفتح لك بقراءته مرة واحدة أو خمس مرات، بل إنك في هذه الحالة لا تزال بعيدًا عن الكتاب، وعن فتح أقفاله؛ لأنّك في أحسن الأحوال ستكون حينذاك قد حصَّلت المعرفة العلمية الظاهرة التي يحصّلها الطلاب المبتدئون، وإنما الذي يفتح الكتاب هو تكرار القراءة مع طول التفكير والتأمّل؛ لأنّ قيمة الكتاب ليست في معانيه الظاهرة التي يفهمها عامّة الناس، وإنما فيما بين سطوره من إشارات ودلالات؛ ففي كلام العلماء غمغمات تخفي وراءها معاني وأغراضًا ثمينة مستترة، وهذه لا تبدو للناظرين بمجرّد قراءة أو اثنتين أو خمسًا!».

وتكرار القراءة يولّد الفهم الدقيق والاقتناع الخالص بمضمون العلم، قال ذات مساء: «عاهدتُ الله أنْ أكون صادقًا في كلّ حين، ثم أوثقت مزيدًا من عُرىٰ المواثيق مع نفسي بأنْ أكون صادقًا في مقامين:

---

(١) ينظر: الحيوان ١/ ٢٠٥.

أولهما: الصدق مع طلاب العلم، فأقول ما أعرف، ولا أتردّد في أن أقول: "لا أعرف" حين لا أعرف؛ لأنّ هذا ـ فضلًا عما فيه من الصدق والأمانة ـ يربّي طلاب العلم علىٰ أنْ يستشعروا دومًا أنّ العلم بحر لا ساحل له، لا يحيط به إلا علّام الغيوب، وأنّ عليهم أن يعيشوا باحثين دارسين.

وثانيهما: الصدق مع نفسي؛ فلا أحدّث إلا بعلم أقتنع به، ومن أجل أنْ تقتنع نفسي بالحقيقة العلمية لابدّ أن تراجعها كثيرًا جدًّا حتىٰ تفهمها، ثم لا تكتفي بفهمها بل تقتنع بها اقتناعًا تامًّا سابغًا، وتتشرّبَها، فإذا حدّثتُ بها كان فيها من روحي وقلبي وعقلي، كان فيها شيء من ذات نفسي، وإذا خرج العلم بهذه المثابة وهذه الروح بلغ قلوب الطلاب والمتلقين، وتلقّفوه ووعَوه وفهموه؛ وهل يطمع متحدّثٌ أو أستاذٌ بأكثر من هذا؟!».

حديثُ الرُّوحِ للأرواحِ يسري	وتدركُهُ القلوبُ بلا عناءِ
هَتَفْتُ به فطارَ بلا جَناحٍ	وشقَّ أنينُهُ صدرَ الفضاءِ

ويؤكّد علىٰ أمر أعمق وأبعدَ أثرًا بقوله: «ليس المطلوب أنْ نُحصِّل العلم ونحملَه فقط، وإنما الواجب أن نكون قادرين علىٰ حمايته بحجته وبرهانه، وبذلك يكون حامل العلم حاميًا له»(١)، وهذا يعني أنه لا يريد من طالب العلم والباحث أن يكون مجرَّدَ وعاء ألقي فيه علمٌ، بل لابدّ أن يكون متبصِّرًا به، واعيًا لتفاصيله وأسراره، مدرِكًا لحججه وبراهينه.

أدهشني وهو يقول: إني فكرت أن أكتب "الوساطة" للقاضي الجرجاني وأحفظه كما تحفظ السورة من القرآن، لولا أنّ ذلك لم يرد علىٰ ذهني إلا وقد كبِرت. وسبب

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٣٢.

هذه الرغبة كما يقول أنه لم يجد أحدًا برع في دراسة تمايز الشعراء في المعنىٰ الواحد كما برع القاضي في "الوساطة"، ويرىٰ أنّ القاضي هو من ألهم عبدالقاهر ما وصل إليه، وهو يرىٰ كلام عبدالقاهر في هذا جذرَ البلاغة والنقد.

وأدهشني وهو يقول: إنه كتب كتاب محمود شاكر "نمط صعب ونمط مخيف" بكامله قبل أن يُطبع، وهو الكتاب الذي تضمن مقالات يجيب فيها محمود شاكر رغبة صديقه القديم الأديب يحيىٰ حقي ﷺ، في كلام يتصل بقصيدة تأبَّط شرًّا:

إنّ بالشِّعب الذي دون سلعٍ

وكان يحيىٰ قد نشر في فاتحة مجلة المجلة (١٩٦٩م) مقالًا أشار فيه إلىٰ القصيدة، ووجّه إليها نقدًا، فاستجاب هذا الجبلُ لهزّ يحيىٰ، وبدأ بكتابة مقالات أضحت شامة في جبين اللغة والأدب، وكان أستاذنا يتابعها بشغف ويكتبها بخطه، ويقرأها ويتأمّلها، حتىٰ إذا طُبعت فيما بعد كان لديه منها نسخةٌ خطّها بقلمه، ووعاها بعقله الذكي النَّابه!



وثاني أصول القراءة ما يؤكّده دومًا ويوصي به كثيرًا من أنّ القراءة النافعة المثمرة هي قراءة التفكير والتدبّر، وليست قراءة الهذّ أو الحفظ. فهو ممن يحبّون تحليل الكلمات التي تَشِيع، ويحبّون تدبُّرَها، ومعرفةَ غورها؛ «لأنّ التدبُّر والتفكّر والتعقُّل فريضةٌ من الفرائض التي كتبها الله علىٰ عباده، بل إنها مناط التكليف في شرع الله، والفقهاء يذكرون في شروط الوجوب دائمًا شرطين: البلوغ والعقل»[١].

(١) قراءة في الأدب القديم ٦.

ويوجّه طالب العلم والمعرفة بقوله: "إنّ القراءة الواجبة هي التي تجيل فيها عقلَك وقلبَك في المادة العلمية التي تقرؤها، وتروز كل مسألة وكل فكرة بحكمة وعقل ومنهج، وليس بتهور؛ لأنّ هذه الأبنية العلمية بُنيت بدقة شديدة، وشفاهية شديدة، والتهور يدمّرها، وطول الملابسة لها علىٰ هذا الوجه الذي وصَفْتُ يجعلها تجري في الطبع، وترشح علىٰ ذات الدرس. وقد قالوا: "إذا عمل أحدكم عملًا ألقىٰ الله عليه رداء عمله"، يعني يُصبغ قلبه وعقله ولسانه ولحمه ودمه بهذا العمل، وقالوا أيضًا: "ليكن عقلك عيارًا علىٰ علمك"، يعني ليكن عقلك مصفاة لما تقرأ حتىٰ لا يسكن في قلبك إلا العلم الصحيح الخالي من العلل والغموض والتناقض"[1]، وهذا مما لا يكون بغير قراءة فاصحة متأمّلة ناقدة ومدقِّقة.

ومن أجل ذلك استجاد قول محمد بن علي بن عبدالله بن عباس رضي الله عنهم الذي استجاده الجاحظ ونقله: "أكره أن يكون مقدار علمه فاضلًا علىٰ مقدار علمه"[2]، أي: زائدًا. فهذه الكلمة النائفة "توجب قوامةً ظاهرة للعقل علىٰ كل ما يتحرك به اللسان، وما يُحصِّله المرء من معرفة، ومن الواجب أنْ يكون العقل بحدّته ويقظته وصرامته ونفوذه مُهيمنًا علىٰ كل فكرة يُحصِّلها، ومُهيمنًا علىٰ كل كلمة يجري بها اللسان، يمسكه عن كل ما يشاء أن يمسكه عنه، ويُنطقُه بكل ما يشاء أنْ يُنطقه به، وأنّ اللسان إذا خرج عن هذا السلطان كان لسانًا ثرثارًا وخطَّاءً، وربما كبَّ صاحبَه بحصائده"[3].

ويلفت نظر طلابه إلىٰ أنّ مصطلحات مثل "القياس" و"الاستنباط" و"الاستخراج" و"قدْح الذهن" تتردّد كثيرًا عند علمائنا وتدور في كلامهم؛ لعلمهم

(١) خصائص التراكيب ت.

(٢) البيان والتبيين ١/ ٨٥.

(٣) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٦٢.

بأنّ هذا هو المراد من القراءة، وهي مصطلحات جليلة تدلّ علىٰ أنّ هذا هو طريق العلم، ومنبع المعرفة. أوصاني يومًا حفظه الله بكلمة جليلة: ((اقرأ بتدبُّرٍ لما تقرأ، اقرأ الجزء من الكلام ثم فكّر فيه، وفكّر فيما يمكن لعقلك أن يستنبطه منه، ولا خير في قراءة لا تثمر مثل ذلك؛ لأنّ نور العلم في تدبّره، فإذا حصَّلت العلم ولم تتدبّره بقي علمًا لا نور فيه، والنور هو الذي ينير الطريق، ويعين علىٰ المسير، ولن يوقده شيءٌ سوىٰ التدبّر؛ لأنه الذي سينفذ بك إلىٰ ما لم يُقل!)).

وأرشد إلىٰ أنّ رسول الله ﷺ هو من علّمنا هذا المنهج، ودلّنا عليه؛ لأنه يريدنا أحياء فاعلين منتجين. كما في حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ امرأة من جُهينة جاءت إلىٰ النبي ﷺ فقالت: "إنّ أمّي نذرت أنْ تحجَّ، فلم تحجَّ حتىٰ ماتت، أفأحجُّ عنها؟" قال: «نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَىٰ أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا اللهَ، فَاللهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ»(١). فلم يكتف النبيّ الكريم بإجابة السائلة، بل علّمها الاستنباطَ، وأنْ تقيس ما لا تعلم علىٰ ما تعلم، وأنْ تبحث في المعروف عن غير المعروف. والحافظ ابن حجر بيّن في شرحه للحديث فوائدَه بقوله: ((فيه مشروعية القياس وضرب المثل ليكون أوضح وأوقع في نفس السامع، وأقرب إلىٰ سرعة فهمه، وفيه تشبيه ما اختُلف فيه وأشكل بما اتفُق عليه. وقيل إنه يُستحب للمفتي التنبيه علىٰ وجه الدليل إذا ترتّبت علىٰ ذلك مصلحة، وهو أطيب لنفس المستفتي وأدعىٰ لإذعانه))(٢).

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رجلًا جاء إلىٰ النبي ﷺ وقد استشكل أن يولد له ولدٌ يخالف لونه، فقال: "إن امرأتي ولدت غلامًا أسود"، فقال النبي ﷺ: «هَل لَكَ مِن

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب الحجّ والنذور عن الميّت ٢/ ٦٥٦ (ح١٧٥٤).

(٢) فتح الباري ٤/ ٦٦.

إِبِلٍ؟»، قال: "نعم"، قال: «مَا أَلْوَانُهَا؟»، قال: "حُمر"، قال: «هَل فِيهَا مِن أَوْرَقَ؟»، قال: "إنّ فيها لوُرْقًا"، قال: «فَأَنَّىٰ أتَاها ذَلكَ؟»، قال: "عسىٰ أن يكون نزعه عرق"، قال: «وَهَذَا عَسَىٰ أَنْ يَكونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ»(١). ومما أشار إليه النووي من فوائد هذا الحديث: ((إثبات القياس، والاعتبار بالأشباه، وضرب الأمثال))(٢).

ومن تنبيهاته المهمة حفظه الله قوله: ((احذرْ أنْ تقرأ عبارات لعالم فتظنها مترادفة يغني أولها عن آخرها، بل لابدّ أنْ تتلمّس فائدة لكل لفظ تختلف عن غيرها في كل عبارة، ولو بلمحة أو إشارة من بعيد)).



وثالث أصول القراءة النافعة عنده: تطبيق ما يصل إليه، ويستنبطه، ويهديه تفكيره وتأمّله إليه علىٰ النصوص الرفيعة البليغة، ومن أهمّ ميادين التطبيق البلاغيّ عنده الشعر القديم؛ لأنه الميدان الرَّحب الواسع، ولأنه النهر الذي تُستقىٰ منه كثير من الأصول والقواعد.

ومن آرائه التي دلّ عليها رأيُه القارُّ الذي يقول فيه: إنّ ((دراسة الكلام المختار وتحليله واستجلاء معانيه هي الغاية التي وراء كل فروع الدراسات اللغوية بمختلف مذاهبها))(٣). كما أنه يرىٰ أنّ النص هو ((الأصل الذي من أجله كانت الجهود البلاغية والنحوية والصرفية وغيرها من العلوم اللغوية واللسانية، قديمها وحديثها))(٤).

(١) صحيح البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرَّض بنفي الولد ٥/ ٢٠٣٢ (ح٤٩٩٩)، وصحيح مسلم: كتاب اللعان ٢/ ١١٣٧ (ح١٥٠٠)، واللفظ له.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٠/ ١٣٤.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥.

(٤) التصوير البياني ٢٣.

أمّا إذا أردنا تخصيص الحديث بالبلاغة فإننا نجد الأستاذ ينصّ علىٰ أنّ التطبيقات في الدرس البلاغي هي حياته ونماؤه(١)، ويرىٰ أنّ جوهر العمل البلاغي هو تفقّد الأبنية الشعرية(٢)، وأنّ ميدان البلاغة الحقيقيّ والمقصود من دراستها هو تحليل النصوص(٣).

وهو مؤمن أنّ حفظ متن البلاغة ليس أمرًا صعبًا، لكن حفظه بذاته ليس هو المراد، بل المراد أن يرجع هذا العلمُ إلىٰ كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ وإلىٰ الشعر، وأن يلج هذا الباب، ويخالطَ نفائسه؛ فـ«البلاغة مغتربة ما بقيت بعيدة عن الشعر؛ لأنّ الشعر هو مهدها الذي استُخرجت منه، وهي ـ كما قال عبدالقاهر والسكاكي ـ تتبُّعُ خواصّ كلام العرب».

وقد أحسن البلاغيون المتأخرون حين جعلوا كيفيات الكلمات ودلالاتها الظاهرة والباطنة هي مجال البحث البلاغي، وهذا يعدّ وعيًا منهم بأدقّ أسرار هذا اللسان(٤). وإنما يبدأ عمل البلاغي حين ينظر في الكلام ليتعرف علىٰ أسباب الحسن أو الاستهجان(٥)، ولن تفيد المادةُ البلاغيةُ الدارسَ إلا إذا كان تناوله لها مبنيًّا علىٰ استثمارها في قراءة النصوص وتحليلها وفهمها(٦).

ولم يكن هذا من أستاذنا تنظيرًا مجردًا، بل إنك تجده قد أقام كتبه علىٰ هذا المنهج، وجعلها أمثلة عليه وتطبيقًا له، ابتداء بقراءته لتفسير الزمخشري، التي تمثّل

---

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٧.

(٢) ينظر: دراسة في البلاغة والشعر ١٨.

(٣) ينظر: خصائص التراكيب ف.

(٤) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٤.

(٥) ينظر: خصائص التراكيب ٣.

(٦) ينظر: خصائص التراكيب ٤.

منهجًا دقيقًا في دراسة النصوص الأدبية، وتحليلها، والبحث عن مكامن القوة والتأثير فيها، واستنباط القواعد والأصول منها[1]. ثم الوقوف علىٰ شيء من أسرار التعبير القرآني من خلال "دراسته التحليلية لسورة الأحزاب"، وانتقالًا إلىٰ "خصائص التراكيب"، الذي هو دراسة تحليلية لمسائل الإسناد في علم المعاني من خلال النظر في التراكيب، و"التصوير البياني" الذي هو دراسة تحليلية لمسائل البيان، ثم قدّم "قراءة في الأدب القديم"، الذي هو تطبيق منه لمنهج الشيخ عبدالقاهر[2]، عاد بعدها ليتمّم دراسة مسائل علم المعاني بمنهج تحليلي لا يكتفي بالتلقي والتمرير في "دلالات التراكيب"، وترىٰ بعد ذلك منهجه في "قراءة التراث وتحليله" في "القوس العذراء"، ويقدّم بعد ذلك دراسته لـ"الإعجاز البلاغي" الذي لم يكن إلا "دراسة تحليلية لتراث أهل العلم في هذا الباب الشريف". ويعقب ذلك بدراساته "في البلاغة والشعر"، وفهمه لكتابي عبدالقاهر الجرجاني ومن ثم تقديم "مدخل إلىٰ كتابيه" ليسلّح طالب العلم بما ينفعه في الولوج إلىٰ الكتابين وفهمهما، ثم يُجري دراسة جديدة في تحليل نماذج من الكلام القديم لمعرفة "سمت الكلام الأول" من خلال شرحه لأحاديث من صحيح البخاري، وبعد هذه الجولات الماتعة يعود بنا إلىٰ قراءة كتاب من الكتب ذات الأثر، رغبة في "تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجنّي"، ومن ثم يقدّم "مراجعاته لأصول الدرس البلاغي"، التي أجال القول من خلالها في عقول أهل العلم، وطرائقهم، وما زخرت به كتبهم، ويعقبه بـ"دراسة في منازع الشعراء الجاهليين"، ويعود إلىٰ الدراسة التحليلية الدقيقة في كتاب الله العزيز بدراسته لسور آل حم مع سابقتها ولاحقتها، في ثلاثة مجلدات ضخمة، ثم يعود إلىٰ تحليل جديد في الحديث النبوي في مختارات من

---

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٣.

(٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٤.

صحيح مسلم، بعد أن درس مختارات من صحيح البخاري من قبل، ثم التفت إلىٰ مسائل البلاغة، ونفض عنها التراب، وبحث عما ندَّ أو توارىٰ منها، واجتهد ليُظهره ويلفت أنظار الباحثين إليه، فجاء هذا في "المسكوت عنه في التراث البلاغيّ".

وأنت ترىٰ أنّ هذا المشوار الطويل وهذه الجهود البلاغية قد نحت المنحىٰ التحليلي، وكانت إليه أقرب من الجانب التنظيري البحت، كما أنها لم تنكفئ علىٰ نوع واحد من الكلام، بل هي دراسات تناولت الكتاب العزيز، والحديث الشريف، والأدب القديم، والشعر الجاهلي، ومصنفات العلماء، ومسائل العلم.



ويجيب الشيخ عن السؤال الأهمّ: كيف نحلّل النصوص؟

فيؤكّد أولًا علىٰ أهمية فهم البلاغة والإحاطة بمسائلها، فـ «لا يمكن أن تمسك القلم، وتحلِّل آيةً واحدةً، أو قطعةً من حديث، أو بيتَ شعر إلا إذا كانت مسائل البلاغة كلها حاضرةً أمامك، تعيها بعقلك، وتراها بعينك، وقصورك في ذلك أو في بعضه سينتج تحليلًا خَدَاجًا، بقدر ما كان ينقصك».

وينفذ من ذلك إلىٰ بيان أنّ علىٰ طالب العلم الذي يحترم عقله وعلمه ألا يبدأ مرحلة الدراسات العليا في البلاغة والنقد قبل أن يحيط بهذه المسائل؛ لينصرف جهده وجهد أساتذته إلىٰ آفاق أوسع وأبعد؛ يحلِّلون فيها ويوازنون ويناقشون، وهذا المنهج هو الكفيل بصنع أجيال مميزة من العلماء والباحثين.

وينبّه إلىٰ أنّه من الخطأ علميًّا ومنهجيًّا أن ندرّسَ طلابنا قواعد البلاغة، ثم نطبّقَ المناهج النقدية الحديثة في دراسة الشعر وتحليله، مستبعدين تلك القواعد البلاغية

التي درسنا فيها أسرار الكلام، وأسباب الجمال. وهذا منهج يجعل البلاغة بلا روح، ويجعلها خواء من القيمة والفائدة.

ودراسةُ البيان العربي من خلال النظر في الظواهرِ البلاغية، والأغراضِ البلاغية، دراسةٌ نافعةٌ جدًّا، وهي التي تتواءم مع روح هذا البيان وشكله ورائحته، وهي التي تكشف عن تراكمات المعاني والدلالات، وكيف كان دور الفنّ البلاغي في بنائها.

لكنّا لا نعني تلك الدراسات السطحية التي تكتفي بمسّ الفن البلاغي أو الإشارة إليه، مما قد يناسب طالبًا في مراحله التعليمية الأولىٰ، وإنما نعني التنقيب داخل الفن البلاغي أو الظاهرة البلاغية عن دقائق وتفاصيل، وألوان وأسرار، تُضفي علىٰ النصّ جمالًا وعمقًا وأثرًا.

ترىٰ في أوائل سورة البقرة تشبيه المنافقين في صورتين متتابعتين بليغتين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧-١٩]. فيكون أول ما يجب عليك أن تجيب عن أسئلة كمثل: لماذا جاء بتشبيه بعد تشبيه؟ وما الذي فات الصورة الأولىٰ فأتمّته الصورة الثانية؟ وما الذي امتازت به كل من الصورتين؟ ولماذا تعاقبتا في هذا المقام؟ وهكذا تجد أنّ تأمّل هذه التشبيهات بهذا العمق يجلّي المعنىٰ ويكشفه، ويظهر الأسرار ويبينها ويفصح عنها.

وترىٰ أعمال الذين كفروا تُشبَّه في مقام بأنها ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩]، وتُشبّه في مقام آخر بأنها ﴿كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ

سَحَابٌ ﴾ [النور: ٤٠]، فتتأمل كلتا الصورتين، وتنظر في الفرق بينهما، وعلاقة كل منهما لمقامه وسياقه، ثم تُرجع كلَّ صفة في المشبه به إلىٰ ما يقابلها في المشبّه.

إنّ المفسِّر يشرح كل صورة، ويبيّن معناها، لكنه قد لا ينفذ إلىٰ أغوار الصورة وأسرارها، وجوانب المعنىٰ التي تغطّيها، وعلاقتها بسياقها، وهو الجانب الذي يُطالب البلاغيّ به؛ فمهمة المفسّر بيان المعاني، ومهمّة البلاغي بيان الأسرار.

وهذا يجعل البلاغيّ علىٰ يقين أنه يخوض بحرًا، ويقاسي وعرًا؛ لأنّ التغلغل في الأسرار ليس بالأمر الميسور. ولابدّ أن تتعسّر مراحل وأزمان حتىٰ يستقيم له الحال؛ فتحصيل التحليل وفهم طرائقه والبراعة فيه أصعب ألف مرة من تحصيل علم البلاغة؛ لأنّ علم البلاغة بغير تحليل علم نظريٌّ لا ينفع ولا يضرّ، كأحكام التجويد التي تكون قيمتها وأثرها وجمالها بتطبيق القارئ لها، وتغنّيه بكتاب الله بواسطتها.

ومن أجل ذلك كان تدريب النفس علىٰ التحليل محتاجًا إلىٰ مجهود وافر، وعمل دؤوب متواصل، وعلىٰ طالب البلاغة أن يعي أنّه يجب أن يعيش مع التحليل منذ أنْ يبدأ إلىٰ أن ينتهي ويموت. ومن يملّ ذلك، أو لم يكن قادرًا علىٰ هذه المعاناة، فليس أهلًا لفتح هذا الباب، ولن يكون من رجال الميدان، وكلّ صاحب صنعة لا ينجح إن كان يملّ مهنته، ويستثقلها؛ نجّارًا كان، أو محاسبًا، أو طبيبًا، أو بلاغيًّا وناقدًا.

إنّ الطبيب يعالج الأبدان، والبلاغيَّ يعالج النصوص؛ لكنّ الطبيب يعالج المريض فيداويه وينفعه بإذن الله، من غير أن يستفيد في ذاته أو صحّته شيئًا، أمّا البلاغيّ فيعالج النص، فيستفيد أولًا في عقله وفكره وبيانه، ثم يفيد غيره، وهذا داعٍ لعدم ملله، والمزيد من إقباله علىٰ عمله.

ويتعلّق بالتحليل مسألة مهمة يغفل عنها كثير من الباحثين، وهي أهمية الموازنة بين الدراسات التحليلية للآيات القرآنية، والدراسات علىٰ الشعر العربي. فإنْ كنت درست أدوات التوكيد ـ علىٰ سبيل المثال ـ في القرآن؛ فلمَ لا تدرسها في شعر امرئ القيس أو غيره؟ فهما من مشكاة واحدة، من لسان عربي مبين.

والموازنة بين الظاهرة البلاغية في القرآن والشعر نافعة جدًّا، بل إنّ الاكتفاء بدراستها في القرآن ـ وإنْ كانت نافعة ولا ريب ـ وقوف في منتصف الطريق، أو إحجامٌ عن قطف الثمرة. فالموازنة بين كلام الله ﷻ المعجز وكلام غيره من البلغاء يرقىٰ بالدراسة البلاغية وتحليلِ النصوص إلىٰ مراقٍ أعلىٰ وأنفع.



ويرىٰ أنّ الأصول والقضايا البلاغية التي أثارها المشتغلون بالأدب والشعر في تراثنا ترتبط بلغة الأدب وخصائصها؛ لذلك كانت هذه القضايا والأفكارُ الصحيحةُ المرتبطةُ بهذا الجانب اللغوي التحليليّ للأدب ثابتةً، ومثل هذه الأصول لن يكون مصيرها كمصير النظريات والأفكار النقدية المجرّدة، التي تعتمد في كثير من جوانبها علىٰ أحوال افتراضية أو ظنية لا صلة لها بالتركيب اللغوي والبياني[1].

ويؤكّد كثيرًا علىٰ أنّ البلاغة استخرجت من كلام العرب وشِعرهم، ثم صارت متونًا في كتب البلاغة؛ فمن رحِم الشعر وُلِدت البلاغة، ثم عُرفت في متونها، وستظلّ مغتربة ما بقيت في هذه المتون بعيدة عن أصلها الذي استُخرجت منه، ومهدها الذي رُبّيت فيه. يقول: «علينا أن نقرأ البلاغة في ديوان النابغة أو ديوان امرئ القيس أو في المفضليّات أو في غيرها من دواوين الشعر العربي؛ اقرأ المعاني في ديوان زهير، واقرأ

(١) ينظر: التصوير البياني ٢٢.

حروف العطف في ديوان عنترة، واقرأ الفصل والوصل في ديوان طرفة، وهكذا اقرأ كل مسألة من مسائل البلاغة في هذه الدواوين؛ لتكون بذلك قد ألحقت الولد بوالده الشرعيّ، ولتكون دراستك للبلاغة دراسة حيّة مثمرة».

ويدعو إلىٰ التأسّي بسلف الأمة من علمائها بقوله: واعلم أنّ علماءنا لم يكونوا علماء في البلاغة «إلا بعد أنْ درسوا الشعر دراسة جعلته مع سعته وعمقه وتراحبه كأنه قد جُمع لهم، ووُضع تحت أبصارهم، يرون أفكارَه وصورَه وهواجسَه وخواطرَه حتىٰ إنك لترىٰ الواحد منهم يفطن في صورة من الصور إلىٰ لمحٍ لصورة أخرىٰ عند شاعر آخر ويَنبُه، فينكر القارئ هذا اللمح في بادئ الأمر، ثم لا يزال هذا العالم يكشف عن الوجوه والنظائر حتىٰ يعرف القارئ ما أنكر ويقتنع بما استغرب. ثم إنك ترىٰ أحدهم يقول: إنّ هذه اللفظة بهذا المعنىٰ لم ترد في الشعر الأول، وإنّ أول من أجراها في هذا المجاز هو فلان، وإنّ هذا الاشتقاق اشتقاق محدث ...»[(١)]، ويضرب علىٰ هذا أمثلة عديدة.

ويجعل هذا جذرًا في الدرس البلاغيّ يجب أن يكون حاضرًا في قلب كل دارس وعقله، حيث بيّن أنّ عبدالقاهر حين استصفىٰ ثماني كلمات توارد عليها العلماء واعتبروها أصلًا في حديثهم عن البلاغة (وهي: النظم، والترتيب، والتأليف، والتركيب، والنسج، والتحبير، والصياغة، والتصوير)، فإنما «هي مما وصف بها الشعراءُ الشعرَ، يعني بلاغته وفصاحته، فإذا كانت جذر عمل عبدالقاهر فالواجب أنْ نقول إنّ هذا الجذر من صناعة الشعراء»[(٢)]. ويقول: «كثير من مسائل البلاغة بدأت ومضةً في صَنعة

(١) خصائص التراكيب ٥.

(٢) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٣٣.

الشعر، ثم وقعت عليها بصيرة عالم فميّزها بإشارة خاطفة، ثم أصابها غيره، وهكذا حتىٰ تتسع وتكتمل»[1].

وقد كان منه في كتبه الكثير من الدعوات إلىٰ السير علىٰ منهج القدماء في دراسة الأدب، والإشادةِ به، وهو المنهج الذي عُني بالبحث والتحليل في أحوال تراكيب الكلام، ودلالات الكلمات الظاهرة والباطنة، وما أودعه فيه صاحبه من فكر وحسٍّ، وحَرِص علىٰ أن تكون دراساته سائرة في فلك هذا المنهج لا تحيد عنه[2].

يقول عن إحدىٰ دراساته: «وهذه الدراسة تثقل خطاها في الآفاق المستحدثة في درس الأدب ونقده؛ لأنها تحبّ ريح هذه اللغة، وتستعذب مذاقها، ويختلبها منهجُ القدماء الصافي قبل أن تكدّره الأوشاب والأكدار، وهي مقتنعة بأنّ منهج القدماء الصافي منهج صالح، وقادر علىٰ أنْ يفضّ مغاليق الشعر والنثر، وأنْ يفسح للدارس معالمها إلىٰ أبعد الآماد، وأنه أبرّ بمزاج هذه اللغة وأقرب إلىٰ روحها من كل مجتلَب غريب، وأنه يحتاج في وعيه إلىٰ صبر جاهد وعمل دؤوب»[3].

ومن معالم منهج القدماء الذي كان له حضور في تحليله: عدم الالتفات لغير «الجوانب الخفية من التراكيب؛ لأنها توقيعات تلك الأسرارِ الخفية، والأحاسيسِ المظلَّلة في النفوس، لا تجدهم يشرحون المعاني المبذولة من الشعر والدلالات الأولية، وإنما يقفون عند الخطَرات البعيدة التي لا تدركها النفس إلا بمشقة يفرضها منهجهم علىٰ من يريد أنْ يتعرّف علىٰ أسرار الشعر وأغوار الأدب»[4].

---

(١) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ٢٣.

(٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٢، ودلالات التراكيب ٢١.

(٣) خصائص التراكيب ٣٧.

(٤) دلالات التراكيب ٢٢.

وعلىٰ الدارس أنْ يعي أنّ منهج القدماء «في التحليل البلاغي يقوم علىٰ الإدراك الواعي للفروق بين أحوال التراكيب، وأنّ هذه الأحوال قادرة علىٰ أنْ تكون مسارب جيدة تنساب منها مواجيد النفس، فعكفوا علىٰ هذه الأحوال وهذه المسارب، وساءلوها عما أودع القوم فيها من أنفاس نفوسهم وخلجات أفئدتهم»(١).

وأكّد لي حفظه الله استنباطًا من كلام عبدالقاهر مسألةً في غاية الأهمية، وهي أنّ الدراسة البلاغية يجب أن تتضمن ثلاث خطوات؛ الأولىٰ: الدراسة النظرية والقواعد، والثانية: أثر الفن في النفس والمعنىٰ، والثالثة: أسباب هذا الأثر. متأسّفًا من أن الدراسة البلاغية في الحاضر أخذت بالخطوة الأولىٰ وأهملت ما عداها، أي: أنها أخذت بالثلث وتركت الثلثين! ويقول: «علىٰ من أراد أنْ يُحسن فهم البلاغة التركيزُ علىٰ العلّة التي من أجلها صيغ الكلام؛ فالصورة قد تدهشني، لكنّ الذي يدهش أكثر منها هو الحسّ الذي صيغت هذه الصورة بموجبه».

وبهذا تخرج الدراسات الأدبية عن نطاقها اللفظي الضيق؛ لأنها تستشعر أنّ دراسة أسرار هذه اللغة «كانت في جوهرها دراسةً لأسرار الإنسان، وتعرّفًا علىٰ أخفىٰ وأغمض ما يختلج في بواطنه من حسٍّ وشعور، وأنّ العناية بالأحوال والكيفيات والتراكيب ليست إلا بحثًا في أسرار القلوب والعقول الماثلة في أسرار الكيفيات والتراكيب، وأنّ المعنىٰ الخفي الغامض والمستكنّ وراء هذا الحال من أحوال اللفظ العربي إنما هو تلك الاختلاجة الخفية والغامضة في باطن النفس التي أبدعت هذا التركيب، وأنّ هذا المنهج الذي يعكف علىٰ الكلمة والتركيب يتأمل ظاهرها وباطنها، ومنطوقها ومفهومها، وإشاراتها القريبة والبعيدة، وما ينبثق عنها من إشعاعات متوهجة أو إيماضات خفية، ثم ما يستكنّ وراء هذه العلاقات حيث تحتك الكلمة بالكلمة، وما وراء هذا الاحتكاك من

---

(١) دلالات التراكيب ٢٤.

فيوضات معنوية، هذا المنهج الذي نذكر بعض ملامحه لم يقع للقدماء بطريق المصادفة، وإنما كان خلاصة تجارب عميقة وحيّة ظلت خلالها أجيال الباحثين المخلصين تنقّب في التعرف علىٰ الأصل الذي نعرف به فضل كلام علىٰ كلام، وكيف يترقىٰ إلىٰ الحدّ الذي تتعثر وتنقطع علىٰ مراقيه المواهبُ الجبارة التي تفيض بجيد الكلام ومختاره»[(١)].

ولذلك تجده يلفت النظر إلىٰ صعوبة هذا المنهج مع كفاءته، وأنه لا يسلُس إلا لمن له طبع صحيح يعي به وحي الكلام، ويدرك سره[(٢)]، وأنّ مثل هذا التحليل للنص الشعري يحتاج إلىٰ طول ممارسة، وتدريب في التَّفْلية والتقليب والتذوق والصقل والاستنارة حتىٰ يميز بين شعر وشعر[(٣)].

وفي لفتة قوية في الحثّ علىٰ الممارسة والإقدام في التحليل يقول أستاذنا: «والمغامرات الذهنية في باب العلوم لا تختلف عن الآفاق الخيالية الرحبة في باب الفنون؛ من حيث هو مجال للوثب الذهني، والحركة العقلية الطموحة»[(٤)].

وليس غريبًا بعد ذلك كله أنْ نراه يقرّر أنّ تحليل النصوص هو ميدان البلاغة الحقيقي والمقصود من دراستها؛ لأنه هو الذي يُحيي البلاغة وينفحها نضارتها، من خلال علاقة تبادليّة بين علوم البلاغة والنصوص الأدبية، فكل منهما يرتوي من الآخر ويرويه، ويبلّ ريقَه بأجمل ما فيه[(٥)].

والدعوة إلىٰ تحليل النصوص ليست دعوة عشوائية لا هدف من ورائها، بل لها أهداف كبرىٰ؛ فهي تهدف إلىٰ تربية النفس الشاعرة بحلاوة اللسان وجلال الفن،

---

(١) دلالات التراكيب ٢٥.

(٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم ١٠.

(٣) ينظر: قراءة في الأدب القديم ١٤.

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٨.

(٥) ينظر: خصائص التراكيب ف.

وإبرازِ خطر الوسائل البلاغية في بناء الشعر والأدب[1]. وبواسطة هذا المنهج الدقيق في تحليل النصوص تتكشف كثير من طبائع الأمة وأحوالها[2]؛ فإنّ النسيج اللغوي دليل علىٰ طبائع الأقوام وأحوالهم الروحية والنفسية، سواء في ذلك النسيج النحوي والنسيج الصرفي والنسيج البلاغي[3]. فدراسة الكلمة والخصوصية والتركيب دراسة في «مقاصد النفس واهتماماتها، وتبحث في صميم ناطقية الإنسان، في عقله وقلبه ووجدانه وآماله وآلامه، وكل ما أحسّه وصاغه في لغة تختلج اختلاج نفسه، وتحمل أوزارها من خير وشر وضلال وهدىٰ»[4]؛ ولذا كانت أمثال هذه الدراسات هي الكاشفة عن السمت الذي يصبغ الزمانُ به كلامًا دون كلام، فيكون كالدليل علىٰ صدوره من قوم دون قوم، أو من عصر دون عصر[5].

وحين يُحسِن القارئ القراءة والفهم والتحليل فإنه يضيف إلىٰ الكتاب الذي يقرؤه إضافات غابت عن صاحب الكتاب، فيكون ذلك من تمام الكتاب، وإضافة معرفية جديدة، فيحصل للمعرفة الثراء، وللعلوم الاتساع[6].



ومنهجه في القراءة والتحليل امتداد لمنهج شيخيه اللذَين أحبَّهما وأشاد كثيرًا بهما؛ عبدالقاهر ومحمود شاكر. فأمّا عبدالقاهر فأثره عليه في هذا الميدان جليٌّ، من شواهده أنه افتتح مراجعاته لأصول الدرس البلاغي بكلمة عبدالقاهر الجليلة المتينة

---

(١) ينظر: خصائص التراكيب ٣٩.

(٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٤.

(٣) ينظر: الإعجاز البلاغي ٢٣.

(٤) التصوير البياني ٢٤.

(٥) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٣.

(٦) ينظر: خصائص التراكيب ع.

التي قال فيها: «واعلم أنك لا تَشفي الغُلَّة، ولا تنتهي إلىٰ ثَلَج اليقين، حتىٰ تتجاوز حدَّ العلم بالشيء مُجْملًا إلىٰ العلم به مفصَّلًا، وحتىٰ لا يقنعَك إلا النظرُ في زواياه، والتغلغلُ في مكامنه، وحتىٰ تكون كمن تتبَّع الماء حتىٰ عرف منبعه، وانتهىٰ في البحث عن جوهر العود الذي يُصنع فيه إلىٰ أنْ يعرف منبته، ومجرىٰ عروق الشجر الذي هو منه»[1]، ويصرّح بأنّه يحبّ مراجعة هذه الكلمة لعبدالقاهر[2].

وأفصح في إحدىٰ مقدّماته عن أثر الشيخ أبي فهر محمود شاكر عليه، حين بينّ أنّ دراسته لبعض الآثار الأدبية في كتابه "قراءة في الأدب القديم" محاولةٌ لنقل منهج الشيخ عبدالقاهر من ميدان البحث البلاغي النظري إلىٰ أفق الآثار الأدبية، وأنّ أبرز المحاولات التي تقترب من هذا المنهج دراسة الأستاذ الكبير محمود شاكر لقصيدة "إنّ بالشعب الذي دون سلع"، وأنها هي التي شغلته بهذا المنهج وأغرته بمتابعة محاولة تطبيقه في الدراسة الأدبية، وكان لها عليه فضل كبير[3].

وهذا الامتداد يظهر جليًّا واضحًا عند مطالعة تحليل الأستاذ شاكر، أو بيانه لمنهجه في مقدّمة كتابه الكبير "المتنبي"، وهي المقدّمة التي تُعدّ مرجعًا للقراءة، ولذا سمّاها "رسالةٌ في الطريق إلىٰ ثقافتنا"، وكأنه يريد أن يقول من خلال هذا العنوان: إنّ ما تضمّنته هذه الرسالة هو الطريق الصحيح والوسيلة السليمة للوصول إلىٰ فهم أمثل لثقافتنا العربية الأصيلة[4].



---

(١) دلائل الإعجاز ٢٦٠.

(٢) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٣١.

(٣) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٥.

(٤) ينظر: المتنبي ٦.

التجديد

قد يُفهم أنّ المراد بالتجديد إحداثُ أمر لم يكن معلومًا، أو إبداعُ شيء جديد، والحقّ أنّ هذا معنىٰ من معاني التجديد، لكنّ له معنىٰ آخر لا يقلّ أهمية عنه، وهو بعث الحياة في شيء كائن، أو إبرازُه بصورة جديدة. وهذا المعنىٰ تشهد له اللغة؛ فإنّ "التجديد" مصدر الفعل "جدّد"، و"جدّد الشيء: صيّره جديدًا"، و"تجدَّدَ الشيءُ: صار جديدًا"[1]، أي: أنّ فعل التجديد وقع علىٰ موجود أو معلوم، فصار بذلك جديدًا.

وأهمّ ما يمكن الاستشهاد به في هذا السياق الحديثُ النبويُّ الكريمُ: «إنَّ اللهَ يَبعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَىٰ رَأسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[2]. والشاهد في قوله "يجدّد لها دينها"؛ فمن الجليّ أنْ ليس المرادُ أنْ يأتي بدين جديد، بل المرادُ إعادةُ بهاءِ الدين ونضارتِه، وإحياءُ ما اندرس من آدابه وسننه. قال شمس الحق آبادي في شرحه للحديث: "أي: يبيّن السنة من البدعة، ويُكثّر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهلَ البدعة ويُذلُّهم ... وقال العلقميّ في شرحه: "معنىٰ التجديد: إحياءُ ما اندرس من العملِ بالكتاب والسنة، والأمرِ بمقتضاهما""[3].

وبهذا المفهوم الأشمل والأوسع يمكننا الحديث عن التجديد عند الدكتور محمد أبو موسىٰ؛ تنظيرًا أو تحقيقًا؛ إذْ مفهومه ليس مقتصرًا علىٰ ما كان من بنات الأفكار التي لم يسبقه إليها أحد، بل قد يكون من ذلك تلك الأفكارُ التي غفل عنها الناس، أو أهملوها، فجاء الأستاذ ونفض عنها الغبار، فأعادها بحلّة جديدة زاهية؛ من خلال شرحه لكلام العلماء، أو تأكيده علىٰ مسألة، أو تطبيقه لنظرية.

---

(١) ينظر: لسان العرب ٣/ ١١١، مادة "جدد".

(٢) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يُذكر في قرن المئة ٤/ ٤٨٠.

(٣) عون المعبود ١١/ ٢٦٠.

وهو ابتداءً يحذّر من التقليد الأعمىٰ، ويرىٰ أنه قتل للعقل، ويشير إلىٰ أنّ علماءنا كانوا يدركون خطر التقليد علىٰ الروح الإنسانية، وذُلَّ المقلِّد، وأنه كما ذكر الزمخشري أذلُّ من العنز الجرباءِ تحت الشمْأل البليل[1]، أي: الريح الباردة الممطرة! ويُنبّه إلىٰ أنهم عبّروا عن وجوب ترك التقليد علىٰ من شدّ في العلم واشتدّ «بعبارة تواردت عليها كتبهم، وفيها إزراء للتقليد وإزراء للمقلّد، هذه العبارة هي قولهم: "وجَبَ عليه أن يخلع رِبْقَةَ التقليد من عنقه"، والرّبقة هي الحبل الذي تُربط به البهيمة، وتأمّلْ الصورة وكيف يكون التقليد وضعَ ربقة في العنق، وفيه إشارة إلىٰ أنّ الطرف الآخر للحبل في يد من قلّدوه، وأنه يقودهم ويجرّهم كما يقود الدابة ويجرّها»[2]؛ يعني أنّ المقلَّد هو من يقود المقلِّدين ويجرّهم!

ويختم حديثه في هذا السياق بقوله: «ذروة كل علم تدور حولها دائرةٌ مغشَّاةٌ بالظنون، ما تلبث العقول الحيّة أنْ تُدخِل هذه الدائرةَ في باب العلم، ثم تضرب بظنونها وخواطرها في المساحة التي تليها، وهكذا. وهذا هو الطريق، وهؤلاء هم الروَّاد، وليسوا الذين يعملون علىٰ حسب عقول غيرهم، والذين أمالت أعناقَهم رِبْقةُ التقليد، واغتبطوا بهزِّ أذيالهم وراء سادتهم!»[3].

وليس من المبالغة في شيء إذا قلت إنّ التجديد في دراسات الشيخ حاضر في كل جزء منها؛ لأنه كما عاب التبعيّة المطلقة والتقليد الأعمىٰ، فقد كان كثير التذكير بضرورة قدح زناد العقل والفكر، وحتىٰ الكلمات والألفاظ المفردة قد يغرس فيها المبدع معنىٰ جديدًا غير مألوف، ويحثُّ علىٰ الاجتهاد في تحريك الكلمات أو هزّها

(١) ينظر: أطواق الذهب ٤٦.

(٢) خصائص التراكيب ث.

(٣) خصائص التراكيب ذ.

لتظهر من أعطافها معان جديدة، ويرشدني ويرشدك ويرشد كلَّ ذي موهبة إلىٰ «أنّ الكلمات يُطفئها الإلْف وطولُ الاستعمال؛ يُطفئ وهجَها، ويَذهب بمائها، حتىٰ تراها مغسولة مبتذلة، وإنما يجدّدها الصقل والتثقيف، وهذه الروابط المتجدّدة التي يهتدي إليها أصحاب الموهبة هي التي تُعيد إلىٰ اللغة رونقَها ونضارتَها، اللغة في الكلام المألوف كالهواء المحبوس في حجرة يقتل حيويّته جريانُه في الأنفاس، فإذا هبّت عليه ريحٌ وحرَّكته تجدّد وعذُب. وليس كل كلام يجري في الشعر والأدب تتجدّد علاقاته ومعانيه، وإنما يكون ذلك في القليل دون الكثير، وفي الواحد من الألف كما كان يقول الشيخ (يقصد عبدالقاهر)؛ لأنّ هذه الروابط الجديدة هي ذروة العطاء البياني»[(١)].

وعلىٰ هذا النحو يمكننا أن نفهم بوضوح أنّ فكرة التجديد لم تكن غائبة عن فكر الدكتور وعقله، فقد أشار في أول مقدّمةٍ كتبها إلىٰ هدف من أهدافه بقول: «وأرجو بذلك أنْ أكون قد شاركت بشيء في محاولة تجديد المنهج في الدراسة البلاغية»[(٢)]. وبيّن أنّ دعوته إلىٰ الرجوعِ إلىٰ الشعر والكلام الرفيع من النثر، ودراستِه وتحليلِه، إنما كانت من أجل إجراء رافد يتجدّد به العلم، وتطول فروعه[(٣)]. ونصّ علىٰ أنّ «تجديد الدرس البلاغيّ يجب أنْ يبدأ بكشف أصول منهج عبدالقاهر»[(٤)].

وفي جلسة ماتعة معه حفظه الله أبان بصورة أشدّ وضوحًا عن رأيه في مفهوم التجديد، حين أشار إلىٰ أنّ العلم مستقرٌّ وثابتٌ؛ لأنّ العلم أصول وقواعد تُبنىٰ عليها المسائل والتفاصيل، والتجديد هو تجديد داخل عقل العالم نفسِه؛ تجديدٌ في قراءته

---

(١) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ٦٠.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥١.

(٣) ينظر: دراسة في البلاغة والشعر ٢٠.

(٤) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٧.

وفهمه واستيعابه للعلم؛ تجديدٌ في سعيه الدؤوب نحو إدراك أسرار العلم والمعرفة، ومن أين أتت، وما أصولها، وما امتداداتها؛ تجديدٌ يخلق الجديد، ويبعثه من قلب القديم. فعلىٰ القارئ لكتابٍ ما ألّا يكتفي بتحصيل المعرفة الموجودة في الكتاب، بل عليه أن يسعىٰ ليتعرف علىٰ طريقة تفكير المؤلف، وطريقة صناعته للفكرة، وكيف ينتقل بين أفكار الموضوع الواحد؛ لأنّ هذا يعين كثيرًا في فهم مراده واستنباط دلالات كلامه، كما أنه مفيد في تنمية الفكر والعلم، وبعد هذا عليه أنْ يضعَ هو بعقله وفكره امتدادًا وغرسًا جديدًا.

ولم تكن هذه الدّعوة منه مجرّدَ أقوال ليس لها ما يصدّقها، بل إنّ روحَه المتطلِّعة إلىٰ كشف أصول المعرفة، وخطوط التفكير، وطرق الاستنباط، تجدها في كل قراءة له. تجدها واقعًا حيًّا وتطبيقًا حاضرًا في قراءته لتراث ابن جني، والباقلاني، وعبدالقاهر، وحازم، والزركشي، ومحمود شاكر، وغيرهم رحمهم الله جميعًا. وينصّ علىٰ أنّ غايته في مثل هذه القراءات أنْ يضع «علامات علىٰ طريق التعرّف علىٰ تفكير هذا العالم المتميّز»(١).

وخلال دراسته لتراث عبدالقاهر بيّن أنّ له عنايةً خاصة بالكتب التي ابتدأت المعرفة واستخرج فيها أصحابها علمًا بنظرهم واستنباطهم وتأمّلهم، وأنه وجد في كتاب سيبويه هذه المزيّة، فكان يذوق عباراته، «ويروزها، ويزنها وزنًا، ويذكر أنّ منها عبارات تلبّست عند سيبويه بمعرفة استخرجها علىٰ غير مثال فجاءت عبارته عنها علىٰ غير مثال، فكانت الفكرة بكرًا والعبارة عنها كذلك، وهذا اللون من الجمل كثيرًا ما يغلب به صاحبه علىٰ معناه فلا يستطيع أحد أن يأتي بعده في هذا المعنىٰ بعبارة أدقّ من عبارته؛ لأنها مازجت المعنىٰ وخالطته وحُذيت علىٰ حَذْوه، وجرت فيه وجرىٰ

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٩٣.

فيها، وصارت جزءًا منه وهو جزء منها»[1]. فعبدالقاهر أفاد من عبارة سيبويه في التقديم، لكن لم يكتب أحد قبله مثل ما كتبه في هذا الباب؛ لأنه قرأ عبارة سيبويه وهو يبحث عن أسرار المعنىٰ، ولم يقرأها وهو يبحث عن الجواز وعدمه.

وأظنّ أنّ أعلىٰ وأغلىٰ ما يتعلّمه منه قُرّاؤه وطلابه تدريبُ عقولهم علىٰ التأمّل، واستنباطِ أصولِ الأفكار، وجذورِ القواعد، والعيونِ التي تنبع منها الفوائدُ والعلومُ، وهو منهج حيٌّ، ونبعٌ ثرٌّ، ومنهلٌ عذبٌ، يمكن أن يفتحَ آفاقًا، ويبصِّرَ أعينًا، وينيرَ قلوبًا.



ويؤكّد الشيخ بشدّة علىٰ أنّ النص الذي يقرأه قارئٌ مَّا يُنطقه فهمُه واستنباطُه، فأنت تقرأ للعالم جزءًا من علمه وعقله؛ لأنه لا يستطيع أن يعبّر عن كل شيء فيختزلَ في داخله الكثيرَ مما تفلّت من عبارته، وهو ما يمكن للقارئ النبيه الواعي أن يستنبطه ويُظهره ويطوّره.

ويشير إلىٰ أنّ كلام العلماء مليء باللَّمْح والفراغات التي يكون علىٰ القارئ واجب ملئها! ويقول في كلام رفيع وتصوير بديع وهو يلفت إلىٰ تلك الفراغات واللمحات في كلام عبدالقاهر: «إنها كالقَطا الهادي إلىٰ منابع الماء، وإنّ هذا القَطا لا يحملك إلىٰ الماء، ولا يحمل الماء إليك، وإنما يدلّ فقط، وهكذا كلمات الشيخ الإمام لا تحملك إلىٰ الأسرار، ولا تحمل الأسرار إليك، وإنما أنت الذي تكدح وتقدح، حتىٰ تصيب أو تقارب، وأنك إذا لم تتمِّم كلام الشيخ بالكدح والقدح، ووقفت عند تحصيله، تكون كمن عرف موضع الماء، ولم يتجشَّم السير إليه، واكتفىٰ بمعرفة خبره، ولم يغترف منه»[2].

---

(١) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ٢٥.

(٢) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٠٧.

وهذا من فضل الله علىٰ العلم لأنه يجعل بابه مفتوحًا، فاللاحق يكشف سرًّا مكنونًا في عقل السابق أو كلامه، والعقل الحيّ حين يقرأ المسألة يضيف إليها من حيويّته، وإذا حدّث بها يصير فيها شيء منه، فإذا حدّث بها عدد من النابهين أصبحتَ كأنك تقرأ مسائل مختلفة؛ لأنّ كلًّا منهم أفرغ فيها شيئًا ما من بصيرته. والعينُ التي لا تستطيع أن ترىٰ الخصوبة في كلام العلماء عينٌ لا تستحق أن تعمل في مجال العلم، وعلىٰ صاحبها أن ينشغل في غيره!

إنّ من حقّ القارئ وهو يقرأ كتابًا ما أن يستنبط فكرة جديدة ليست في الكتاب، وإنما بعثها الكتاب. يقول حفظه الله: ((إني أقف أحيانًا عند عبارة عالم وقتًا طويلًا ولا يظهر لي مكنون عبارته، لكنها تفتح لي مجالًا للتفكير بفكرة أخرىٰ ذات صلة، وقد تفتح لي هذه الفكرة مجالًا أرحب للبحث، وفي الحالتين حقَّقتُ فائدة من مطالعة كلام العلماء)). وكم جعل مثلُ هذا النوعِ من التجديد العالمَ والباحثَ نفسَه يتعجّب من فكرة تواتيه وهو يقرأ ويبحث حتىٰ يقول: "أين كانت هذه الفكرة عنّي؟!".

أو لستَ ترىٰ الشاعر يقول البيت، فيتفاوت النقاد في فهمه وقراءته، واستنباط دلالاته، ولكلٍّ منهم وجهة نظر صحيحة؟ فطريقة النظر وطريقة التناول ودقّة التمحيص والتدقيق ستؤدّي إلىٰ تفاوت وتمايز في استنباط العلم وتوليده. ولهذا أجاز العلماء والنقّاد أن يُفسَّر بيت الشعر بمعنىٰ، سواءٌ قصد إليه الشاعر أو لم يقصده، فأشاروا إلىٰ أنّ قصد الشاعر ليس شرطًا في شرح شعره وفهمه. ويمكن أن يقاس علىٰ ذلك فيقال مثلُه في شرح كلام العلماء، وهذا من أساسيات تكوين المنهج.

وفي هذا المعنىٰ يقول: ((تحليل كلام العلماء كتحليل الشِّعر، فكلاهما ينطويان علىٰ خفايا وخبايا تحتاج من يفتش عنها، وزوايا تحتاج إلىٰ من يصل إليها، ولن يصل

إلا ذو همّة». ويقول: «عشتُ معتقدًا أنّ كلام أهل العلم يتكلّم بعلمٍ ظاهر، ويهمس بعلم خفيّ، وخصوصًا طبقة العلماء المنشئين للمعرفة، من أمثال سيبويه وابن جني وعبدالقاهر». ويرىٰ أنّ كلام العلماء علمٌ، ومَنْبَهةٌ لِعلم؛ لأنّ فيه ما يُحصَّل ويُنال، وفيه كذلك ما يثير ويحرِّك ويشير إلىٰ علمٍ لم يتّسعْ كلامُ العالم ومقالتُه لبيانه، وهو بحاجة إلىٰ قارئ لـمّاح، ذي عقل نبيه، يصنع من تلك الإشارة شيئًا، ويوقد منها نارًا تكون متاعًا للمقوين. ولذا فكم استخرج أولئك النابهون المتيقّظون بابًا من جملة، وكتابًا من كتاب! ويصرِّح بأنّ كلمته تلك استقاها من الرافعي ﷺ حين قال في مقدّمة كتابه: «إنّا لم نُسقط عنك كلَّ المؤونة، ولم نُعطك إلىٰ حدّ الكفاية التي تُورث الاستغناء، بل نهجنا لك سبيلًا إلىٰ الفكر تتقدّم أنت فيه، وأعنّاك علىٰ جهةٍ في النظر تبلغ ما وراءها، وتركْنا لك متنفَّسًا من الأمر تعرف أنت فيه نفسَك، وجمعنا لك بالحرص والكدّ ما إنْ تدبّرتَه وأحسنتَ في اعتباره وأجريتَه علىٰ حقه من التثبُّت والتعرُّف، كان لك مَنْبَهَةً إلىٰ سائره، ومادةً فيما يجيش إليك من الخواطر التي لن تبرح يُنمي بعضُها بعضًا»[1].

ويكاد يكون كتابه "المسكوت عنه في التراث البلاغيّ" مثالًا حيًّا لكون كلام العلماء مَنبهة لعلم؛ لأنه التفت فيه إلىٰ خبايا وزوايا في العلم تحتاج إلىٰ يدٍ صَناعٍ تكشف ما فيها، وتُزيل الحُجُب عنها. وقال عندما سألته عن مادة هذا الكتاب وموضوعاته: «غايتي أنّ الدّارس لا ينتهي عند التحصيل، بل يبدأ عند التحصيل؛ لأنّ التحصيل مرحلة أولية، يبقىٰ بعدها ما هو أهمّ، وهو أنْ يتغلغلَ في العلم، ويبحث في طواياه عن شيء خبيء، فإذا وصل إلىٰ ذلك واستخرجه كان كلامه كلامًا في المسكوت عنه».

---

(١) إعجاز القرآن ٢٦.

وحين تحدث عن الشعر الجاهلي الذي يحبه ذكر بأنه أمضىٰ وقتًا طويلًا من عمره في قراءته وفهمه، وأنه عرف أنّ ساعدة بن جُؤَيَّة من أخيار الشعراء الجاهليين، لكنّ شعره صعب جدًا، وهو ملهِمُ أبي ذؤيب الهذلي الذي نقّىٰ شعره من تلك الوعورة والصعوبة وقرّبه إلىٰ الناس فعرفه الناس وأحبّوه؛ وذاك من مظاهر التجديد بين الشعراء.

ويمكن القول إنّ بعض الأفكار أو المسائل البلاغية نبتت بذرتها في تربة فكرِ عالمٍ ما، لكنّ الذي سقاها ورعاها حتىٰ أثمرت وأينعت وطابت هو عالم آخر، ولربّما كان كل منهما يعمل في ميدان مختلف، وهذا مجال تآلف العلوم وتظافرها وتآزرها.

سألته عن بعض ما يذكره من شواهد ذلك التجديد، أو البناء والتطوير؛ فضرب لذلك أمثلة من علم عبدالقاهر؛ إذْ بيّن أنّ الرماني يُعدّ أحد مصادر عبدالقاهر، حيث أفاد منه في عباراته في أسباب تأثير التمثيل، وفي تحرير مصطلح "النقل" في المجاز؛ فكان للرماني فضل السبق والفتح علىٰ عبدالقاهر الذي جاء بعده، فأفاد مما قاله وبنىٰ تلك الأفكار علىٰ وجه مشرق تامّ. ولم تحجبه قراءته للرماني وإفادته منه عن الخلق والإبداع، فأتىٰ في باب التمثيل بما لم يُسبق إليه، إذ ابتدعه ابتداعًا، وافترعه افتراعًا!

وكذلك أفاد مما قاله أبو عليّ الشيرازيّ في "إنما"، لكنه أتىٰ بما لم يأت به أبو عليّ في بابها. ومن أعظم ما التقطته نباهتُه ووعاه ذكاؤه عبارةُ سيبويه في التقديم: «كأنّهم يقدِّمون الذي بيانه أهمُّ لهم، وهم ببيانِه أَعْنىٰ، وإن كانا جميعًا يُهِمَّانِهم

ويَعْنيانِهم))(١)، فأفاد من تلك الكلمة حتىٰ كتب في التقديم بابًا لم يُكتب في تراث العربية قبله علىٰ ذلك النحو ولا علىٰ وجه قريب منه(٢).

وأوضح هذه الصلة بين أبي الفتح ابن جني وشيخه أبي علي الفارسيّ؛ حيث كان من عادة الشيخ ((أنْ ينبّه إلىٰ أبواب العلم ويذكرَ منها مسألة أو مسألتين، ثم يأتي أبو الفتح ويواصل السير من حيث انقطع عمل شيخه، ويُراجع ويَستخلص ويُضيف حتىٰ تصير مسألة أبي علي بابًا من أبواب العلم النافع. وقد وعىٰ هذا المنهجَ الفذَّ الذي كان عليه شيخه، ففتح هو نفسُه أبوابًا من النظر والبحث في اللغة لم يَستوفِ الكلام فيها. وهذه عادة كريمة من عادات علمائنا، وهي التنبيه إلىٰ آفاق جديدة في البحث يتسع بها العلم وينمو، ويتواصلُ اتساعُه ونموُّه، ولا يتأتّىٰ هذا إلا لمن امتلك أدوات البحث والنظر، وامتلك مادّة العلم، واقتدر علىٰ إثارة ما خفي وما بطن))(٣).

وأشار إلىٰ أنّ الرافعيّ أدرك في كلام الباقلاني فكرة في وجوه إعجاز القرآن، لكنه ((صقلها صقْلًا آخر، فرفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، ووسّع مفهومها، وبسط مضمونها، وهذا هو الطريق الذي أتعلّمه وأعلِّمه))(٤).

ويمتّ إلىٰ ذلك بصلة أنّ الباحث ربما وجد أثرًا للباقلاني في توجّه الدكتور أبو موسىٰ للإفادة من الشعر الجاهلي في دراسة إعجاز القرآن، ودعوته إلىٰ ذلك بحرص ويقين. وهذا يؤكّد علىٰ أنّ الأفكار تنمو وتثمر، وأنّ المنهج ينضج ويكتمل، من خلال تضافر العقول والأقلام التي يضع كلٌّ منها لبنة في ذاك البنيان.

---

(١) الكتاب ١/ ٣٤.

(٢) ينظر: مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ٢٩.

(٣) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٨١.

(٤) الإعجاز البلاغي ١٢.

ولذا يلفت النظر إلىٰ أنه كما أن النبي ﷺ شبّه نفسه باللبنة التي تكمل الدار[1]، فكذلك علىٰ كل منا أن يسعىٰ ليكون اللبنة التي تُكمل بناء تخصصه، وأن المئات قد يسعون إلىٰ أن يكونوا هم اللبنة، لكنهم لا يُوفَّقون إلىٰ هذا، ولا يعيبهم ذلك؛ لأنّ اجتهادهم في الوصول إلىٰ هذا الهدف فضيلة، ولكونهم ينالون أجر الاجتهاد في كل حال. ويرىٰ أنّ علىٰ الباحث المخلص حين يجتهد ثم لا يصل إلىٰ بُغيته في الفهم أنْ يكتب خطواته تلك ويدونها؛ حتىٰ يبني مَن بعده علىٰ جهده، ويبدؤون من حيث انتهىٰ هو، فتكون الجهود متضافرة متعاونة.

وحقّ رسول الله ﷺ علينا أن نحفظ قوله، وأن نستنبطَ منه، أي: نفهم ما وراء اللفظ، وما يحمله من دلالات، ولا نكتفي بمجرّد حفظ الألفاظ أو الجمل. فقوله ﷺ: «فواللهِ لَأَنْ يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِن أنْ يكونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم»[2]، يُمكن أن يقال في ضوئه: "لأن يهدي الله بك رجلًا من المعصية إلىٰ الطاعة، أو من الجهل إلىٰ العلم خيرٌ لك"، وهذا يعطي النصَّ امتدادًا وسعةً وغِنىٰ، وهو جانب من جوانب الثراء والجمال في هذه اللغة الشريفة العالية.

---

(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ». صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ ٣/ ١٣٠٠ (ح٣٣٤٢)، وصحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ٤/ ١٧٩٠ (ح٢٢٨٦)، واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب ﷺ ٣/ ١٣٥٧ (ح٣٤٩٨)، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ ٤/ ١٨٧٢ (ح٢٤٠٦).

وهذا يعني أنّ الجديد في فكر الشيخ هو الذي يخرج من رَحِم القديم، فهو جديد ذو أصول راسخة ثابتة معروفة، وحين يولدُ هذا الجديد يكون له وزنه وقدره لأنّه ليس منبتّ الصِّلة عن ماضيه، ولا عن سابق العلم والمعرفة، وهذا يزيده قوة ورسوخًا وثباتًا.

ويؤكّد علىٰ أنّ دراسة الأصول والمسائل والقضايا البلاغية عند أصحاب المواهب الممتازة، دراسةً جادّة بقلوبنا وعقولنا، تقودنا إلىٰ رياض خصبة، صالحة للعطاء والنموّ، ويعتقد أنّ ذلك هو «السبيل الوحيد إلىٰ التقدّم الفكري والحضاريّ المتميّز، والذي ترىٰ فيه العلاقة الحيّة بين الماضي والحاضر؛ فالحاضر يستمدّ وحيَه وأصالتَه من الماضي، والماضي يستمدّ نبضَه وحركتَه من الحاضر»(١).

إنه يؤمن إيمانًا راسخًا ـ لا يتحرّك أو يضطرب ـ أنّ التجديدَ الحقَّ يتمثَّل في «أنْ نبعث ـ بصبرنا، وعملنا، وجدّنا، وفكرنا ـ حضارتَنا، وأنْ نجدِّدَها بعقولنا أيضًا، لا بعقول غيرنا، وأن نضع أيدينا علىٰ طاقاتها الحية؛ لأنها هي الرحِمُ الذي نتخلَّق فيه، وننمو عقليًّا وذوقيًّا؛ بروحها ومقوِّماتها وخصائصها. وكما أنّ الإنسان ابنُ أمّه وأبيه؛ يحمل في طيّه طباعَهما، كذلك هو ابن لغته وعقيدته، وحضارته وثقافته؛ يحمل في طيّه طباعَ كلٍّ، وخصائصَ كلٍّ»(٢).

وعلىٰ العقل الذكيّ الزكيّ يقوم العلم ويبتهج نباته، «ومادام العقل فاضلًا علىٰ العلم فكل قراءة حيّة هي إحياء، وكل قراءة جديدة هي تجديد ... والخلاصة أنّ كل قراءة حيّة هي تجربة عقل حيّ تلتقي بتجربة عقل حيّ هو مؤلف الكلام المقروء، ولابد أنْ يكون التقاء هاتين التجربتين مفضيًا إلىٰ شيء جديد، ومُعطيًا ثمرة جديدة»(٣). وأجدُ

(١) التصوير البياني ٢٢.

(٢) قراءة في الأدب القديم ٨.

(٣) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٦٥.

ـ من غير تكلُّف ـ مِصداقَ ذلك في قول الباري جلّ شأنه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ولا يغيبنّ عنك أنّ هذه الآية وردت في سورة "ق"، وهي السورة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها "في المجامع الكبار، كالعيد والجُمَع؛ لاشتمالها علىٰ ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب"(١).

وهذا هو التجديد والتطوير الحقيقي، وليس تهجين الثقافة بعلوم الغير، فهذا حقه أن يُسمىٰ تدليسًا وخداعًا للأجيال كما يراه الأستاذ. من أجل ذلك وبسببه كان "الواجبُ الذي يقتضيه العقل أنْ تؤكِّدَ الجامعةُ في نفوس بنيها أنه لا خلاص لهم إلا بإعادة حضارتهم وتجديدِها، بكفاح عقولهم وصبرهم وانقطاعهم؛ لأنهم هم ورثتها، وهم أبناؤها، وليسوا أبناء ما عليه "القوم" من علم وفنٍّ وذوق، بل وتؤكّد في نفوسهم التحذيرَ من أن ينغمسوا فيما عليه القوم من علم وفنٍّ وذوق؛ لأنكم إذا انغمستم في حضارتهم فلن تكونوا أبدًا أندادًا لهم، ولن تستخلصوا منهم حقوقكم"(٢).

وبهذا المفهوم الجميل ينمو العلم، وتتكاثرُ فروعه، ويظهرُ الجديد، وتتولّد المعرفةُ من المعرفة، والإبداعُ من الإبداع؛ فاستحضار هذا المفهوم من قِبل العلماء والباحثين سينتج جديد المعرفة ولا ريب، وسيجعل العقل العلميّ عقلًا منتجًا بناءً؛ لأنّ هؤلاء الباحثين سيتنافسون تنافسًا شريفًا علىٰ الاستنباط والاستخراج كما يتنافس الصيادون والغوّاصون علىٰ استخراج الصَّدَف واللؤلؤ من أعماق البحار.



---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٧١.

(٢) قراءة في الأدب القديم ٨.

تزكية الثقافة العربية

كانت القضيةُ التي شغلت لُبَّه وغلبت علىٰ جنانه قضيةَ التغريب والغزو الفكري، وهجومِ تياراتٍ مختلفة علىٰ تراث الأمة وحضارتها، فترىٰ هذه القضية ماثلة في كل مقدّمة من مقدّماته، بل في كل صفحة من هذه المقدّمات، فهو لا يكلّ ولا يملّ من التنبيه والتحذير، ومن إرشاد طلبة العلم وأبناء الأمة إلىٰ بعض ما يحاك لهم ويُدبّر. وكانت دعوته التي تتجلجل في كل صفحة من مقدّماته العودةَ إلىٰ تراث الأمة، وفهمَ كلام علمائها، والذودَ عن حياضها وديارها. وكان يرىٰ أن ّما يقوم به البعض من محاولة تبيين أوجه الشبه بين علمائنا والغربيين هو نوع من إسقاط قدْرِهم، لا رفعِه! لأنّ قدرهم عندنا معلوم من غير حاجة إلىٰ مشابهة بأولئك.

هو في واقعه مجاهدٌ صنديدٌ نذر نفسه للدفاع عن الأمّة وتراثها ورجالها، والتصدّي للمستغربين والردّ عليهم، في غيرة بادية، ونصيحة صادقة، وأدلّة دامغة، وهو في مقدّماته كنذير في أعلىٰ جبل يرىٰ خيول العدو مقبلة من أمامه، ويرىٰ قومه غافلين من ورائه، فهو يصيح فيهم: النجاءَ النجاءَ!

كانت نظرته إلىٰ البلاغة بوصفها علمًا ذا جذور راسخة، ترتوي من مياه عذبة نقية، لا يتطرَّق إليها كَدَر، ولا يعلَق بها درن؛ ولهذا أعلن ازدراءه للتهجين فيها - ويعني به غرس كلام الآخرين في عقولنا - وإيمانَه بأنّ هذا العلم الذي كثر التهجين فيه «له خصوصية تجعله عند من له بصيرة في العلم أبعدَ علومنا عن أنْ يُغرس فيه كلام من خارج سياق العربية وعلومها وآدابها. هذه الخصوصية هي أنه من رأسه إلىٰ قدمه مقتبس من استقراء كلام العرب، وتتبُّع خواصّ تراكيبها، وأنّ كلام العرب هو "الجهة التي منها يُطلب" كما قال علماؤه، ومعنىٰ هذا: أنه تحليل لطرائق العربية وسَننها في

الإبانة عن المعاني. والعربية هي التي في لساني ولسانك، هي عربيتنا نحن الذين يعيشون علىٰ الأرض، وليست عربية الذين ماتوا؛ لأنّ من مات لا يمتلك، وقد كانت ملكًا لهم، ثم صارت إرثًا لنا نحن. قلت: البلاغة علم تأسّس كل شيء فيه علىٰ طرائق هذا اللسان، وتأمّلْ كل سطر تقرأه في أي كتاب من كتب البلاغة التي كُتبت في زمن الجاحظ إلىٰ يومنا هذا، لن تجد في أيّ سطر من سطورها خروجًا عن شرح وتحليل سَنن الكلام العربي ... كلُّ قاعدة، وكلُّ سطر في البلاغة شرحٌ لطبيعة هذا اللسان ومذاهبه ومسالكه وقدراته وطاقاته في الإبانة. وما دمنا نحرص علىٰ لغتنا التي هي ذات نفوسنا فلا يجوز لنا إلا الحرص علىٰ هذه العلوم التي تتناول طرائق هذه اللغة وتحوطها من الاختلال والفساد، وإنما نتخلّىٰ عن هذه العلوم يوم نتخلّىٰ عن هذه اللغة، وهذا الذي لا أشك فيه هو الذي يجعلني شديد الحرص علىٰ نقاءِ هذه العلوم، والرفضِ القاطع لأقلّ صور الخلط والاقتباس من كلام الغرباء عنها، وعن آدابها، وطرائقها، والذين لا يضمرون لها ولأصحابها إلا كل زِراية»[1].

وشخّص الأستاذُ حالَ كثير من النقاد في مواضع كثيرة من مقدّماته، وعاب عليهم تبعيتهم لأصول النقد الغربي ومنظّريه، مع الغفلة عن تراث أمتهم وحضارتها، التي يراد أنْ يبعدوا عنها[2]، وهو ما أدركه بعضهم وصرّحوا به كزكي نجيب محمود وصلاح عبدالصبور.

«واقرأ مقدّمة كتاب "تجديد الفكر العربي" للدكتور زكي نجيب محمود تراه يحدّثك أنه هو وجيله من الآلاف المؤلَّفة من أبناء العرب المسلمين لم يعرفوا غير

---

(١) خصائص التراكيب ج.

(٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم ١٩، وشرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٥.

تراث العجم قديمِه وحديثِه، درَسوه في مدارسنا وفي جامعاتنا وفي مراحل التخصص، وحين صاروا أساتذة يخرّجون الآلاف المؤلّفة، ويمنحون الدرجات العلمية المختلفة، وهم في غيبة تامّة عن علومنا وتاريخنا وأدبنا، حتىٰ كأنهم كانوا يَحسَبون أنهم من أمة لا تعرف العلم. ثم كان بأخرة أنْ هُدي الدكتور زكي إلىٰ تراث المسلمين فأدرك أنه أمام حقائق من المعرفة لها اعتبارها، ولو استقبلها أول أمره لكان له موقف آخر»(١).

وينقل في السياق ذاته مقالة لصلاح عبدالصبور تحمل المعنىٰ نفسه، يقول فيها: «نحن ننمو عقليًّا وذوقيًّا في هذا الزمن الحديث وقد وقر في أذهاننا ألّا خلاص لنا إلا بإدراك ما عليه القوم من علم وفن وذوق. ورغم أنني حين انتظمت طالبًا في الجامعة منذ ثلاثة وثلاثين عامًا كنت طالب لغة العرب وآدابهم إلا أنّ الأسماء التي كانت تقرع آذاننا كل صباح ـ أو معظمها ـ كانت أسماء أجانب ... وأذكر في ذلك الوقت أنّ كل من كتب حرفًا في النقد أو التذوق كان يحرص علىٰ أنْ يحلِّيه باقتباس بعض خطرات هؤلاء الفرنجة، حتىٰ إنني أقرأ الآن كتبًا لنقاد جهيرين من نقاد ذلك الزمن، فأجدهم يقتبسون اسم هذا الكاتب أو ذاك في نسق خاطئ، وبابتسار مخلٍّ شديد الإخلال!»(٢).

ولذا أطلق تحذيره: «يجب أنْ نذكُر ونحن في قاعة الدرس أنّ هؤلاء الذين نخاطبهم سيقفون يومًا ما وحدَهم علىٰ أرضنا، في مواجهة أشدّ خلق الله عداوة لهم ولأرضهم وتاريخهم ودينهم وعلومهم وحضارتهم؛ فإذا دمّرنا ثقتهم في تاريخهم وحضارتهم وعلومهم؛ فأيُّ شيء بقي في هذه النفوس؟!»(٣).

(١) الإعجاز البلاغي ٢٥.
(٢) الإعجاز البلاغي ٢٧.
(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٧.

ويرىٰ أستاذنا الكريم أنّ دراسة النص في أدب العربية في هذا الزمن تقلّبت علىٰ ضروب من المناهج، لكنها لا تخرج عن التبعية المبطلة للعقل، وعن التقليد الـمُزْري، مع خلوّها من مناهجنا الأصلية، ((ورأيت بعض نقادنا الذين يذكرهم الناس وتذكرهم حياتنا الأدبية، يتواثبون علىٰ هذه المناهج في خِفّة وبهلوانية، وشغف بالتقليد، فيكتب في الشعر تحليلًا علىٰ منهج قد شاع زمن كتابته، ثم ما يلبث بسرعة أنْ يَثِبَ علىٰ منهج جديد يخالف المنهج الأول، وقد يتسع الخلاف حتىٰ يكون بمثابة النقيض للمنهج الأول، ويطوّر صاحبنا نفسه بسرعة، ويصطنع المنهج الجديد، وهو في كل مرة يوهم أنه مؤصّل لهذا وذاك، أو مشارك في التأصيل، وأنه ليس من المعقول ـ كما يقول ـ أن ننظر في تحليل الشعر إلىٰ الجاحظ أو ابن سلام أو عبدالقاهر أو فلان أو فلان، حتىٰ يصل إلىٰ العقاد وطه حسين، ثم يقول: كيف نتابع هؤلاء وبين أيدينا منجزات فلان وفلان وفلان؟ ويذكر فرعًا من اليهود أو النصارىٰ الموالين لليهود. وأنا أتأمل في هذا النص وما يشبهه، وأتأمل في فعل هذا النص وما يشبهه، وفي نفوس الأجيال التي تأخذه بشغف مشوب بحب المعرفة، وطموح النفس، وغضارة السنّ، وخلو الوفاض عن مثل هذا الذي يهدم بصراحة في نفوسهم كلَّ علماء العربية، ويغسل قلوبهم من أسمائهم، ثم يغرس مكان هؤلاء أسماء يهود، أو أشياع يهود، ثم أتابع فأجد ذكْرَ مثلِه يُطيّره إخوانٌ له في كل قُطْر من أقطار العرب في مشرقه ومغربه))[1].

ويحذِّر أشدّ التحذير من التقليد الذي تخذ صورة خادعة تغري الجيل وشبابه بالرضا بالدّونيّة، والقبول بالخساسة، في صخبٍ ووهجٍ تصنعه عصابة الشطّار الذين يحثّون الناس علىٰ اتباع أحدث المذاهب. وهي دعوة ((قد تصدمك لأنّ الترويج لها

---

(١) قراءة في الأدب القديم ٣.

بلغ المدىٰ، والمطلوب أنْ تراجعها بدقّة، وأن تجعل عقلك عيارًا عليها، وستجد تحتها دعوة عامّة لأن نضع جميعًا أعناقَنا في رِبقة التقليد؛ أعني الحبل الذي تُربط به الدوابّ، والذي يكون طرفه الآخر في يد أصحاب هذه المذاهب، وهم اليهود والنصارىٰ، الذين يقولون في كل يوم: إنّ المسلمين همج هامج، وإنهم يتبعون دينًا كاذبًا وفاسدًا!»[(١)].

ويرىٰ أنّ تلك الدعوات وأمثالها حين تنطلق من قاعات الدرس يكون ذلك هو البلاء، ويصفه بأنه "هولٌ له ظُلَم" علىٰ حدّ وصف لقيط الإياديّ؛ لأنه صار يرىٰ الكتب التي توضع في أيدي الطلاب، وما كُتب فيها عن علومنا وأعيان علمائنا ـ وهي أشلاء ومُزَعٌ ـ يُربّىٰ عليها الصغير، ويشبّ ويهرم عليها الكبير، «وقد كان علماؤنا يرفضون أنْ يقلِّد بعضُهم بعضًا، ويرون التقليد ذلًّا وضعفًا ومهانة، ويحذّرون من خطره علىٰ العقل؛ فكيف لو رأوا ما نحن فيه ونحن لا نقلّد علماءنا ولا تدرَّس علومُنا، وإنما نُدخل عقولَنا وعقول أجيالنا في ربقة التقليد الأعمىٰ، ليس بعلم مكتمل بين أيدينا، وإنما بعلم هو شِلْوٌ من هنا وشِلْوٌ من هناك، لا يلتئم ولا يتناسق كما قال مالك بن نبي ﷺ، وصار هذا تيّارًا غالبًا، وصرنا نركض حوله كغوغاء الجراد التي يركب بعضها بعضًا، ونقول إنه التحديث والتجديد، ونفسد بهذا معنىٰ هاتين الكلمتين النبيلتين»[(٢)].

ولهذا يعيب ويذكر بالأسىٰ ما عمّ وشاع من تغييب العلوم العربية والإسلامية الأصيلة، وتغييب ذكر أعلامها ورجالها، مع وضع مقتبسات كالأشلاء من فكر الآخرين بديلًا لها، وتقديم أعلامهم ورجالهم. ويشهد ـ وهو صدوق ـ أنه رأىٰ رأي عين «أصحابَ هذه المذاهب يسدُّون كلَّ المنافذ أمام الجيل إلا منفذًا واحدًا يؤدّي به

---

(١) خصائص التراكيب ث.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٧.

إلىٰ طريقهم الذي يريدون؛ فإمّا أن تسلكَ طريقهم أو تموتَ، ولا يزال هذا ديدَنَهم؛ يلتفّون حول كاذب ربيعة، ويحاربون صادقَ مُضَر!»[١].

واستمعْ إليه يتساءل بحرقة وألم من واقع مرير: «هل ترىٰ من الصواب أنْ نجْتثَّ من المناهج أصولَ أدب العربية، ونغمسَ ألسنتنا وألسنةَ أجيالنا في رجيع أدب النصرانية، ونقول: "هذا هو التحديث"؟ هل تراني بهذا أجرّ عقارب الساعة إلىٰ الوراء كما يقول الفارغون والدجّالون؟ وأيّ وراء؟! هل الوراء أن يكون حاضرُنا امتدادًا أكثرَ ازدهارًا لماضينا الفَعْم؟ هل الوراء أنْ نسقيَ أجيالَنا من تلك الموارد التي استقىٰ منها مَن أسَّسوا لنا في العالمين عزًّا، وصنعوا لنا غلبة ومجدًا، ورفعوا لواءنا علىٰ ربوع الأرض؟ أم أنّ الوراء هو أنْ نربّي الأجيال علىٰ التبعية المهينة، ونسقيَهم من رجيع نصرانية فاسدة، ونعظِّمَ في صدورهم صباح مساء عدوَّهم الألدَّ الذي يضرب أنوفَنا في كلّ ساعة؟!»[٢].

وهذا لا يعارض اعتقاده أنّ إغلاق الأبواب في وجه أيّ جهد إنسانيّ من غير أمّة المسلمين ضدُّ طبائع العقول؛ لأنّ الحكمة ضالة المؤمن[٣]. بل إنه ذكر لي بأنه من أجل أنْ يكون ذا رؤية ومعرفة واطلاع قرأ كتاب "الشعر" لأرسطو عدّة مرات، وأنه لم يكتف بذلك بل لخّصه سطرًا سطرًا، وأنه بعد هذا يرىٰ أنّ المنصف حين يوازن بين كتاب أرسطو وكتاب قدامة "نقد الشعر" فسيرجح عنده كتاب قدامة.

ويكشف بصراحة ووضوح عن موقفه من ذلك بقوله: «واحذر أنْ تظنّ أني أقول بمقاطعة الفكر الإنسانيّ، وأن ترمي بهذه التهمة التي يتسارع إليها المدلِّسون؛ لأنّ هذا لا يقول به من له قلب حيٌّ وعقل رشيد، وإنما أتحدّث عن الذي تدور عليه

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٨.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٥.

(٣) ينظر: خصائص التراكيب ٢٠.

رحىٰ البحث والدرس والكتاب والمقالة، وما يجب أن يكون شاغلَ عقول أهل العلم أساتذة وطلابًا، وما يجب أن يكون شاغل كل من يحمل القلم. وعليه بعد أن يكون هذا شاغلَه (يعني الاشتغال بتراث الأمة) أنْ يفتحَ كل النوافذ، وأنْ يتعرّف علىٰ ما يقوله الناس لا ليقول ما يقولون، وإنما فقط ليعرف ما يقولون وكيف يفكّرون؛ فإذا فكّر كما يفكّرون، وقال كما يقولون يكون قد سقط في حمأة التبعية والذل، ولا يجوز له أنْ يفرض علينا وعلىٰ أجيالنا ذُلَّه وسقوطَه!»[1].

وقد لخّص في مواضع من مقدّماته موقفه من الحضارة المعاصرة، ومن تراث أمته، فهو يرىٰ أنّ الدراسة المثمرة لتراث العلماء لا تقف عند فهمه ومناقشته فقط، بل تتجاوز ذلك إلىٰ فقهه وتمثّله، وإدارته في العقل والقلب[2]؛ إذْ «العلاقة بين الباحث وما يدرسه من تراث العلماء علاقة حية منتفضة تبعث في التراث الحياةَ والفَوَرَانَ، كما تبعث في الدارس الأصالةَ والتمكُّنَ»[3]، ويرىٰ أنّ «الحاضر يستمدّ وحيه وأصالته من الماضي، والماضي يستمدّ نبضه وحركته من الحاضر»[4].

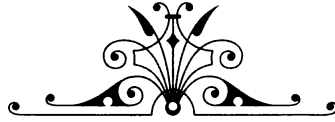


(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٥.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب ٢٧.

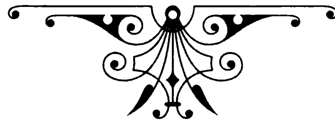
(٣) دلالات التراكيب ٢٨.

(٤) التصوير البياني ٢٢.



الفرائد القرآنية

- الدراسات القرآنية
- الإعجاز البلاغيّ



الفرائد القرآنـيّة

لم يكن هذا البحث ـ بطبيعته ـ معنيًّا بالنظر في دراسات أستاذنا المتخصّصة في البلاغة القرآنية، وما أتحف به طلاب العلم من مؤلّفات تنعم النظر في آيات الكتاب العزيز، وتسعىٰ لاستنباط دلالاتها ومعانيها وأسرارها البلاغية؛ فهذه الدراسات لا يمكن أن يفيَها بحثٌ كهذا حقَّها من النظر. لكنه معنيٌّ بالأصول العامّة المتعلّقة بهذا المجال الشريف، مما يجده القارئ مبثوثًا في صفحات مقدّمات كتبه، أو سمِعه الباحث منه شفاهًا في درس أو مناقشة أو مُدارسَة.

الدراسات القرآنية

من حسنات الدكتور محمد أبو موسىٰ ـ حفظه الله ـ أنّ دراسته للإعجاز القرآني كثيرةُ الاستحضار لأصل القضية، وهو القرآن، وهذا يعني أنه نظر إلىٰ الإعجاز القرآني من مستويين مختلفين، بينهما عموم وخصوص؛ فالعموم يتجلّىٰ في دعواته المتتابعة إلىٰ الاهتمام بالقرآن الكريم، بوصفه كتاب رسالة، ومنهج حياة، وتشريع دين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو شديد الارتباط بهذا الأصل العظيم، الذي لا بدّ أن يستحضره الدارس للقرآن الكريم؛ وأمّا الخصوص فيتجلّىٰ في دراسة الإعجاز القرآني والبحث في ماهيته وسببه، وهو أحد مجالات دراسة الكتاب الكريم، وهذا المجال هو الذي اتجهت إليه جهود الكثير من البلاغيين في القديم والحديث.

وكان لابدّ ابتداء من الكشف عن تلك التوجيهات الصادقة التي بثّها في مقدّماته، مرشدًا إلىٰ أصحّ الطرق وأقومها، وأنفع المناهج وأسدّها في دراسة كتاب الله ﷻ.

وقد وقفت كثيرًا عند موضع أراد فيه أنْ يرشد الأجيال ويوصيهم وصية المشفق الناصح، فقال: ((نرجو أنْ يعود سلطان المصحف، وأنْ يصوغ الأمّة صياغة الحق، وأن يأخذ بيدها في لطف ورفق وعزة واستعلاء. قدْرٌ أكبر من هذه العودة تحملون أنتم أوزاره وأثقاله؛ فبكم تنهض أمّتكم من كبوتها، وتُقال من عثرتها؛ فأنتم شبابها، وأنتم فيض الفتوّة فيها، وأنتم في ضميرها صيحة الحق، وفي قلبها دفقة الشباب، وفي رأسها فورة العقل، وفي كيانها وهج اليقين، وفي سواعدها صلابة القوة. قدرٌ كبير من هذه العودة تحملون أنتم أوزاره؛ فأعدّوا أنفسكم بعتاد هذا الزمان، وهو الثقافة الواسعة، والعلم الصبور، والمعرفة الصادقة، وفي كلتا يديكم هذا المصحف يرسم الطريق، ويحدّد الغاية، ويقود المسيرة في حكمة راشدة تصغي إليها ضمائركم، وتخشع له هاماتكم، وتركع في ساحته المتسامية قلوبكم، فتصيرون به فرسانًا رهبانًا، كما كان أسلافكم. قدرٌ كبير من هذه العودة تحملون أنتم أوزاره، عليكم أنْ تعمروا كيان أمتكم بالروح الطاهرة لهذا المصحف الشريف، وأنْ تصوغوا قلبها ويقينها علىٰ طريقته. ولن نستطيع أنْ نفعل شيئًا من هذا إلا إذا رنّت كلمات هذا المصحف في قلوبنا، وانسابت أخلاقه وآدابه في ضمائرنا وأرواحنا، فاستجابت طائعة. وإنما يكون هذا بفقه لغته وأسلوبه، وتسمّع همساته، ولمح إشارات كلماته، وامتلاء القلب بأصواته، فتدمدم فيه دمدمة الحق، فتختلج اختلاجة اليقين، وهذه هي الخطوة الأولىٰ في فهم القرآن كما قال سلف هذه الأمة، ومنها نبدأ مسيرتنا))[1].

(١) من أسرار التعبير القرآني ٣٦.

أرأيتَ كيف يؤسّس دراسة لغة القرآن وإعجازه وبلاغته وأسراره علىٰ هذا الهدف الجليل؟! وكيف يجعل الطريق إلىٰ فهم القرآن وكشف أستاره مارًّا بالإيمان بعظمته ودوره في الحياة؟! هو إذن لا يدعو إلىٰ دراسة القرآن أو دراسة إعجازه دراسة مجردة جوفاء، بل يجعلها سلّمًا إلىٰ غاية أعظم، ورسالة أسمىٰ، لقد أراد من هذه الدراسة أن تستلهم من القرآن حكمه وأحكامه، وأدبه وآدابه، ليكون منارة في قلوبنا لا تخبو.

ونظر في عمل السلف في دراسة القرآن فوجد أنهم لم يقفوا «عند كلام يحلّلونه ويستخرجون منه كما وقفوا عند كلام الله سبحانه، وقد استخرجوا من أنفسهم أدقَّ الوسائل وأعمقَها وأحكمَها في هذا الباب»[(١)]. ثم أحدَّ النظر ليجد من وراء هذا التدقيق أمرًا جليل الخطر، وهو أنهم يتبوّؤن منصب التوقيع عن ربّ الأرض والسماوات كما يقول ابن قيم الجوزية ﷺ[(٢)]، ولا والله لا يستوي من يبتغي الوصول إلىٰ مراد الله، ومن يبتغي الوصول إلىٰ مراد غيره من البشر!

ولذا بذل هؤلاء العلماءُ الأفذاذُ الجهدَ الجاهدَ في دراسته؛ «لأن ما فيه هو دين الله وحلاله وحرامه، وبيانه وتجليته تكليف لا مفرّ من إحكامه، والالتزام به، والتقصيرُ في هذا مَهْلَكةٌ لا يدفعها دافع. وهذا الاعتقاد في دراسة القرآن وما يتصل به هو الذي شكّل المنهج، وبذل العلماء أقصىٰ ما عندهم من فكر وتدبّر، وتدقيق وسلامة منهج؛ لمعرفة مراد الله سبحانه ـ وهو أعلم بمراده ـ والتسامحُ والتساهلُ في شيء من هذا يُفضي إلىٰ أن يُستخرج من كلام الله ما ليس فيه، وهذا كذبٌ علىٰ الله، وإضافةٌ لدين الله

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥.

(٢) ينظر: إعلام الموقعين ١/ ٩.

ما ليس منه، أو يُفضي إلىٰ أن نترك من معاني كلام الله ما يدلّ عليه، وهذا ضياعٌ لجزء من التكاليف، ونقصٌ في دين الله، وهذان ـ أعني: الكذبَ علىٰ الله وإضافةَ ما ليس من دينه، أو إهدارَ جزء من تكاليف الدين ـ لا يقع فيهما مَن صار من أهل القِبلة، فضلًا عن العلماء العاملين والأئمة المهديين رضوان الله عليهم»[(١)].

ويؤكّد علىٰ ضرورة الحذر في الدراسة القرآنية وتحليل الآيات، واستحضار أهمية الوعي بسياق السورة؛ لأنه لا يمكن إدراك أسرار التراكيب وتصاريف المعاني إلا بوعي بالسياق يطمئنّ إليه الدارس، ويصف ذلك بأنه أمر صعب جدًّا، ويقول: «أقطع بأنّ من أدرك سياق السورة علىٰ الوجه الحقيقي لم يبق عنده شيء غيرُ مفهوم في السورة؛ لأنّ كل ما في السورة هو ثمرة هذا السياق، وكأنّ السياق هو صانع وصائغ بيان السورة».

ويتنبَّه ويُنبِّه إلىٰ أنّ «الفقهاء من أكثر علمائنا احتياطًا في هذا الباب، وكانت لهم ملاحظات واعتبارات غاية في الدقة»[(٢)]؛ لأنّ «الفقه علم الاستنباط من النص، وهذا الاستنباط ذروة التفسير والتحليل»[(٣)]. ولذا فهو يوصي بأنْ يدرسَ طلابُ اللغة العربية في الجامعات الفقهَ؛ لأنه خير معين علىٰ دقة الاستنباط، وفهم دلالات التراكيب والألفاظ.

وتأسيسًا علىٰ ذلك كله يضع قاعدته الجليلة: «أصحّ المناهج وأسدّها ما كان من علومنا قريبًا من مركز الدائرة، الذي كان عقل الأمة يتحرك في محيطه، وهو القرآن وما يتصل به من علوم شرعية ولُغوية وغيرها»[(٤)].



---

(١) من أسرار التعبير القرآني ٣، وينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥.

(٣) قراءة في الأدب القديم ١٢.

(٤) من أسرار التعبير القرآني ٤.

الإعجاز البلاغيّ

بهذه الرؤية الواعية بعظيم العمل ينطلق الدكتور أبو موسىٰ في دراسته للإعجاز القرآني، أو للبلاغة القرآنية، وفي توجيهه للدارسين، وهو بتلك التوجيهات والأسس والأصول يحدّد الأرض التي يتّكئ عليها الباحث في الإعجاز القرآني، وكأنه يطلب منه أن يثبت قدميه في الأرض قبل أن يتطاول في سماء البحث في الإعجاز القرآني.

وابتداء بالمسلّمات أنقل حقيقة راسخة أشار إليها الدكتور أبو موسىٰ بقوله: إنه قد أجمع أهل العلم بالبيان والشعر أنّ عجز الجيل الذي نزل القرآن عليهم «حجةٌ علىٰ عجز من يأتي بعدهم من العرب وغير العرب، إلىٰ أنْ يُنفخ في الصور ... ثم إنّ الله جلّت حكمته وهو العليم الخبير بأحوال خلقه أخبر بأنّ عجز الذين خوطبوا بالقرآن يوجب علينا العلمَ بأنه كلام الله الذي لا يستطيعه البشر في أيّ زمان ولا في أي مكان»(١).

ثم نجده يكشف عن خطر قضية الإعجاز، ويوضّح أبعادها الممتدة بقوله: «وقضية الإعجاز قضية ذات علائق متشابكة في مجالات متنوعة، وتنغلّ جذورها في مطارح بعيدة في الحياة الفكرية والاجتماعية والدينية والسياسية، والكشف عن دقائق هذا محتاج إلىٰ تحليل كامل لكل هذه البِنْيات»(٢).

بعد هذا يلمّ إلمامة سريعة بتاريخ دراسة هذه القضية في تراثنا، مبيِّنًا أنّ جهود العلماء في هذا المجال بدأت في القرن الثالث الهجري، وقد اتجهت وجهتين:

فأمّا الأولىٰ: فوجهة «تبحث عناصر البلاغة المشتركة بين القرآن وكلام الناس من شعر وخطب ووصايا وغير ذلك، ثم تدلّ علىٰ أنّ هذه العناصر في القرآن بلغت

---

(١) الشعر الجاهلي ٦.

(٢) الإعجاز البلاغي ٢٩.

من الدقة والسموّ والغزارة والإصابة مبلغًا يفوت الكلامَ كلَّه، ويقطع أطماع أصحابه، ويقهر قواهم، ويقضي عليهم بالعجز الشامل المطبق الذي تستوي فيه الأقدام، فإذا كانت البلاغة في الشعر والأدب تدور حول التشبيهات والمجازات والأمثال والكنايات وفنون النظم، فإنّ هذه الفنون نفسها هي التي بُني عليها القرآن؛ لأنها أصول بلاغة اللسان، ولكنها في القرآن شيء، وفي الشعر والأدب شيء آخر. فإذا جمعت ما دبَّجته ألسنة الشعراء من فائق التشبيهات، وراقك ذلك، وحسُن عندك، وكثُر بين يديك، ثم وضعت بإزائه واحدًا من تشبيهات القرآن، رأيت البلاغة العالية في الأدب والشعر منطفئًا ضياؤها، وكأنّ شرط بهائها ألا توضع بإزاء القرآن. وهذا هو الوجه الشائع والمشهور في كتب البلاغة والتفسير»[1].

وخير كلام يمكن أنْ يُنظر فيه لتُعلَم فضيلة القرآن وإعجازه هو الشعر الجاهليّ، ويؤكّد علىٰ ضرورة العناية به، ودراسته، وتحليله؛ لأنّ في ذلك تمرّسًا علىٰ صورة من أرقىٰ صور الأسلوب العربي، وفيه عون علىٰ دراسة القرآن دراسة مفيدة، ويقول عنه: «الشعر الجاهلي عتبة القرآن، وقد كان ابنُ عباس ـ حَبرُ الأمة، وترجمانُها ـ أعلمَ الناس بالقرآن، وأعلمَ الناس بالشعر الجاهليّ». وكان كثيرًا ما ينقل دراسته للشعر إلىٰ دراسته للقرآن؛ لأنّ أصول الكلام واحدة، وأسس الإجادة ـ في أصلها ـ مشتركة.

وأمّا الثانية: فتلك التي أسماها الخطّابيُّ "البلاغةَ الخاصَّةَ بالقرآن"، ورآها الرافعيّ أهمّ أصول دراسة الإعجاز؛ إذْ لا يجوز عنده أنْ يكون الإعجاز من جهة يشترك فيها كلام الله مع كلام الناس، وكان لكل منهما مسلكه في بيان ذلك[2]. فهي إذن وِجهة «تبحث وجوه البلاغة التي توجد في القرآن ولا توجد في كلام الناس،

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٠.

(٢) ينظر: الإعجاز البلاغي ٧.

وهي البلاغة التي يصح أن نسميها البلاغة القرآنية، وتكون التسمية تسمية حقيقية لا تجوُّز فيها. وهذه البلاغة قليلة نادرة لا تستطيع أنْ تجد في تراث علمائنا منها صفحة واحدة صريحة، وإنما هو في كلام كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء كما يقول عبدالقاهر. وكان طريقُهم في استخراج نتف البلاغة الخاصة بالقرآن ـ والتي توجد فيه ولا يوجد منها شيء في كلام البشر ألبتة ـ هو تحليلَ الكلام الصادر عن الإنسان، واستخراجَ الأصل العام الذي هو وصف لازم له لا ينفكُّ عنه أبدًا، حتىٰ كأنه جزء من ماهية هذا الكلام.

وقد وقعوا علىٰ هذا الأصل وحُدوده، وهو باختصار شديد كينونة النفس الإنسانية في كل ما يصدر عنها من بيان، سواء أكان شعرًا أو نثرًا أو كلامًا مبيْنًا يتناقله الناس في شؤون حياتهم، ترىٰ الإنسان وراء كل ما يدور به لسانه، تراه في كل ديوان، وفي كل قصيدة، وفي كل بيت من الشعر، وكل سطر من النثر، ولما استحكم عندهم هذا واستيقنوه عادوا إلىٰ القرآن ينظرون فيه فلم يجدوا فيه أثرًا لهذا الأصل، الذي هو كالجزء من ماهية بلاغة الإنسان، وجدوا كلامًا يخلو خلوًّا قاطعًا من هذا النفَس الإنساني، فكان هذا وجهًا ظاهرًا»[1].

وهو يشير إلىٰ أنه وجد أبا بكر الباقلاني وهو يدرس الإعجاز يبحث في كلام الله عن الله، من حيث إنه جعل كلامه سبحانه دليلًا عليه، وبرهانًا لنبيه، وحجة بالغة علىٰ خلقه. ويعقّب علىٰ هذا بقوله: إنك إذا نظرت في كلام الله فلن تجد وراءه شيئًا من أحوال النفس البشرية؛ لأنّ كل كلام صدر عن نفس بشرية يحمل لا محالة خصائصَها، وأمّا كلام الله فإنك تجد وراءه «قوة فوق كل القوىٰ، وقدرة فوق كل القدر، وعلمًا فوق كل علم، وإتقانًا

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣١.

فوق كل إتقان، وبيانًا فوق كل بيان، يعني تجد في الكلام كمالًا مطلقًا، ولا يمكن أن تجد توقيعة واحدة من توقيعات هذا الكمال المطلق في كلام واحد من الناس»[(١)].

وهذا الوجه الذي ينظر إلىٰ الإعجاز بعيدًا عن علم البلاغة هو باب علم مسكوت عنه، ومما صرف عنه غلبةُ طريق عبدالقاهر وجمهور البلاغيين، المؤسَّسة «علىٰ أنّ فنون البلاغة هي التي عليها المعوَّل في معرفة فضل كلام علىٰ كلام، فإذا كان التشبيه مثلًا بابًا من أبواب البراعة، ويظهر فيه التفاضل، فإنه في القرآن قاطع للأطماع، وقاهر للقوىٰ والقدر، وقولُ الرافعي في آخر النص الذي ذكرناه: "وإنْ كانت هي بعدُ في أكثر الكلام إلىٰ تفاوت واختلاف" فيه حقيقة هذه الفنون التي لا تخفىٰ علىٰ أحد، وهو أنها تختلف وتتفاوت، والذي عليه الجمهور هو أنّ هذا الاختلاف والتفاوت إذا بلغ حدًّا لا يُدرك فذلك هو الإعجاز»[(٢)].

ويكشف الدكتور محمد أبو موسىٰ عن جانب آخر من جوانب الإعجاز، حين يبيّن أنّ البلاغة القرآنية تتعلّق بأحوال التراكيب وكيفيات الكلمات ودلالاتها الظاهرة والباطنة، ومدىٰ تنْزيلها علىٰ الملابسات والمقامات؛ لأن هذه الأحوال والكيفيات والدلالات أوعية دقيقة تحمل خالص الإحساس وخفيّ الخواطر ودقيق المشاعر. وهذا هو السبب في أنّ غير القرآن من كتب الله سبحانه لم تكن معجزة بصياغتها لأنّ الألسنة التي نزلت بها لا تتوفر فيها تلك الطاقات التعبيرية التي تفوق قدرات البشر. ويجعل ذلك كما أنه متعلَّق الإعجاز البلاغي، فهو مناط الجودة في الشعر والأدب[(٣)].



---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢٨.

(٢) الإعجاز البلاغي ٧.

(٣) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٢.

وفي دراسته لسورة الأحزاب يضع لنا في مقدّمة الكتاب وجوهًا من بلاغة القرآن لم توفَ حقها من الدراسة، ويدعو إلىٰ مزيد من الجهود في النظر فيها. ويقدّم لنا أربعة وجوه، هي:

١ – علاقة كل سورة بالسورة التي قبلها والسورة التي بعدها، وهذا الباب «اتسع علمه وتَغَازَرَ، وقلّ كلام الناس فيه، وهو من أبواب البلاغة العالية التي تَرُوع، من غير أنْ تكون داخلة تحت مصطلح من مصطلحات متون علم البلاغة؛ لأنها علاقات معانٍ تتفق وتختلف، وتتقارب وتتباعد، ولها في تقاربها وتباعدها درجات. كل ذلك بتدبير دقيق، واعتبارات وسياقات ومقامات، منها ظاهر وخفي»(١).

٢ – «علاقة المطالع بالمقاصد، وهو في كل سورة من سور القرآن يمثّل مذهبًا وطريقًا، وهو في حاجة إلىٰ أنْ يُكشَف ويُبيَّن كما يُبيّن الشيء ويُنصّ عليه، حتىٰ يظهر للقرّاء كفلق الصبح، وتظهر علاقة كل معنىٰ في السورة بمطلعها، وقد ترىٰ معاني السورة قد تمحورت في محاور، تتعدّد هذه المحاور، وقد تكون هذه المحاور منها ما هو أصلي، ومنها ما هو فرعي، تكاثرت معانيه وتضامّت وكوَّنته، وهو بمثابة تعريجة في خط سير المعنىٰ. والمطلوب أنْ يُدرَس هذا كله، وتُحلّل المعاني الداخلة في كل هذه الأبنية، وتُحدّد وتُشرح علاقات بعضها ببعض، ثم علاقاتها بالإشراقة المطلعية التي التمعت فيها خيوط تمثّل هذا كله ... المطلوب أنْ نتتبّع بلاغة السورة حتىٰ نتبيّن شكلها وملامحها وسيمها»(٢).

٣ – «حركة المعنىٰ داخل السورة، ومراقبة نموه وامتداده، وذهابه وارتداده، وهذا باب من أخفىٰ أبواب البلاغة وأغمضِها، ولا يُصغِّرْه عندك ما تراه من خوض

---

(١) من أسرار التعبير القرآني ٢٤.

(٢) من أسرار التعبير القرآني ٢٥.

العامة والخاصة فيه، وقولهم على البديهة، وإصابتهم أحيانًا؛ لأنّ هذا من تيسير الله لكلامه سبحانه، قرّب منه قدرًا من المعاني كأنه مشترك بين الناس، ثم بعد ذلك تأتي المراتب مَرتبة بعد مرتبة، حتى تكون هناك مرتبة في الفهم خاصة بالراسخين من أهل العلم، وهذا الجزء المضنون به على غير أهله هو ما يتجه إليه العمل والنظر وتتوخّاه البحوث، فإنْ أصابت وإلا قاربت، أو مهّدت الطريق لسالكٍ يصيب أو يقارب»[(١)].

٤- علاقة فواتح السور بخواتيمها، ويجعل هذا الوجه أصلَ الوجه السابق، الذي هو التعرف على حركة المعنى داخل السورة. وهذه العلاقة قد تُلتقط بسهولة، لكنّ «الشاق هو التعرّف الواعي على رحلة المعنى بين هذين الشاطئين المتشابهين، وكيف أبحر من شاطئ المطلع، وكيف تحرّك وتناقل، وما هي قصة سيره، وقصة حركته، وكيف انتهى إلى النقطة التي بدأ منها، وكأنه يطوف حول الأرض، ويقطع السير إلى الأمام وإلى الخلف في خطوة واحدة، يولّي وجهه نحو الشرق ليصل إلى نقطة في الغرب، يسعى إلى الأمام ليقترب من الوراء، إنه لا شكّ نسقٌ عجيب، امتدّ المعنى فيه وتفرّع، ثم جرى في أحد فروعه، ثم وقف وارتدّ إلى فرع كان قد تركه. ومهما دقّقت في الوصف لأضع بين يديك شيئًا من غوامضِ ومسالكِ ودقائقِ هذا الباب فلن أستطيع ذلك، وإنما تستطيعه أنت إذا قذفت بنفسك في مَعْمَعَانه، ووعيت تيّاره، وبدأت معه ترقبه في حركته، وتتأمّله بتركيز شديد، وقدرة على رصد المعاني، وبصيرة حية تدرك ظاهرها وباطنها، ومنحنياتها وتعاريجها»[(٢)].

ثم لا ينسى وهو يقدّم للقارئ هذه الوجوه للبلاغة القرآنية أنْ ينبّه إلى أنّ هذه الموضوعات «لا يصلح للخوض فيها المبتدئون من طلاب العلم، إلا أنْ يتميز أحدهم

---

(١) من أسرار التعبير القرآني ٢٦.

(٢) من أسرار التعبير القرآني ٢٦.

بمؤهلات خاصة فيدخل هذا الباب، لا ليستخرج منه علمًا، وإنما ليتدرّب علىٰ مادته وبلاغته، لعله يستطيع أنْ يكتب فيه يومًا))[1].



وشيخنا الماجد وقف وقفات خاصّة عند كلام الرافعي ﷺ في الإعجاز، وبيّن أهمّ ما فيه في مقدّمته للطبعة الثالثة من "الإعجاز البلاغي"، وحثّ علىٰ قراءته في مصدره؛ لأنه إنما نقل منه نبذة لا تغني[2].

ومما ذكره من وجوه الإعجاز عند الرافعي الإعجازُ الصوتي، وهو وجه أشار إليه العلماء قبل الرافعي[3]، وإعجازُ الأسلوب[4]، الذي يُراد به أنّ أسلوب الكلام يدلّك علىٰ صاحبه، ويهديك لا محالة إليه، ولا تجد في أسلوب القرآن تلك الطبائع البشرية المغروسة في كل كلام غيره[5].

ووقف وقفة أطول عند وجه أضافه الرافعيّ وهو الإعجازُ بصوت الحسّ، الذي تظهر فيه القدرة علىٰ الاستحواذ علىٰ نفس السامع والقارئ، وهو الذي يُستعان عليه بدقائق الصور، ولطائف المعاني، وضروب التلوينات والمجاذبات للنفس، وهذا قليل في الكلام، وفوق مستوىٰ الجودة، ولا يتّفق لجميع البلغاء[6].

---

(١) من أسرار التعبير القرآني ٢٧.

(٢) ينظر: الإعجاز البلاغي ٢١.

(٣) ينظر: الإعجاز البلاغي ١٤، وإعجاز القرآن ٢١٢.

(٤) ينظر: الإعجاز البلاغي ١٥، وإعجاز القرآن ١٨٨.

(٥) ينظر: الإعجاز البلاغي ١٧.

(٦) ينظر: الإعجاز البلاغي ١٩، وإعجاز القرآن ٢٢١.

وقد استجاد كلامه حين نفذ إلىٰ حقيقة خلاصتها «أنّ كل من نبغ في باب من أبواب المعرفة يدفعه نبوغه إلىٰ الاستشراف إلىٰ المثال الأعلىٰ في هذا الباب الذي نبغ فيه، وترىٰ عملَه يستحسنه الناسُ، وهو لا يستحسنه، وإنما يرىٰ فيه تقصيرًا؛ وذلك لأنه يقيسه علىٰ المثل الأعلىٰ الذي يستشرف إليه ولا يَبلغه»(١). ومن المعلوم أنّ العرب عصرَ البعثة كانوا بارعين في الفصاحة والبلاغة، مولَعين بالتفوق والصَّقْل والتجويد، متطلّعين إلىٰ الكمال البيانيّ، فلما نزل القرآن، وسمعوه، وجدوا فيه هذا الكمال المطلق الذي كانوا يستشرفونه ولا يطيقونه، فاستيقنوا أنه ليس من جنس كلامهم(٢).

وجَمْعُ القرآن كلَّ أولئك العرب علىٰ لغة واحدة ـ بما رأوه فيه من الكمال ـ دليلٌ علىٰ بلوغه حدّ الإعجاز، وعلىٰ تسليم العرب بأنه في الحدّ الأعلىٰ من طبيعة تركيب اللغة. ثم إنّه أمسك الألسنة العربية وأمسك اللسان الذي هو لغة القرآن، وامتدّ أثر هذه الآية اللسانية إلىٰ غير العرب؛ لكونه لم يكن كمالًا لغويًّا عربيًّا فحسب، بل هو كمال الفطرة المبيْنة في النفس الإنسانية؛ فصار القرآن لا يَشقّ علىٰ لسانِ مَن دخل في دين الله، وقراءته مُيسَّرة لكل من آمن، وبهذا صار القرآن بوّابة العربية الأوسع، وتيسّرت العربية لكل من تيسَّر له الذكر، وهذا باب من أبواب الإعجاز(٣).

ويتّصل بذلك أنّ أدب النفس الإنسانية بلغ حدّ الكمال الذي بلغته اللغة في القرآن؛ فآداب «القرآن الكريم هي آداب الفطرة الإنسانية، التي تتلاءم مع كل نفس إنسانية، في أيّ أرض، وفي أيّ عصر من عصور التاريخ، وفي أيّ طور من أطوار الحضارة»(٤).

---

(١) الإعجاز البلاغي ٨.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن ٧٩.

(٣) ينظر: الإعجاز البلاغي ٩، وإعجاز القرآن ٨٠.

(٤) الإعجاز البلاغي ١٣، وينظر: إعجاز القرآن ٧٨.

ويبني الرافعي علىٰ ذلك ما أسماه "الجنسية العربية في القرآن"، وهي تعني توسُّع المراد بالجنسية العربية، حيث كانت دلالتها قبل الإسلام قاصرةً علىٰ الدلالة علىٰ العرق العربي، فصار القرآن بعد نزوله هو أصلَ هذه الجنسية، والعرب يتشرّفون بنسبتهم إلىٰ العربية، التي هي لسان القرآن الكريم، وهو مما يُفهم من تنكير اللسان في قوله تعالىٰ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، ولو عرّفَ لكان منسوبًا إلىٰ لغة قوم العرب وعُصبتهم. وهذا يعني أنّ كل من دخل في دين الله، فقد تعرّب، وهو كافٍ في طيّ العصبيات القبليّة، والنّزاعات العرقية، وفي جمْع الأمّة تحت لواء واحد[١].

ومن معاني الإعجاز عند الرافعي التي وقف عندها الشيخ أنّ من أحسن تدبّر القرآن ينتهي به الأمر ولا ريب إلىٰ الإيمان بأنّ هذا الكتاب تنزيل من الرحمن الرحيم، لأنه إنْ لم يؤمن بذلك سيكون رادًّا للتاريخ ومنكرًا له، بناء علىٰ حقيقة أنّ اللغة صورة صادقة لحال أمّتها، وأحوال أهلها، وهذا يعني أنّ أحوال العرب وقت البعثة تنفي أنْ يكون القرآن صادرًا منهم[٢].



وبناءً علىٰ ذلك كله، وعلىٰ رأيه في أهمية نقل المعرفة من حقل علمي إلىٰ حقل علمي آخر[٣]، يلفت النظر إلىٰ قضية قد تغيب لدقتها، وهي أنّ عزل دراسة الإعجاز القرآني عن الدراسة الأدبية «عزل لا وجه له، ولا سبب له إلا انقطاع صلة الدرس الأدبي عندهم عن القرآن، وتبع ذلك الجهل بعلوم القرآن وبقضية الإعجاز؛ لأنّ الجهد مصروف إلىٰ المذاهب والمناهج التي صاغها غرباء»[٤].

---

(١) ينظر: الإعجاز البلاغي ١٠، وإعجاز القرآن ٨٢.

(٢) ينظر: الإعجاز البلاغي ١٢، وإعجاز القرآن ٧٤.

(٣) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٨، وخصائص التراكيب ش.

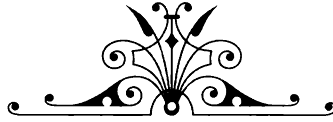
(٤) خصائص التراكيب ن.

ولا يفوته التحذير من أن يكون مثل هذا الربط مزلة للأقدام، فيحذر من أنّ النّزعة الأعجمية في فهم الأدب قد «اتجهت إلىٰ القرآن ولَغَت فيه كما لغت في الأدب، وشاع تسمية الآيات نصًّا، كما شاع الحديث عن "فنية" هذا النص، و"معارضه" و"لوحاته"، وشاع أيضًا النظر إلىٰ القرآن من حيث هو "نص أدبي"، أو "أنموذج فني"، وهذا هو تناول المستشرقين للقرآن. ولم نعرف في تاريخ الأمّة من سمىٰ كلام الله بغير ما سماه الله من سور وآيات، ولم نعرف أنّ أحدًا من العلماء تناول القرآن من حيث هو نص؛ لأنّ هذا مما يُستعاذ بالله منه، وإنما تناولوه في كل حال من حيث هو تنْزيل من الله العزيز العليم»[1].

وهكذا نرىٰ كيف عالج أستاذنا الكبير قضية الإعجاز القرآني؛ حيث جعل ذلك محاطًا بتوجيهات تلفت النظر إلىٰ أهمية كل دراسة ترتبط بالكتاب العزيز، مع ضرورة الإدراك الواعي لخطر أمثال هذه الدراسات ووجوب الحذر فيها. كما قدّم إلماحة عن منهج العلماء في دراسة هذه القضية، مبيّنًا بعض أوجه البلاغة القرآنية التي تستحق مزيدًا من العناية. وهو بهذا قد جمع بين التنظير والتطبيق الموجز في مقدّماته، فضلًا عن دراساته الموسعة في صلب كتبه لجهود العلماء في معالجة قضية الإعجاز، وفي تحليل آيات وسور من كتاب الله ﷻ.

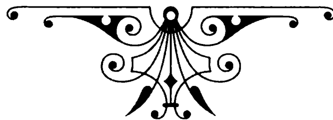


(١) التصوير البياني ١٩.



الفرائد البلاغية

- تأريخ البلاغة
- علوم البلاغة
- ميدان البلاغة
- من مجالات البحث البلاغيّ
- ردّ شُبُهات



الفرائد البلاغـيّة

وكما نبّهت في المبحث السابق أقول هنا: إنّ هذا البحث لا يسعىٰ ولم يكن من أهدافه أنْ يناقش آراء الأستاذ في المسائل البلاغية، أو في دراساته البلاغية؛ فهذا بحرٌ زاخر! وإنما مراد البحث أنْ يؤكِّد علىٰ بعض الأصول البلاغيّة التي تفرّد شيخنا بالإشارة إليها، أو تحديد القول فيها، مما بثَّه في مقدّمات كتبه وفي لقاءاته، وأحسب أنّ فيها خيرًا كثيرًا للباحثين.

تأريخ البلاغة

كان للدكتور أبو موسىٰ عناية بتأريخ البلاغة، ويمكن القول إنّ عنايته بقضاياها أخذت اتجاهين رئيسين:

الأول منهما كان تأكيدًا علىٰ علاقة علم البلاغة بسائر علوم اللغة العربية؛ فبينه وبين النحو وأصول اللغة والأدب نسبٌ وشيجٌ، فالبلاغة تمدّ يدها إلىٰ العلاقات النحوية واللغوية، وترمي بصرها وعقلها ليكشف ما وراء ذلك من أسرار، وتتلمّس ذلك في النصوص البليغة والأدبية. وهو أيضًا ذو علاقة وثيقة بعلوم الشريعة، إذْ نشأ في أحضان تلك العلوم وديارها، وبدأ خادمًا لها ومؤيِّدًا، حتىٰ بلغ أَشُدَّه واستوىٰ؛ وهذا مظهر قوة ورسوخ.

وأمّا الثاني فكان بيانًا لمصادر العلم البلاغيّ، التي ارتبطت البلاغة بها، وأضحىٰ كلّ دارس للبلاغة لا ينسىٰ فضلها، ولا يُغفِل ذكرها، فأماط الدكتور أبو موسىٰ اللثام عن جوانب قد تخفىٰ علىٰ بعض طلبة العلم، ولَفَتَ الأنظار إليها.

ولم يقتصر حديثه في قضايا تأريخ البلاغة علىٰ الحديث في هذين المسارين، بل إنّ له حديثًا في جوانب أخرىٰ ذات علاقة وثيقة بالتأريخ للبلاغة، كحديثه عن أهمية التأريخ للفنون البلاغية المختلفة، وغير ذلك من القضايا ذات الصلة[1]، مما ستأتي إشارات إليه في مواضع أخرىٰ من هذا البحث.

علاقة علم البلاغة بعلوم العربية وعلوم الشريعة:

لم يكن أستاذنا يقرّر ذلك بصورة مباشرة كما يشي به العنوان؛ لأنه كان ينظر إلىٰ علوم اللغة العربية بوصفها منظومة متكاملة، كما تمتدّ نظرته هذه لتربط ذلك بمجموعة علوم الشريعة؛ ليجعل من هاتين المجموعتين نسيجًا متضامًّا متكاملًا، ويجعل من التعامل معهما تعاملًا مترابطًا متكاتفًا. وقارئ مقدّمات كتبه لا يغيب عنه هذا الرأي؛ إذْ يجده يبثّه أو يبثّ أطرافًا منه في أثناء مواضع مختلفة متفرقة.

ففي مقدّمة الطبعة الثانية لأول كتبه "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري" تجده يفتتح الكلام بتقرير أنّ ((دراسةَ الكلام المختار وتحليلَه واستجلاءَ معانيه هي الغايةُ التي وراء كل فروع الدراسات اللغوية بمختلف مذاهبها))[2]؛ وهو بهذا يجعل للدراسات اللغوية غاية واحدة، مهما كانت طبيعة الدراسة أو منهجها أو سياقها؛ إذْ هي تتجه إلىٰ تجلية النصّ والكشف عنه. ويبدو أنّ مجيء هذه الحقيقة في هذا الموضع من مقدّمة ذلك الكتاب المهم لم تأت عبثًا؛ بل كانت مثل عنوان أراد الأستاذ الكبير أنْ يكون حاضرًا ظاهرًا، وهو يناقش قضايا علميةً لغويةً كثيرة.

---

(١) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٧-١٢.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥.

ويمضي إلىٰ أبعد من هذا وهو ينتقد الفصل بين أقسام اللغة العربية في الجامعات؛ «حيث ترىٰ قسم الأدب وقسم البلاغة وقسم النحو، وأنّ الطلاب من الفرقة الأولىٰ يوزّعون علىٰ هذه الأقسام، ويدهشك هذا النظام الذي يقطّع الجسم الواحد ـ الذي هو علوم العربية ـ أوصالًا أوصالًا»[1].

وتراه حين يتحدث عن تحليل النص وهو المجال الذي أهمه كثيرًا؛ لأنه يرىٰ أنّ ذلك هو «الغاية وراء كل فروع الدراسات اللغوية بمختلف مذاهبها»[2]، ولأنه يرىٰ أنّ تحليل النصوص هو الطريق إلىٰ تربية النفس الشاعرة بحلاوة اللسان وجلال الفن[3]، وأنّ ميدان «البلاغة الحقيقي، والمقصود من دراستها هو تحليل النصوص»[4]. أقول: حين تراه يتحدث عنه لا يجعله ذا علاقة خاصة بالبلاغة، وإنما كانت له نظرةٌ أبعدُ وسَعَةُ أفقٍ أشملُ.

حيث جعل النحوَ ـ الذي هو علم يعنىٰ في ظاهره بضبط أواخر الكلمات، أو بما يعرض للكلمات عند تركيبها[5] ـ تحليلَ نص؛ «لأنّ النظر في علاقات الكلمات وروابطها، ومعرفة مواقعها من الإعراب نظرٌ في بنية النص، وتحليلُ هذه البنية ... تدقيقٌ بالغ في تفسير النص»[6]. ويرىٰ أنّ معرفة هذه العلاقات بين الكلمات المكوّنة للنص «أمر ضروري، وأنّ الإعراب ليس لازمًا لفهم الشعر القديم فحسب، وإنما هو

(١) من أسرار التعبير القرآني ١٠.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥.

(٣) ينظر: خصائص التراكيب ٣٩.

(٤) خصائص التراكيب ف.

(٥) ينظر: مفتاح العلوم ٧٥.

(٦) قراءة في الأدب القديم ١٢.

لازم لفهم كل كلام مصقول، ابتداء من المعلقات وانتهاء بآخر كلام يدور به آخر لسان ناطق بهذه العربية الشريفة، وأنّ العلاقات النحوية إذا تاهت والتبست وغابت دخَلَ النصُّ كلُّه في سراديب الجهالة والغموض، وافتقد صفة الكلام الذي يفيد فائدة يحسن السكوت عليها»[1].

وهو في هذا يسير علىٰ خُطا شيخه عبدالقاهر الذي يقول في أوائل "الدلائل" رادًّا علىٰ الزاهدين في علم النحو المحتقرين له: «قد عُلِم أنَّ الألفاظ مغلقة علىٰ معانيها، حتىٰ يكون الإعرابُ هو الذي يفتحها، وأنَّ الأغراض كامنة فيها، حتىٰ يكون هو المستخرجَ لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصانُ كلام ورُجْحانُه حتىٰ يُعرضَ عليه، والمقياس الذي لا يُعرف صحيحٌ من سقيم حتىٰ يُرجعَ إليه، لا ينكر ذلك إلا من ينكر حِسَّه، وإلا من غالط في الحقائق نفسَه»[2].

وهذا يكشف عن علاقة حميمية بين البلاغة والنحو؛ فإذا «كانت مهمة النحو الأساسية المحافظةَ علىٰ سلامة الألفاظ من الناحية الإعرابية، فإنّ مهمته بالنسبة للبلاغة تتمثل فيما وراء ذلك من تنسيق الألفاظ ووضعها في الأسلوب علىٰ حسب تعلقها بالمعاني المقصودة»[3].

ثم يمضي الدكتور أبو موسىٰ في بيان علوم قد يخالها بعض الناس بعيدة الصلة عن تحليل النصوص؛ ليثبتَ النسب بينهما، ويؤكّدَ العلاقة[4]، فيلتفت إلىٰ علم من علوم الشريعة، وهو علم الفقه مؤكِّدًا علىٰ دور الفقهاء في هذا الميدان. فبعد حديثه

(١) قراءة في الأدب القديم ١٢.

(٢) دلائل الإعجاز ٢٨.

(٣) المدخل إلىٰ دراسة البلاغة ٤٥.

(٤) ينظر: قراءة في الأدب القديم ١٣.

عن النحو وجهود النحاة يقول: ((وكلُّ هذا ـ وأكثرُ منه وأوسعُ وأضبطُ ـ عند الفقهاء الذين يستنبطون مراد الحق من كلام الحق سبحانه، ومنهجهم في التفسير والتحليل والتحديد والاستنباط بلغ الغاية في الحذر والدقة والمرونة، ولهم ضوابط محكمة تصلح أن تكون أساسًا في علم تحليل النص. وقد كتب الأستاذ العلامة الشيخ محمود توفيق سعد كتابًا في منهج الفقهاء في تحليل النص وسبل الاستنباط[1] أَلَمّ فيه إلمامًا بصيرًا بأصول هذا المنهج، وهو يفيد دارس الشعر ويهديه في تذوقه وتحليله أكثر ألف مرة مما تفيده هذه الأعجميات الخرساء، والتي إذا دخلت علىٰ الشعر أَخْرَسَتْه))[2].

ويقول: ((وقد كان الفقهاء من أكثر علمائنا احتياطًا في هذا الباب، وكانت لهم ملاحظات واعتبارات غاية في الدقة، اقرأ كتاب "الرسالة" للشافعي، وتأمّلْ كيف كانت تنفذ فطنته في اختصار شديد إلىٰ المسافات الممتدة وراء المعاني الظاهرة، وكيف كان يلتقط رقائق تذهلك حين يكشف وجهها، ويضع اليد علىٰ العلاقة المتينة بين اللفظ وما استخرجه منه، وكيف كان يعتبر وسائل متعددة؛ منها ما يتصل بالسياق الخاص والسياق العام، ومنها ما يقوم علىٰ ثقافات ومعارف خارج التركيب اللغوي. وكلام الشافعي كله شاهد علىٰ منهج دقيق في تحليل النصوص، وطريقةِ حوار الكلام ومجاذبته))[3].

وعلىٰ وَفق هذه الرؤية المتسعة والممتدة يمضي ليقول: ((ولا أحدّثك عن التفسير وعلومه، والحديث وعلومه؛ لأنك تعلم أنّ مكتبة التفسير وحواشي المفسرين وأعلاقهم واستدراكاتهم، وكذلك مكتبة الحديث وحواشيه وأعلاقه، كل هذا سَبْرٌ

(١) هو كتاب "دلالة الألفاظ علىٰ المعاني عند الأصوليين".

(٢) قراءة في الأدب القديم ١٢.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥.

واعتصار وتحليل وتشريح وإضاءات لزوايا وخفايا وسراديب وظلال في البناء اللغوي، وهذا جوهر تحليل النص))[1].

والشيخ يؤكّد كثيرًا علىٰ أنّ المفسرين والفقهاء كانوا ((شيوخ لغة وشعر ورواية، وكان العلم باللغة والشعر أصلَ العلم كله في التفسير والفقه وأصول الدين، وقد قال الأصمعي: "قرأت شعر الشنفرىٰ علىٰ محمد بن إدريس"، وقال: "قرأت ديوان هذيل علىٰ شاب من شباب قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي"، وكان مالك بن أنس يقول: "لا أوتىٰ برجل يفسّر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالًا"، ويقول مجاهد: "لا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالِمًا بلغات العرب"، وهذا كلام يُدخل المسألة باب الحِلّ والحرمة، ويُحرّم علىٰ من لم يفهم اللغة والنحو أن يفسّر القرآن. ويقول ابن عباس: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم رجعوا إلىٰ ديوانهم فالتمسوا معرفة ذلك"))[2]. وقد كان ابن عباس ﵄ رائدًا في هذا المجال، حيث كان كثيرًا ما يفسّر القرآن مستحضرًا ما جاء في كلام العرب من شعر وغيره، ومما يُروىٰ عنه قوله: ((إذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشعر))[3].

هذه هي الدائرة الأوسع في الحديث في هذا السياق، وهي دائرة اتسعت لتشمل علوم العربية وعلوم الشريعة، لكنّ الحديث حين يختصّ بعلم البلاغة للكشف عن علاقته بهذه العلوم، يتضح للباحث أنها علاقة تظهر في حقول معرفية كثيرة، ((كحقل التفسير الذي أكّد علماؤه أنه لا يجوز الخوض فيه إلا باستصحاب علمَيْ المعاني

(١) قراءة في الأدب القديم ١٢.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٦.

(٣) مجالس ثعلب ١/ ٣١٧.

والبيان، وأنّ كل العلوم الأخرىٰ لا تغني غناءه إذا غاب، وكحقل الفقه واستنباط الأحكام الشرعية من كلام الله وكلام رسوله، واعتمادُ الفقهاء علىٰ هذا العلم أمر لا يجوز الاستشهاد له؛ لأنه أعرف وأشهر، وكحقل أصول الفقه الذي يعتمد هذا العلمَ في وضع ضوابط الاستنباط، وكحقل أصول الدين الذي ترجع خلافات علمائه فيما اختلفوا فيه إلىٰ هذه الأصول البلاغية ودلالات الصيغ والتراكيب»[1].

وهذا البيان منه يعدّ تأكيدًا لما ذهب إليه دهاقنة هذه العلوم والمبرّزون فيها؛ كابن قتيبة الذي دلّت أوائل كلماته في "تأويل مشكل القرآن" علىٰ أنّ فضل القرآن لا يعرفه إلا من كثُر نظرُه، واتسع علمُه، وفهم مذاهب العرب في الكلام[2]؛ والزمخشريِّ الذي نصّ في مطلع "كشافه" علىٰ أنّ التفسير من أجلّ العلوم، وأنه لا يقوم به حقّ القيام إلا رجل برع في علمي المعاني والبيان[3]؛ والطِّيبيِّ الذي يذكر في أوّل "تبيانه" أنّ الفحص عن أسرار التنْزيل: «لا يغوص علىٰ حقائقه، ولا يفوز بشيء من دقائقه، إلا رجل بحث عن فوائد المعاني، ونظر في اختلاف دلالات تلك المباني، واجتلىٰ من سماء محاسن البديع أنجمًا زُهْرًا، واجتنىٰ من أفانين البلاغة ثمرًا وزَهْرًا»[4]؛ وكبدر الدين الزركشي الذي كان يرىٰ أنّ علم "البيان والبديع" أعظمُ أركان المفسِّر[5].

وقد دلّ كلام الدكتور أبو موسىٰ ـ حفظه الله ـ علىٰ أنّ علم التفسير كان أهمّ الأصول البلاغية، وكانت جهود العلماء فيه مفتِّقةَ أكمام زهور البلاغة، فالتفسير

(١) خصائص التراكيب ز.

(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٢.

(٣) ينظر: الكشاف ١/ ن.

(٤) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان ٤٤.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن ١/ ٣١١.

المنقول «عن رسول الله ﷺ وعلماء الصحابة الذين فقهوا عنه صلوات الله وسلامه عليه هو أصل التفسير كله، يستوي في ذلك ما نسميه تفسيرًا لغويًّا أو بيانيًّا، وكثير من المأثور في التفسير كان يتضمن فهمًا بيانيًّا للتركيب، وتحليلُ هذا الفهم البياني مما نشأ منه علم البلاغة. وتفسير الطبريّ مشحون بهذه المرويات التي يُعدّ كثير منها بمثابة متون مركّزة المضمون لأصول لغوية وبيانية، وكان الطبري ﷺ شديدَ العناية بالإشارات اللغوية والبيانية التي كانت تكون في كلامهم رضوان الله عليهم؛ كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وكان تحليله لهذه الذخائر المبهمة مدخلًا ظاهرًا لمسائل علم البلاغة، وخاصة ما يتعلق منها بعلم المعاني؛ ولهذا صار تفسيره كنزًا من كنوز البلاغة، سبق فيه إلىٰ الكثير من المسائل والأصول البلاغية، ولا يزال بمثابة الواحة الخصبة المذخورة بأبكار الأفكار»[1].

وهو يستثمر هذه العلاقة الوثيقة بين علم البلاغة وعلم التفسير ليؤكّد إحكام علوم البلاغة، من خلال نتيجة منطقية دقيقة؛ فعلم التفسير الذي هو علم ينظر في كلام الله ﷻ، قد بلغ العلماء فيه الغاية من التدقيق والعمق؛ «لأنهم يحرصون علىٰ أمرين؛ الأول: ألّا يفوتهم معنىً من معاني كلام الله فلا يستخرجونه، والثاني: ألّا يستخرجوا من كلام الله غير مراده سبحانه؛ لأنّ في فوات الأولىٰ نقصًا يلحق الشريعة، وفي فوات الثانية دخولَ ما ليس من شرع الله فيه، وهذان محظوران كل حظر»[2]؛ فإذا عُلم هذا كان من المنطقي معرفة أنّ المسائل البلاغية التي هَدَىٰ إليها التدبّرُ في الكتاب العزيز «إنما استُخرجت بعد حذر واحتياط ومراجعة، وهي ثمرة الطريقة المحتاطة التي راجعها العلماء واستدلّوا لوجودها وأكّدوا دلالاتها، وكان هذا شأنَ علمائنا ـ كما قلنا ـ

(١) من أسرار التعبير القرآني ٤.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥.

في كل علم يتصل بالقرآن، وكان هذا شأنَهم في علوم البلاغة؛ لأنها ما دامت من أدوات المفسّر، فلا بدّ أن تكون قد رُوجعت وحُقِّقت وأُحكِمت، وإلا ضلّت وأضلّت»[1].

ومما يُحسب للشيخ تلك النظرةُ الشاملةُ لعلوم العربية، فبعد الوصول إلىٰ النتيجة السابقة في إحكام علم البلاغة، يعمّم ذلك علىٰ علوم اللغة العربية كلها؛ لأنها كلها داخلة في التفسير؛ فسيطرت عليها الروحُ الحذرة، التي جعلت العلمَ في مناقشة دائمة دائبة، والعلماءَ في سعي لا ينقطع للوصول إلىٰ الحق[2].

ويضع في هذا قاعدةً جليلةً جديرةً بالتأكيد عليها، وذلك حين يقول: «ترىٰ أصحَّ المناهج وأسدَّها ما كان من علومنا قريبًا من مركز الدائرة، الذي كان عقلُ الأمّة يتحرك في محيطه، وهو القرآن وما يتصل به من علوم شرعية ولُغوية وغيرها»[3]. ولذا أوصاني يومًا بقوله: «إذا أردت أن تكون شيئًا في العلم فلتكن مع أطراف المثلث: القرآن والسنة والشعر الجاهلي».

إنّ من الأصول التي دعا إليها الدكتور أبو موسىٰ وكان شديد العناية والحفاوة بها أنّ علوم الشريعة ذات علاقة وثيقة بعلوم العربية، وأنّ هذه العلاقة لا يمكن تجاوزها أو إهمالها أو العمل بغير مقتضاها، فها هو يقول: «وغنيٌّ عن القول إنّ سلف هذه الأمة كان لهم تصور كليٌّ للحياة الفكرية، وخاصة في حقلي اللغة والأدب والدين، فكانت العلوم الإسلامية مرتبطةً أوثقَ ارتباط بعلوم العربية، وكان التواصل قائمًا بين دراسة الشعر والتوحيد والنحو والتفسير والأخبار والقوافي، وغير ذلك مما تداخَلَ بعضُه في

(١) من أسرار التعبير القرآني ٤.
(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ٥.
(٣) من أسرار التعبير القرآني ٤.

بعض، ومدّ بعضُه بعضًا في تكاملٍ حيٍّ مثمر، وهذا وغيره يجعل ميدانَ البحث الخصبِ المثمرِ في أي فرع من هذه الفروع ميدانًا فسيحًا ومتشابكًا وصعبًا، كما كان العطاء فيه خصبًا غزيرًا، وكان بتر هذه العلائق في مناهجنا وبحوثنا وطرائق تكوين أجيالنا من أهم عوامل شُحُوب هذه العلوم»[1].

ويجعل عبدَالقاهر الجرجاني مثالًا حيًّا علىٰ الوعي بهذا الأصل؛ إذْ «كان في كلّ حواره يصدر من حقيقة واضحة؛ هي الربط الحيّ بين منظومة العلوم العربية والإسلامية، وكيف تتداخل وتتآزر وتتشارب، وهذا مما لا يجوز أن يغيب عن أيّ دارس لهذه العلوم، فضلًا عن أن يكون ناقدًا لها. هي بمثابة الجسم المتكامل، وموقعُ كل علم إنما هو موقع العضو الحيّ في هذا الكيان الحيّ؛ فالذين يهدمون علم البلاغة مثلًا ويطاردونه حتىٰ في عقول صغار التلاميذ جهلوا أنّ ذلك ـ لو تمّ لهم ـ يؤدّي لا محالة إلىٰ تعتيم مساحات متسعة في التفسير والحديث والفقه والأصول، وغيابُ هذا الفهم عند كثير من أهل زماننا هو الذي يدفعهم إلىٰ الجرأة المتهورة في الهجوم علىٰ ما يشبه أن يكون ثوابت في المعرفة اللغوية والبلاغية»[2].

ومما يمتّ إلىٰ هذه القضية بصلة وثيقة ما أكّد عليه كثيرًا من أهمية دراسة الشعر العربي، والعناية بفهمه وتحليله، وهو ما يسميه بـ"علم الشعر"؛ انطلاقًا من حاجة ممارس هذا العلم والمتعاطي معه إلىٰ جملة من الأدوات التي تكتمل في منظومة العلوم الإسلامية والعربية؛ ولذا فقد جعل هذا العلمَ أصلَ علومنا، فـ «علومُ الأمة كلُّها من نحو وصرف وبلاغة وتفسير وحديث وعقائد وفقه وأصول فقه، كلُّها مرتكزةٌ

---

(١) دلالات التراكيب ٢٨.

(٢) دراسة في البلاغة والشعر ١٦.

علىٰ هذا الشعر وقائمةٌ علىٰ متونه؛ لأنه هو اللسان، وكان القرآنُ بين أيدي علمائنا وهم يستخرجون أصول العربية، ولكنهم سلكوا سبيل الهدىٰ لـمّا استخرجوا هذه الأصول من الشعر؛ لأنّ الغاية هي حفظ اللسان الذي نزل به القرآن، ولن يُحفظ القرآن إلا بحفظ لغته، ولو وقف علماؤنا عند القرآن وتركوا الشعر لضاع منهم الكثير؛ لأنّ كثيرًا من صيغ العربية واشتقاقاتها لم يقع في القرآن، فالشعر هو الدائرة الأوسع التي إذا حفظناها نكون قد أقمنا حول كتاب الله ثوابت من المعارف المؤسَّسَة علىٰ أصول من المنهج الصحيح، تظلّ بين يدي الذكر الحكيم تهيّئ لسماعه وفهمه وتذوّق بلاغته وأسرار بيانه»[(١)]. ولن يفوتك هذا الربط الدائم بين القرآن الكريم وعلوم اللغة، وأنه يرىٰ أنْ لا انفصام بينها، بل هو التكامل والتآلف.

وفي لفتة منطقية دقيقة أخرىٰ نجده يجعل كتاب "دلائل الإعجاز" مثالًا وبرهانًا علىٰ علاقة الشعر بالدين؛ فعبدالقاهر حين سمىٰ كتابه بذلك كأنه أراد أن يكون هذا الكتاب دليل النبوة، وهو من هذه الجهة في أصول الدين، وقد كان كتابًا مؤسَّسًا علىٰ الشعر، ساعيًا إلىٰ الكشف عن أسرار الشعر ودقائقه؛ أي: أنّ كتب أصول الدين تؤسَّس علىٰ الشعر وتُبنىٰ عليه. ويرىٰ أنّ الاعتقاد بأنّ الشعر أساس علومنا وأصل من أصول الدين هو الذي جعل الزمخشري يذهب إلىٰ أنّ أساس البلاغة وعلم الإعجاز إنما يؤخذ من أصحاب الفصاحة والبلاغة[(٢)]، فقد أسّس كتابه علىٰ ما بَلَغَه من «العربية وما فصُح من لغاتها، ومَلُح من بلاغاتها، وما سُمع من الأعراب في بواديها، ومن خطباء الحِلل في نواديها، ومن قراضبة نجد في أكلائها ومراتعها، ومن سماسرة تهامة في أسواقها ومجامعها، وما تراجزت به السقاة علىٰ أفواه قُلُبها، وتساجعت به الرعاة

(١) خصائص التراكيب ٧.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب ٧.

علىٰ شفاه عُلبها، وما تقارضته شعراء قيس وتميم في ساعات الـمُماتنة، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل في أيام الـمُفاتنة، وما طولع في بطون الكتب ومتون الدفاتر من روائع ألفاظ مفتنّة، وجوامع كلم في أحشائها مجتنّة»[(١)].

ويشيد بعبدالقاهر الذي جعل معرفة الشعر سببًا إلىٰ فهم العقيدة، ويشيد كذلك برأيه الذي ذهب فيه إلىٰ أنّ «الصادّ عن الشعر صادٌّ عن سبيل الله، وأنّ من يصرف الناس عن النظر في الشعر كمن يصرفهم عن النظر في كتاب الله»[(٢)]. وهو بهذا يشير إلىٰ قول عبدالقاهر في فواتح "الدلائل": «وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أنْ كان علىٰ حدٍّ من الفصاحة تقصر عنه قوىٰ البشر، ومنتهيًا إلىٰ غاية لا يطمح إليها بالفكر. وكان محالًا أنْ يَعرف كونَه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب ... كان الصادّ عن ذلك صادًّا عن أن تُعرف حجةُ الله تعالىٰ. وكان مَثَلُه مَثَلَ من يتصدّىٰ للناس، فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالىٰ ويقوموا به ويتلوه ويُقرئوه. ويصنع في الجملة صنيعًا يؤدّي إلىٰ أن يقلّ حُفّاظُه والقائمون به والمقرئون له. ذاك لأنا لم نُتعبَّد بتلاوته وحفظه، والقيام بأداء لفظه، علىٰ النحو الذي أنزل عليه، وحراسته من أن يغير ويبدّل، إلا لتكون الحجة به قائمة علىٰ وجه الدهر تعرف في كل زمان، ويتوصل إليها في كل أوان، ويكون سبيلها سبيل سائر العلوم التي يرويها الخلف عن السلف، ويأثُرُها الثاني عن الأول. فمن حال بيننا وبين ما له كان حفظنا إياه، واجتهادِنا في أن نؤديه ونرعاه، كان كمن رام أن يُنسيناه جملة، ويُذهبَه من قلوبنا دَفعة، فسواء مَن مَنعك الشيء الذي تَنتزع منه الشاهد والدليل، ومَن مَنعك السبيل إلىٰ انتزاع تلك الدلالة، والاطلاع علىٰ تلك الشهادة، ولا فرق بين مَن

(١) أساس البلاغة ٧.

(٢) دراسة في البلاغة والشعر ١٧.

أعدمك الدواء الذي تستشفي به من دائك، وتستبقي به حشاشة نفسك، وبين مَن أعدمك العلم بأنّ فيه شفاءً، وأنّ لك فيه استبقاءً))(١).

وتبعًا لهذا التناغم والترابط بين دراسة الشعر ودراسة القرآن يلفت النظر إلىٰ أنّ حقل التفسير وعلوم القرآن غني بحقائق يمكن الإفادة منها في الدراسة الأدبية، متعجّبًا ممن يدرس هذه الحقائق في علوم القرآن لكنه لا يستصحبها معه حين يفكر في الدراسة الأدبية، وكأنهما مجالان لا يمكن المزج والجمع بينهما، أو الإفادة من أحدهما في مجال الثاني، ويقرّر قاعدة تستحق أن تُفردَ بالدراسة، ويُجتهدَ في تطويرها وتطبيقها، وذلك حين يقول: ((إننا علىٰ يقين من أنّ نقل المعلومات من حقل من حقول المعرفة إلىٰ حقل آخر له أثر كبير في هذه المعلومات وهذه المعارف، وخصوصًا إذا كانت مما تتلاءم مع الحقل الجديد، وقد قدّم لنا عبدالقاهر نموذجًا ناجحًا لهذا الضرب من تحريك الأفكار وإدخالها في حقول علمية جديدة، وذلك حين كان ينقل كثيرًا من أفكار سيبويه إلىٰ البيئة البلاغية، وقد رأينا هذه الأفكار تتسع وتصير خصبة وذات مذاق مختلف وآثار مختلفة ... وأرىٰ أنّ كثيرًا من مفاهيم علوم القرآن صالح لأنْ يكون فكرًا أدبيًّا جديدًا حين ينقل إلىٰ حقل الشعر))(٢).

والدكتور أبو موسىٰ في سعيه الدائم إلىٰ التجديد، وبثّ الحيوية في علم البلاغة، وتطويره يذهب إلىٰ أنّ الدارس ينبغي ألا يتوقف عند علم البلاغة، بل ((تُراجع العلوم التي هو منها بسبيل، والتي تشترك معه في الدوران حول محور، ونستخرج المسائل المتشابهة، ونفتح بين العلوم قنوات يتم بها التبادل والتفاعل، ونحن علىٰ يقين من أنّ

---

(١) دلائل الإعجاز ٨.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٨.

التبادل بين العلوم يثمر ثمارًا جديدة ذات مذاق جديد، فحين يُفرغ التفسير علىٰ البلاغة، أو تفرغ البلاغة علىٰ التفسير، نجد بلاغة جديدة ذات مذاق خاص، وتفسيرًا جديدًا له مذاق خاص، وهكذا قل في النحو والفقه وبقية منظومة العلوم العربية والإسلامية والتي هي عائلة لها جَدٌّ واحد، وترىٰ الروابط بينها كأنها جزء من فطرتها، وترىٰ عزل بعضها عن بعض يورثها ضمورًا، ويقطع شرايين تمدّها بعطاء يُخصبها، وكأنها جزء من المنظومة الكونية التي لا يمكن عزل بعضها عن بعض، بل إنك تراها وكأنها خلق بعضها لبعض. تدبَّر العلاقة بين الإنسان والحيوان والنبات والرياح والشمس والأمطار، هل يمكن عزل بعضها عن بعض؟ وهل يتم وجودها مع فقد واحد منها؟ وهكذا هذه المنظومة من العلوم لا يتم وجودها مع غياب علم منها؛ لأنّ غياب علم منها يؤدّي لا محالة إلىٰ هزال في بقيتها؛ لأنّ كل علم منها يأخذ من الآخر ويعطيه، وهو بمثابة رافد من روافده يمدّه بالحياة والحيوية»[(١)].

وفي استحضاره لهذه الفكرة وتأمّله في آراء علمائنا وأدبائنا السابقين وأقوالهم يصل إلىٰ رأي مفاده أنّ مجموعة العلوم العربية والإسلامية ـ التي تُعدّ أصولًا فكريّة للحضارة الإسلامية ـ كانت «قاسمًا مشتركًا لكل الشعراء والنقّاد والكُتّاب والمفكّرين، وكان المتنبي متميّزًا بعلوم الاشتقاق، وكان يحفظ الشواهد ويعدّها عدًّا، وكان ابن جني يستمع إليه في هذا، وكان أبو نواس الشاعرُ الخليعُ من علماء زمانه في القراءات، حتىٰ همّ الشافعي أن يأخذها عنه لولا ما عُرف به، كما قال الشافعي رضوان الله عليه، وكان الشافعي شيخًا لبعض علماء اللغة في الرواية والإعراب والغريب، قرأ عليه الأصمعيُّ شعرَ هُذيل، وكان علماء البلاغة والنحو يحتجّون برأي الشافعي في اللغة»[(٢)].

(١) خصائص التراكيب ش.

(٢) من أسرار التعبير القرآني ٩.

والذي يعنيني من هذا الكلام الحيّ في هذا السياق أنه يحمل فكرتين رئيستين مهمتين؛ الأولىٰ: الربط بين علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية، وأنها تتضافر جميعًا لتخدم النص وتحلّلَه، والثانية: أنّ النظر إلىٰ تراث علمائنا في هذه العلوم يقدّم لنا ثروة هائلة ومخزونًا عظيمًا يمكن لنا أن ننطلق منه، كما أنه يكشف أصول علم البلاغة وتحليل النصوص، وأنّ هذه العلوم ذات هوية إسلامية عربية مهما قال المولّون وجوههم شطر الغرب!

مصادر علم البلاغة:

اتضح من خلال الحديث السابق رأي أستاذنا في علاقة علم البلاغة بعلوم العربية وعلوم الشريعة، وأنّ هذه العلوم تخرج من مشكاة واحدة، وأنّ كل واحد من هذه العلوم يستثمر مفردات العلوم الأخرىٰ في الدراسات المتعلقة به. وأنّ هذه الرابطة كانت في أقوىٰ صورها عند رجال الرعيل الأول الذين أدركوا هذه الحقيقة، فكانت كتب هذه العلوم مليئة بالأصول والإشارات البلاغية، التي كوّنت منبعًا حيًا للبلاغة العربية، ورافدًا من الروافد التي لا زالت تمدّها بالرّيّ علىٰ تعاقب القرون.

ومما يمكن إضافته في هذا المجال ما لفت إليه الدكتور أبو موسىٰ في وقفته مع كلام لعبدالقاهر حين كشف عن فضل علم "البيان"، وما لحقه من الضيم والحيف والغلط، وأنّ طائفة من الناس «ساء اعتقادها في الشعر الذي هو مَعدِنها، وعليه المعوّل فيها، وفي علم الإعراب الذي هو لها كالناسب الذي يَنميها إلىٰ أصولها، ويبيّن فاضلَها من مفضولها، فجعلت تُظهر الزهدَ في كل واحد من النوعين، وتطرح كلًّا من الصنفين، وترىٰ التشاغل عنهما أولىٰ من التشاغل بهما، والإعراضَ عن تدبرهما أصوبَ من

الإقبال علىٰ تعلّمهما))[١]. فأبان أنّ عبدالقاهر لم يُرِدِ الشعر والنحو بمعناهما العام، وإنما أراد علميهما، وأنّ هذين العلمين هما المعدن الذي نبع منه علم البلاغة، يقول حفظه الله: ((وكنت أقرأ كلام عبدالقاهر في أول "دلائل الإعجاز" وهو يذكر الشعر والنحو وأنهما معدن علم البلاغة، وأفهم منه ما يدلّ عليه ظاهره، فلما وقفت علىٰ ما أشرت إليه[٢] صارت المسألةُ أرحبَ وأوسعَ، وأنّ المسألة ليست الشعر والنحو بهذا العموم، وإنما هي علم علماء الشعر، ورأسهم الجاحظ، وعلم معاني النحو الذي استخرجه الخليل وسيبويه. ثم إنّ الشيخ قدح علم الشعر بعلم معاني النحو، فأضاء ذلك القدحُ للشيخ طريقه الذي استخرج منه علمَه، وكان هذا مما قرّت به نفسي وأرجو أنْ أكون قد أصبت فيه))[٣].

وهذا كلام دقيق نفيس يستحق منّا وقفتين:

أُولاهما: أنّه صحّح فهمًا خاطئًا قد يقع من قارئ "الدلائل"، فليس مراد الشيخ عبدالقاهر بالشعر الأبياتَ والقصائدَ، وإنما مراده علم العلماء الذين درسوا ذلك الشعر، ووضعوا أصوله، وشرحوا أسراره، أي: علم صناعة الشعر؛ ففي تلك الأصول، وفي خضمّ هذه الشروح الكثير من الأصداف واللآلئ التي استُخرجت منها كنوزُ البلاغة، وليس مراد الشيخ عبدالقاهر بالنحو أواخرَ الكلم وضبطَها وما يورّثه التركيب فيها، وإنما مراده علم معاني النحو، أي: تلك المعاني المبنية علىٰ مواقع الكلمات وإعرابها[٤]. وهو الأمر الذي أفصح عنه في موضع آخر حين بيّن أنّ ((النظر في علاقات الكلمات وروابطها،

(١) دلائل الإعجاز ٧.

(٢) يعني الصلة القوية بين علم عبدالقاهر وتراث الجاحظ.

(٣) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٤.

(٤) ينظر: مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ٩.

ومعرفةِ مواقعها من الإعراب نظرٌ في بنية النص، وتحليلِ هذه البِنية، وقول النحاة: هذا حال، وهذا تمييز، وهذا مبتدأ، وهذا خبر، وهذه واو الحال، وتلك عاطفة أو مستأنفة، إلىٰ آخر - تدقيق بالغ في تفسير النص، وكلامهم في الفرق بين الحال والتمييز والصفة، والفرق بين الواوات والفاءات والماءات، كل هذا من أدق ما يدرك في دلالة النص، وفيه من الدقة واللطف والخفاء ما يروق ويروع ويدهش»[1].

والثانية: أنه وإنْ كان قد جعل علم الشعر وعلم معاني النحو من أصول علم البلاغة، إلا أنّ سرّ عمل عبدالقاهر الباهر كان في "قدح أحدهما بالآخر"، والقدح يولّد نارًا مطلوبة، هي التي فيها التذكرة والمتاع، وهي هنا علم البلاغة الذي كان لعبدالقاهر فضل "قدحه" ليضيء الطريق لمن بعده. وكأنه بهذا يؤكّد تلك الفكرة التي نبّه عليها حين هَدَىٰ إلىٰ أنّ «نقل المعلومات من حقل من حقول المعرفة إلىٰ حقل آخر له أثر كبير في هذه المعلومات وهذه المعارف»[2].

والدكتور محمد أبو موسىٰ شديد الحفاوة بتراث الشيخين عبدالقاهر والزمخشري؛ وذلك لأنه يرىٰ أنّ «درس البلاغة العربية لم يستقم علىٰ منهج صحيح وطريقة أقرب إلىٰ الكمال إلا في دراسة الشيخين»[3]. كما أنه يوجز شطرًا من تاريخ البلاغة بقوله: «لو راجعت قصة الدراسة البلاغية فلن تجد فيها جهدًا متسعًا وقف مع الشعر يستنبط منه أصول البلاغة إلا جهد عبدالقاهر والزمخشري في القرآن، ثم جاء حازم بعدهما»[4].

---

(١) قراءة في الأدب القديم ١٢.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٨.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٩.

(٤) دراسة في البلاغة والشعر ١٩.

ولعلّ هذا الرأي يكشف جانبًا من أسباب تأليفه ثلاثة كتب جعلها خاصة بهؤلاء الثلاثة؛ فكان بحث "البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية" أول كتبه ودراساته، وكان له كتاب جعله مدخلًا "إلىٰ كتابي عبدالقاهر"، وله كتاب آخر في "تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجنّي"، وسبق هذه البحوثَ بحثُه (المفقودُ) في "بلاغة المفتاح" في مرحلة الماجستير.

وليس له غير هذه البحوث الأربعة في تراث عالم معين، إلا رسالته الموسومة بـ "القوس العذراء وقراءة التراث"، وهي رسالة صغيرة الحجم جليلة الأثر والقدر، تتناول رسالةَ "القوس العذراء" للأستاذ أبي فهر محمود محمد شاكر ﵀، من حيث هي منهج في قراءة التراث، شقّ فيه أبو فهر طريقًا قِوَمًا لهذا الباب، وصيّره مستتِبًّا لاحبًا[1]. وكما كان الدكتور أبو موسىٰ شديد الحفاوة بالأشياخ الثلاثة من القدماء، فقد كان شديد الحفاوة بالشيخ أبي فهر في المحدثين.

وهذه الحفاوة التي تكشف عنها هذه الكتب - إضافة إلىٰ مواضع متفرقة في مقدّماته - تشير إلىٰ إدراكه أثرَ هؤلاء في البلاغة العربية، وأنهم ممن يستحق أن يؤخذ عنه العلم. ويلفت النظرَ أنّ إشادته بالثلاثة ارتبطت باشتراكهم في استنباط أصول البلاغة من الشعر، وأنّ رسالته "القوس العذراء" رسالةٌ تدور في فلك الشعر وقراءة التراث. مما يكشف عن ركن ركين في علمه واتجاهه البلاغي، الذي صار جليًّا للدارس أنه مبنيٌّ علىٰ تراث الأمة وأدبها، وتصبح دعواته المتتابعة إلىٰ العناية بالشعر ليست خبط عشواءَ، بل دعوات تصدّقها البحوث والدراسات.

---

(١) ينظر: القوس العذراء وقراءة التراث ٤.

واقرأ له قوله: ((ونعتقد أنّ الأصول والقضايا البلاغية التي أثارها المشتغلون بالأدب والشعر في تراثنا، تتميز تميزًا واضحًا بارتباطها بلغة الأدب، وخصائصها وصورها وأحوالها التي استغلّها الأديب والشاعر بوعي صادق وخبرة صحيحة، فأودعها دقيقَ أفكاره ومشاعره، وهي أحوال وخصائص في طبيعة اللغة التي تتكون منها طاقتها البيانية العظيمة. لذلك نرىٰ أنّ هذه القضايا والأفكار الصحيحة المرتبطة بهذا الجانب اللغوي التحليلي للأدب ثابتةٌ))[١].



فإذا ما جئنا إلىٰ الشيخ عبدالقاهر فإننا نجد الدكتور أبو موسىٰ خلال نظره في كتابيه يقدّم للقارئ فائدة جليلة حين يقول: إنّ كثيرًا من علم عبدالقاهر ((استخرجه من صلب الباطل والخلط والخطأ الذي لزَّ بعقول الناس، وصار كالداء العياء، وقد ردّ الشيخ هذا بعلم استخرجه من أغوار عقله، وحلّل هذه الأقاويل الزائفة تحليلًا أعمق من تحليله للصواب، وكشف مواطن الخلل، وكل هذا من علمه الخصب والغضّ، وأنت تعجب حين ترىٰ أهل الصدق في طلب العلم يصير الخطأ بين أيديهم معدنًا من معادن استخراج المعرفة، كما يكون الصواب معدنًا من معادن استخراج المعرفة))[٢].

وهو يشير إلىٰ أنّ دراسة عبدالقاهر تُشعر أنّ صاحبها كان ((ينشئ القول إنشاءً، أو يبسط فكرة غائمة في دراسة من سبقه، وهو يحاول أنْ يمكّن ما يقول في نفوس معاصريه، وأنْ ينقشه في صدورهم، ويبثَّه في سويداء قلوبهم))[٣].

---

(١) التصوير البياني ٢٢.

(٢) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ٩.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٦.

وكان من جهده في دراسة عبدالقاهر وتراثه أنْ عُني بمعرفة مصادره، وكيف استخرج منها علمه، مبيّنًا أنّ الدراسة الجادة المثمرة لا تكتفي بالقول إنه أخذ من فلان وذكر فلانًا، ثم أبان عن نتيجة هذا البحث بالكشف عن صلة قوية بين علم عبدالقاهر وتراث الجاحظ، وأنّ هذه الصلة أقوىٰ من صلة علم عبدالقاهر بكتاب سيبويه، ويشير إلىٰ الغفلة عن هذه الصلة وأنه لم يعرف «أحدًا حلّل تراث الجاحظ البلاغي كما حلّله عبدالقاهر، وكان في كثير من صفحات كتابيه كأنه يعمد عمدًا إلىٰ شرح كلام الجاحظ، وأهمّ من هذا وأكثر إثارة أنه كان يشرح الجاحظ مستضيئًا بعلم الخليل وسيبويه، وهذا أمر غريب ولم يتكرّر، ولم ينبه إليه أحد، وهو ظاهر كفلق الصبح!»(١)، وغير خافٍ مكانة الجاحظ في التاريخ البلاغيّ، هذه المكانة التي دعت بعض الباحثين إلىٰ القول إنه مؤسس علم البلاغة العربية(٢).

ولا يفوته أن يبيّن خطأ من ذهب إلىٰ أنّ علم المعاني هو علم النحو، وأنّ كتاب "دلائل الإعجاز" كتاب في النحو وصفحة جديدة فيه، مفنّدًا هذا الزعم من خلال كلام عبدالقاهر نفسه، ومن خلال الإشارة إلىٰ كتبه في النحو التي عرفها الناس وتداولتها أيدي العلماء، وأنّ هذا القول الفاسد ترتب عليه إلغاء دراسة "علم المعاني" من أقسام اللغة العربية في بعض الجامعات العربية(٣). وقد بيّن أحد الباحثين أنّ صلة عبدالقاهر بالنحويين واللغويين صلة أديب ناقد أراد استثمار «الأسس الأصولية في اللغة العربية بما يعين علىٰ تجلية غايته في توضيح الطريق الموصل إلىٰ إعجاز القرآن الكريم في طبيعة تفكيره النقدي»(٤).

---

(١) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٤.

(٢) ينظر: في تاريخ البلاغة العربية ٥١.

(٣) ينظر: دراسة في البلاغة والشعر ١٤.

(٤) معالم المنهج البلاغي عند عبدالقاهر الجرجاني ٥٥.

وينتقل إلىٰ جانب آخر مهمّ يتعلّق بمنهج عبدالقاهر في كتابيه ومذهبه البلاغيّ فيهما، كاشفًا عن جوهر الدراسة البلاغية وأنها بحث في المعاني، وعن ثراء كلمة "خصوصيات المعاني" وخصوبتها، وأنها تجمع معاني الأدب ومعاني النحو، وأن وجوه ارتباط الكلمة بالكلمة وفروقها كثيرة[1]، «ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها»[2].

ثم يبيّن مذهب عبدالقاهر بقوله: «الزلّة الأمّ في هذا العلم هي أنْ يدور البحث في النظم علىٰ الألفاظ، وأنْ يُسدل ستار الغفلة علىٰ المعاني، وهذا هو الذي هدمه عبدالقاهر، فإذا غلب علىٰ بحثك ودرسك وكتابتك الكلامُ في أحوال الكلمات، فقد درست البلاغة التي هدمها، وتركت البلاغة التي أقامها، ولو أنك عبرت من اللسان إلىٰ القلب كنت مع بلاغة الشيخ الجليل، ولو وقفت مع نظم اللسان وشقشقته باللفظ كنت مع البلاغة التي هدمها، وهذه هي نقطة الزَّلل»[3].

ويبيّن في موضع آخر أنّ النقش صنعةٌ قائمة في الشعر كما هي في الصناعات، وأنّ مادّتها في الشعر هي الألفاظ، وليست المعاني، لكنّ المراد الألفاظُ في سياقها وتركيبها وتأليفها، فمن «غير المعقول أنْ نفهم أنّ الألفاظ هنا هي الألفاظ المفردة؛ لأنّ الصياغة والسبك والتأليف هي التي بها يعلو قدر اللفظ، وإذا بعُد اللفظ عنها صارت كل الألفاظ سواء»[4].

---

(١) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٤ – ١٥.

(٢) دلائل الإعجاز ٨٧.

(٣) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٦.

(٤) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٣٦.

وقد أبان عبدالقاهر عن ذلك في مواضع من كتابه، منها بيانه «أنّ اللفظ تبع للمعنىٰ في النظم، وأنّ الكلم تترتَّب في النطق بسبب ترتُّب معانيها في النفس، وأنها لو خلَتْ من معانيها حتىٰ تتجرّد أصواتًا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر، أن يجب فيها ترتيبٌ ونظم، وأن يُجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك»[1]. ومنها ما ذكره في أول "أسرار البلاغة" من أنّ «الألفاظ لا تفيد حتىٰ تؤلَّف ضربًا خاصًا من التأليف، ويُعمد بها إلىٰ وجه دون وجه من التركيب»[2].

ويختم الدكتور أبو موسىٰ بعد هذه الإشارات الوضيئة حديثَه في تقديمه لكتابه "مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر" بقوله: «وحين أتغلغل في هذه الأشياء أجد دراستَنا البلاغيَّةَ ـ وأولها ما كتبتُ ـ دراسةً متخلفةً جدًا عن مذهب عبدالقاهر، وأنّ تجديد الدرس البلاغيّ يجب أن يبدأ بكشف أصول منهج عبدالقاهر، الذي تكلّمنا عنه كثيرًا ونحن نجهله، وأنا لا أشك أنّ تراثَنا أكثرُ تقدّمًا منّا، وأنه لم يتخلّف، وإنما نحن الذين تخلّفنا»[3].

ويبدو أنّ الذي أغرىٰ الباحثين قديمًا وحديثًا بتجربة عبدالقاهر ومنهجه هو قدرتُه الفذّة علىٰ المزج بين التأصيل العلمي وتناول النصوص الأدبية وتحليلها، أو قل: قدرته علىٰ المزج بين الاتجاهين العلمي والأدبي، ولو «كُتب للبلاغة أنْ تحذو حذو الإمام عبدالقاهر في إيجاد تكافؤ بين الاتجاهين لما لحقها التحجّر، ولأمدَّتْ الدراساتِ النقديةَ الحديثةَ بكل ما هو ضروري، بل لكانت الدراسةُ البلاغيةُ هي الدراسةَ النقديةَ المفضّلةَ»[4].



(١) دلائل الإعجاز ٥٦.

(٢) أسرار البلاغة ٤.

(٣) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٧.

(٤) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية ١٨٧.

وقد خصَّ "كشّاف" جارالله محمود الزمخشري بالمزيد من عنايته وجهده، لكنه لم يهمل ما عداه؛ فالتفت إلىٰ كتابه "أساس البلاغة" مشيرًا إلىٰ أنّ للعلماء مقاصد وأغراضًا تفصح عنها مقدّمات كتبهم، وأنّ الزمخشري لم يسمّ كتابه بهذا الاسم إلا وهو يقصد أنّ البلاغة لا تُبنىٰ إلا علىٰ ما نطق به أصحاب اللسان، "وأنّ هذه الشذراتِ البيانيةَ المختارةَ كأنها متن بيانيٌّ يجب علىٰ طالب العلم أن يرتاض به، وأن يرتاض فيه، وأن يصقل به لسانَه وعقلَه ولغتَه ونفسَه؛ لأنّ البلاغة لا وجود لها في نفس ذات حسٍّ غليظ، ولا وجود لها إلا حين يوجد القلب الحي والنفس اليقظىٰ، وأنّ مراجعة هذا الأساس هو السبيل إلىٰ وجود القلب الحي والنفس اليقظىٰ"[(١)].

وأمّا "الكشاف" الذي درس الدكتور أبو موسىٰ "البلاغة القرآنية فيه وأثرها في الدراسات البلاغية"، فهو يقرّر في أول كلمات يخرجها للناس[(٢)] أنّ "بلاغة "الكشاف" كانت نهايةَ مرحلة متميزة في الدراسة البلاغية؛ إذْ هي الامتداد الحق لدراسة عبدالقاهر الجرجاني ... هذا الاتجاه كان في حاجة إلىٰ كثير من الحواريين ينهضون لتثبيته وتمكينه وإتمامه حتىٰ يكتمل بناء متناسقًا يمهّد سابقُه للاحقِه، ولكنّ القدر لم يهيئ لهذا العالم السني إلا فتىٰ من فتيان المعتزلة أنبتته أرضُه، فهضم تراثَه، وارتضىٰ منهجَه، ونسج علىٰ منواله، وأضاف لبنات في هذا البناء لا تختلف في نسقها ونوعها عما بدأه الأستاذ. ولو قُدّر لهذا الاتجاه أن تتواصل حلقاته لكان بين أيدينا منه الخير الكثير. وإذا كان الزمخشري قد طبّق كثيرًا مما قرّره عبدالقاهر الجرجاني فقد أضاف أصولًا بلاغية هامة لم يعرض لها عبدالقاهر، ونـمّىٰ كثيرًا من الأصول السابقة، وحرّر كثيرًا من المسائل"[(٣)].

---

(١) خصائص التراكيب ٦.

(٢) لأنها أول الكلمات في أول الطبعات لأول كتبه.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٦.

ويرىٰ أنّ من إضافات الزمخشري المهمة تطبيقاته في "الكشاف" لبعض الأصول البلاغية المقرّرة في زمانه مع ما يُضْفيه عليها من حسِّه وذوقه، وأنّ هذه التطبيقات قد أتاحت للأصول البلاغية التي قرّرها عبدالقاهر ((قوةً ومكانةً، وثبَّتتها في البيئة العلمية، وأظهرت قدرتها علىٰ تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القرآن في صورة دقيقة وشاملة))[1].

لكنه يأسف أنْ ظهر هذا الاتجاه في استثمار التطبيقات في درس البلاغة علىٰ يد الزمخشري، ثم انقطع بعده تمامًا، لافتًا النظر إلىٰ أنّ "المثل السائر" لا يصلح ((أن يكون امتدادًا له، ولا يصلح "الطراز" كذلك أنْ يكون امتدادًا له، وسوف يظهر لنا أنّ ما أفاده ابن الأثير من "الكشاف" وما أفاده العلوي كذلك من "الكشاف" هو خير ما في هذين الكتابين))[2].

ولهذا فهو يضع بلاغة عبدالقاهر التي راقت كثيرًا من الباحثين المحدثين بعد دراسة الزمخشري؛ ((وذلك لأنّ التحليل والتفسير ـ الذي هو صميم البحث وخلاصته ـ في دراسة الزمخشري أشملُ وأدق))[3]. وهذا بطبيعة الحال لا يتناقض مع تقديره لجهد عبدالقاهر ومكانته؛ لأنّ عبدالقاهر وضع الأصول في منهج تحليليّ رائق، والزمخشري مكّن هذه الأصولَ، ونفَحَ فيها من ذوقه وحسِّه، وأفادها عمقًا بتطبيقها علىٰ كتاب الله العزيز.

بل لا يمكن أن يتسرّب ظنّ أنه يقلّل من جهد عبدالقاهر، أو يوهن من قدره وأثره في البلاغة العربية وهو القائل: ((واعلم أني ما شرحت نصًّا من كلام الشيخ

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٧.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٨.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٣.

وعدت إليه إلا وجدت فيه مما لم أقلْه أكثرَ وأجلَّ وأسخىٰ من الذي قلت، وأنني ما أخذت من كلامه إلا زَبَدًا قذفه جوهره علىٰ سطحه، ويبقىٰ في كلام الشيخ ما ينفع الناس، وكأنّ الله جلت حكمته لما أخلص هذا الشيخُ الجليلُ له سبحانه كافأه مكافأة خاصّة، وهي أن يظلّ عطاؤه وسخاؤه الذي هو منيحة الله له تحت لسانه ﷺ، لا يستطيع أحد أن ينزع ما تحت هذا اللسان وأنْ يشرحه وأنْ يُفرغه، وليس للمحصّل سبيل إلا أنْ يقرأ كلامه هو»[(١)].

ولَمّا كان "الكشاف" كتابَ تفسير مرتبطًا بالآيات الكريمات، صارت بلاغة الزمخشري تائهةً فيه، لا تظهر ملامحها محدّدة واضحة في كل مسألة من المسائل البلاغية، وكان هذا سببًا في اهتمام أستاذنا بالسَّعي إلىٰ بيان هذه البلاغة وتوضيحها، حتىٰ يكون الدارسون والباحثون علىٰ بصيرة من أمرهم[(٢)].

لكنّ الجديد في هذا السياق ما كشف عنه الدكتور أبو موسىٰ حين بين أنّ "الكشاف" حوىٰ كذلك الكثير من أصول قضايا النقد الأدبي المعاصر في التراث العربي، وهي الأصول التي لم تكن واضحة في دراستنا البلاغية والنقدية[(٣)].



وحين نصل في الحديث إلىٰ السكاكي نجد أستاذنا الكريم لا يرتضي منهجه في "مفتاح العلوم"، ويرىٰ أنه منهج ملفّق شُغلت به الدراسة البلاغية، وانقطعت صلتها بالمنهج التطبيقي الذي ظهر علىٰ يد عبدالقاهر ومكّنه الزمخشري.

---

(١) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٧.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٩.

(٣) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٣.

وقد كان السكاكي وكتابه موضع كثير من المناقشات والدراسات، ويعود هذا ـ فيما أرىٰ ـ إلىٰ أنّ السكاكي نقل البحث البلاغي إلىٰ اتجاه آخر، فعُني بالتأصيل والتقعيد، ولم يهتمّ كثيرًا بالتحليل، فأخفق في تحقيق التوازن المطلوب بين الذوق والقاعدة، بطغيان الجانب التقعيدي علىٰ الجانب الذوقي والأدبي طغيانًا مبينًا[(١)]. وقد أشار عدد من الدارسين إلىٰ هذا، فذهب عبدالمتعال الصعيدي إلىٰ أنّ العجمة كانت غالبة علىٰ أسلوبه[(٢)]، وذهب الدكتور شوقي ضيف إلىٰ أنّ أسلوبه لا يحوي أيَّ جمال[(٣)].

ويوضِّح الدكتور أبو موسىٰ أنّ السكاكي وإن استمدّ مادته العلمية من كلام عبدالقاهر والزمخشري، إلا أنه ((عجز عن المحافظة علىٰ الرّوح الأدبية؛ لأنه حاول أنْ يلخّص، والمشتغلون بالبلاغة يفهمون أنّ تلخيص التحليلات البلاغية يفسدها، وكذلك فعل أبو يعقوب حين استخلص مادته العلمية مما ذكره الشيخان))[(٤)].

ويرىٰ أنّ السكاكي استمدّ أصول منهجه الأساسية من كتاب "نهاية الإيجاز" للرازي، فالذي ((حدث في تاريخ البلاغة هو أنّ ابن الخطيب الرازي لَخَّص من كلام عبدالقاهر أشياء، وترك منه أشياء، ثم جاء السكاكي وأخذ من كلام الرازي وترك، ولخّص كلام الأصحاب))[(٥)]، والأصحاب ((الذين لَخَّص كلامَهم هم عبدالقاهر والزمخشري وابن الخطيب الرازي))[(٦)].

---

(١) ينظر: البلاغة العربية ١٢٤.

(٢) ينظر: بغية الإيضاح ١/ ٥.

(٣) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ ٢٨٨.

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٨.

(٥) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١١.

(٦) خصائص التراكيب ١١.

مشيرًا إلىٰ أنه في بحث آخر وضع اليد علىٰ ما أفاده السكاكي من الرازي، وأنّ «ذلك كان في أصول العلم؛ كتحديد علم البيان الذي أفاده أبو يعقوب مما كتبه الرازي في الدلالة المعنوية، وكمبحث الدلالة الذي قدّم بها لدراسة علم البيان، وكالاصطلاحات التي تتداول في البلاغة إلىٰ اليوم، كاصطلاح الاستعارة التصريحية والمكنية والتبعية والأصلية والتخييلية، وكالقول بوجوب فاعل حقيقي في الإسناد المجازي، كل هذا ـ وغيره كثير ـ ذكره ابن الخطيب الرازي وحسبه الناس لأبي يعقوب»(١).

لكنه يقف وقفة إنصاف لجهد الرجل داخل كتابه، فيبين أنّ أهمية "المفتاح" تتضح في أنّ مباحث البلاغة كانت «تُدرَّس قبله وكأنها جذاذات من الورق، في كل قطعة منها مسألة، ويختلف ترتيب هذه المسائل في الكتب البلاغية، كما يختلف ترتيب هذه الجذاذات قبل أنْ تمتدّ نحوها يد تنظم وتنسق»(٢)، فكانت هذه اليدُ هي يدَ السكاكي.

ومن الجهود التي أنصفت السكاكي بحث قيّم للدكتور سعد مصلوح بيّن فيه أنّ لـ"المفتاح" مفتاحًا لابُدّ منه للدخول عليه وفهم أسراره، ويرىٰ «أنّ وِزر ما يُسمّىٰ بالعقم والجمود والجفاف إنما يقع علىٰ عاتق الخالفين»(٣)؛ ذلك أنّ انصراف المشتغلين بعلوم البلاغة عن قسمي الصرف والنحو في كتابه، وعن الفصول التي عقدها لعلم الاستدلال والشعر، واحتشادهم لشرح القسم الثالث من الكتاب، كما لو كان كتابًا قائمًا برأسه، مقطوع الصلة بما سبقه وبما لحقه، كل ذلك قد فوّت عليهم وعلىٰ غيرهم فرصة الانتفاع بالكتاب علىٰ الوجه الذي أراده له صاحبه. فالسكاكي «لم يهدف إلىٰ إيراد حقائق الصرف والنحو، ثم المعاني والبيان ووجوه التحسين،

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٨.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥٩٧.

(٣) مشكل العلاقة ٨٤٤.

ثم الاستدلال والشعر لما هي فيه، بل عالجها جميعًا بوصفها بنية منهجيّة متماسكة، تصلح في حال انتظامها لما لا تصلح له حال تفرّقها وانفراط عقدها، وبذلك تستحيل المكونات إلىٰ عناصر في منظومة منهجية، تشكِّل متضافرة ملامح علم يسمّيه الإمام صراحة "علم الأدب"))[١].

ويتعجب الدكتور أبو موسىٰ من أن تتحدّد بلاغتنا وتنتهي عند منهج لم يضع أصولَه فقهاءُ هذا الفن، فالرازي وإنْ كان من أعظم رجال الفكر الإسلامي فليس من أعظم رجال البلاغة، والسكاكي عاش عيشة العوام، ولم تتح له ظروفُ حياته الإدمانَ والممارسةَ والمعايشةَ حتىٰ يكتسب ذوقَ هذه اللغة، وإنْ حفظ قدرًا من قواعدها[٢]. وهو بهذا يشير إلىٰ مسألة مهمة في الدرس البلاغي، وهي أنّ علىٰ البلاغي أن يكون بليغًا بذاته ابتداء ما أمكنه ذلك، وأنّ مجرّد حفظ القواعد والإحاطة بها لا يكفي ما لم يُضف إلىٰ ذلك ذوق رفيع، وقدرة أدبية، تعينه علىٰ صوغ كتابته، وبثّ آرائه بأسلوب تحليليّ وأدبي أخاذ، كما هو الحال عند الشيخين: عبدالقاهر والزمخشري.

ولهذا فإننا نجده حين يصف "مفتاح" السكاكي وصفًا عامًا يقول: ((ولا شك أنّ من أهمّ ما أغرىٰ الدارسين بكتاب السكاكي هو سهولته؛ لأنّ المسائل البلاغية التي لا تعتمد إلا علىٰ العقل يسهل تحصيلها والإحاطة بها. وصعوبة هذا الكتاب تتركز في عبارته وأسلوبه المعقّد الغامض، أمّا مادته العلمية فما أسهلها؛ ولذلك حفظها الصبيان لما شذّبها الخطيب في كتاب "التلخيص"، وإنْ كانت لا تغني فتيلًا في إدراك العلم وفقه أسراره))[٣].

---

(١) مشكل العلاقة ٨٤٥.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٨.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٩.

ويقف عند تسمية كتابه بـ "مفتاح العلوم"؛ فتسميات كتب علمائنا تكشف عن مقاصدهم وأغراضهم(١)، ويرىٰ أنّ هذه التسمية تحتمل تفسيرين؛ الأول منهما: أنْ يكون المراد أنّ هذه العلوم مفتاح لبقية العلوم، وهذا يعني أنّ إتقان اللغة إفرادًا وتركيبًا هو أصل المعرفة كلها ومفتاح أبوابها، والثاني: أنْ يكون ما في هذه العلوم مفاتيحَ لها، وليس هو العلم؛ لأنّ العلم هو تتبع خواص التراكيب، أي: في البيان المصقول والتراكيب الحية ذات الخصوصيات المستحسنة(٢).



أمّا حازم القرطاجنّي الذي هو ثالث ثلاثة أفرد لهم الأستاذ تأليفًا خاصًا، فقد كشف عن جوانب مهمة من ثقافته في كتابه "تقريب منهاج البلغاء"، وقد سبقت الإشارة إلىٰ أنه عدّه بعد عبدالقاهر والزمخشري في استنباط أصول البلاغة من الشعر(٣).

وبين أنّ تجربة حازم تشبه تجربة عبدالقاهر وإنْ كانت دونها في القدرة علىٰ تذوق الصيغ والصور والرموز اللغوية، لكنّ لها فضلًا يُغري بالانتفاع بها. ثم يوازن بين التجربتين في نظرة نافذة، ورؤية ثاقبة بقوله: "وإذا كان عبدالقاهر قد وضع الأبنية اللغوية بين يديه، وجعلها طريقًا إلىٰ النظر في الأبنية المعنوية، فإنّ حازمًا جعل الأبنية المعنوية بين يديه وأدار رأسه عليها. وكما اهتمّ عبدالقاهر بالفروق الدقيقة في الصيغ، اهتمّ حازم بالفروق الدقيقة في الجمل المعنوية، فيذكر المعنىٰ الباسط للنفس، والمعنىٰ القابض لها، والمعنىٰ الشاجي، والمعنىٰ الباسط الذي

---

(١) ينظر: خصائص التراكيب ٦.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب ١٠.

(٣) ينظر: دراسة في البلاغة والشعر ١٩.

يشوبه شيء من الشجو، والمعنىٰ القابض الذي يشوبه شيء مما يفرح، وهكذا. كما يذكر تسلسل هذه الأبنية المعنوية في شعر الشاعر، وكيفية مراوحته بينها، وأنّ فلانًا من الشعراء ينتقل من المعنىٰ الباسط للنفس إلىٰ ما يقبضها، أو أنه ينتقل مما يقبضها إلىٰ ما يبسطها، أو أنه يبدأ بالمعاني الإقناعية ويُردفها بالمعاني الشعرية، أو العكس، إلىٰ آخر ما نرىٰ من تحليلٍ لخواطر النفوس، وكيف تتلاحق في البناء الشعري. والنظم عند حازم نظمان: نظم للغة وهو النظم المعروف، ونظم للمعاني وهو ما سماه "الأسلوب"، وجعله أظهر في الدلالة علىٰ الشاعر، وأقرب إلىٰ بيان تفرّد شعره وشخصه؛ لأنّ أحوال المعاني وأوصافها وأحوال ارتباطاتها وطرائق تسلسلها مرآةٌ أكثرُ جلاءً في بيان تقاسيم الشاعر وملامحه وشخصه))[(١)].

مشيرًا بعد هذا إلىٰ أنك إذا أردت أن تُحكم الفرقَ بين تراث الرجلين فاجمع ما قاله كل منهما في شواهد أحد الشعراء؛ لتعرف أنّ عبدالقاهر يحلّل الشعر ليبيّن بلاغة اللسان، وأنّ حازمًا يحلّل بلاغة الشاعر، ويميّز لغته وشعره ومذهبه، وأنّ هذا باب توقف في الدراسة البلاغية مع ما فيه من الثراء والنفع[(٢)].

ولعلّ هذا هو ما دعاه إلىٰ أنْ يخصّ حازمًا وتجربته بتأليف خاص، سعىٰ من خلاله إلىٰ الرد علىٰ المهرولين نحو الغرب، واللاهثين في إثبات أنّ ثقافة حازم كانت ثقافة يونانية، وأنه بنىٰ كتابه علىٰ تلك الثقافة، فأوضح أستاذنا أنّ أولئك خلطوا بين الطابع الفقهي الذي غلب علىٰ عقل حازم وعلىٰ كتبه ومنهجه، وبين الأثر اليوناني، وأنّ هذا الخلط راجع إلىٰ جهلهم بالطابع الفقهي الذي وسم حازمًا بسمة خاصة[(٣)].

---

(١) دراسة في البلاغة والشعر ١٨.

(٢) ينظر: دراسة في البلاغة والشعر ١٩.

(٣) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ٣.

كما أوضح أنّ الوصول إلىٰ نتائج صحيحة مرتبط بالنظر إلىٰ البيئة التي عاش فيها ونشأ، فحازم عاش في ظل غلبة عدو غاشم لا يرحم، اضطرّ معه إلىٰ الهجرة إلىٰ تونس، فأقام في بيت الأدباء الذي أقامه الأمير زكريا بن يحيىٰ للعلماء، مع كوكبة من العلماء الذين عاشوا المحنة واكتووا بلهيبها. وعلينا حين ندرس تراث هؤلاء، ونفيد من علمهم أنْ نُدخلَ هذه النكبةَ في حسابنا؛ لأنها كانت مثلَ زلزال هائل، فلا يجوز إهمالها، ولا بدّ من تلمّس أثرها فيما يكتبون[1].

وهو في دفاعه عن تراث الأمة، وعن علمائها، يقرّر دون مواربة أنّ القول إنّ حازمًا مزج البلاغتين العربية واليونانية ((قول فاسد، وإهانة لحازم، والذين يقرؤون حازمًا بعيون صحيحة يدركون ذلك، والذين كتبوا في صناعة الشعر ممزوجة من اليونانية لم يهتمّ أحد بما كتبوا، وأُهمل ما كتبوا وضاع، ولم ينقل عنهم أحد))[2].



وفي نظراته الثاقبة في تاريخ البلاغة العربية لا يَغفل عن الإشارة إلىٰ الشروح والحواشي والتقارير، التي تمثل مرحلة من مراحل الدرس البلاغي، وهي المرحلة التي أثارت الكثير من الانتقادات، ووُجِّهت إلىٰ البلاغة بسببها الكثيرُ من السِّهام والحراب. فيبين رأيه في تلك الهجمات وفي هذه المرحلة وفي هذه الكتب باختصار يكشف عن جوانب ذلك كله، فيصف المهاجمين بأنّ أنظارهم تقاصرت ((فلم تبصر للبلاغة درسًا وراء الحواشي والتقارير، فرمتها بكل حجر، وجهلوا أنّ الحواشي والتقارير ليست من الكتب المجتهِدة المبتكِرة التي تحسُّ فيها الحياة والكدّ، وإنما هي تراث مرحلة خبا فيها

---

(١) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ٤.

(٢) تقريب منهاج البلغاء ٢٢.

وهج الفكر في هذه الأمة لما ضعفت دولتها، وهدأت ثائرته واندفاعه وابتكاره وتجديده؛ فانطوىٰ علىٰ نفسه يجترّ جهوده الماضية ويحلّلها ويناقشها، وهو في هذه الحالة من الهدوء والهمود، فنقّىٰ وكدّر، وأصلح وأفسد، وأحسن وأساء. علىٰ أننا لا نغفل ما قدمته هذه المرحلة من منهج دقيق في إيراد النظر، وضبط الفكرة وتحديدها، وإحكام العبارة عنها. ولا شك أنّ الوقوف عند هذه المرحلة، ورمي العيب والقذف، ثم الاحتجاج بما فيها من غموض وأكدار ضرب من تتبع العورات لا يرضاه الخلق الكريم»[(١)].

وأنت تلحظ في هذا الكلام قولًا عدلًا، أبان عن منْزلة هذه الحواشي والتقارير وفضلها، كما أبان عن غلطها وحيفها. وهو يضيف إلىٰ وصْفها بيانَ ما بُذل فيها من دراسات عميقة وخصبة لمسائل العلم، في مناقشات وبحوث «تقوم علىٰ منهج علمي بالغ في الدقة والمراجعة، وتنقية الأفكار وغربلتها، وهذا في تقديرنا من أصدق الدلائل علىٰ احترام الحقيقة العلمية، والإخلاصِ لها في هذا التراث»[(٢)]، مقدّرًا مكانة العلماء الذين قدّموا تلك الدراسات والبحوث، وأنهم ذوو عقول فذّة قادرة علىٰ تناول تلك المسائل.

وفي كلامه إشارة إلىٰ نفع كبير في هذه الشروح والحواشي، يجب أنْ يُلفت إليه أنظارُ الطلاب، ويُربَّوا عليه؛ وهو ضرورة تحرير العبارة، والتدقيق فيها، وتطهيرها من كل ما يمكن أنْ يُحدث لدىٰ قارئها لَبْسًا أو إشكالًا، ويتأكّد هذا في الدارس البلاغيّ، الذي يُفترض فيه وعيٌ تامٌّ بأسرار التراكيب وأبعادها.



---

(١) خصائص التراكيب ٣٩.

(٢) التصوير البياني ٢٣.

علوم البلاغة

حين نظر الشيخ في علم المعاني تجاوز تعريفه الذي شاع وانتشر، تجاوزَ غير منكرٍ، بل تجاوزَ من يريد أن ينير له الطريق، ويكشف مساراته. فتعريف الخطيب المشهور له هو: «علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضىٰ الحال»[1]، لكنّ الدكتور أبو موسىٰ أرجأ إيراد هذا التعريف إلىٰ صلب الكتاب[2]، وانصرف في مقدّماته إلىٰ توضيح ماهية هذا العلم، ومجاله، وميدانه.

فهو يصفه بأنه من أجلّ علوم العربية وأنبلها وأسراها[3]؛ وما ذاك إلا لأنه العلم الذي يسعىٰ إلىٰ توظيف الأوضاع اللغوية علىٰ وفق الأحوال النفسية؛ «توظيفًا يجعل اللفظ كأنما غُرس غرسًا جديدًا في نفس قائله، وكأنه ـ في مغرسه هذا من كلامه هذا ـ لفظٌ آخر ليس هو الذي تجده في كلام غيره»[4].

ويجعل الوجه الثاني للبلاغة ـ وهو دراسة الأحوال اللفظية والمعنوية والنظمية والأسلوبية في الكلام ـ داخلًا في وظيفة علم المعاني؛ لأنّ الألفاظ لا تُفهم «معزولة عن وحيها وجرسها ومدىٰ إلفها، ولا المعاني معزولة عن صورها وهيئاتها، ولا التراكيب معزولة عن طرقها وضروبها، وكل ذلك يدخل في النظم أو يتلبّث حوله»[5].

وهذه نظرة جديدة إلىٰ علم المعاني، الذي أفاد تعريفه أنه علم يُعنىٰ بدراسة أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضىٰ الحال، ومطابقةُ الكلام لمقتضىٰ الحال

(١) التلخيص ٣٧.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب ٧٥.

(٣) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٤، والإعجاز البلاغي ٢٤.

(٤) ينظر: الإعجاز البلاغي ٢٤.

(٥) دلالات التراكيب ١٢.

هي عنصر رئيس في تعريف البلاغة؛ ولذا صار العلمان الآخران ـ البيان والبديع ـ داخلين في وظيفة علم المعاني. وقد نصَّ علىٰ أنّ القول بأنّ علم البيان وعلم البديع بابان من أبواب علم المعاني، لا يبعد عن الصواب؛ فهما علمان خارجان من رحم علم المعاني؛ لأنه لا غنىٰ فيهما عن النظر في النظم والتراكيب(١).

أمّا علم البيان فهو يرىٰ فيه الأداة التي يلجأ إليها المتكلّم حين يجد في نفسه شيئًا لا تنتزعه الكلمات ولا تلامسه، فتنهض ملكة البيان، بما فيها من تصوير للمعاني، «وتصطنع وسائل أخرىٰ، تُدخل بها وسائطَ بين اللغة وما التبس في غوامض النفس، فيتيسر بذلك سبيل العبارة عنه»(٢).

ولهذا يلفت النظر إلىٰ أنه من النافع «بحث الوسائل التي انتفع بها كل شاعر في الإبانة عمّا وجد، وكيف صرّف هذه الوسائل، وكيف صاغها، وكيف أقامها رموزًا دالّة، ولا يرىٰ قرب ذلك إلا الذي لا يدركه؛ لأنه يعني الوقوف المتوسّم عند كل تشبيه ومجاز وكناية، والتعرّف علىٰ عناصره، وطريقة تعريفه، ونسج خيوطه، وكيف أحكم هيئته وظاهره وباطنه، ومدىٰ ملاءمة ذلك للسياق والغرض، وغير ذلك مما يستوجبه فهم هذه الوسائل وتحليلها»(٣).

ولا يحصر التصوير في التشبيه والمجاز والكناية، بل يجعل لذلك ـ كما هو عند عبدالقاهر والزمخشري ـ معنىٰ أشملَ وأوسعَ، إذْ من التصوير أيضًا تصوير المعاني، ويعني بذلك: «إعطاء المعنىٰ صورة وهيئة، وقد يكون ذلك بطريق الحقيقة، كما يكون

(١) ينظر: دلالات التراكيب ١٢، وقد أكّد ذلك وشرحه لي في لقاء خاص معه.

(٢) التصوير البياني ٥.

(٣) التصوير البياني ٨.

بطريق غيرها، والذي ينهض في الحقيقة بتصوير المعنىٰ وتشكيله هي تلك الهيئات والأحوال والكيفيات»[1].

وهو كذلك يجعل لعلم البيان وجهين؛ فأما الأول فمسائل العلم، وأمّا الثاني فيتناول طريقة الشاعر أو الكاتب في صيغ التشبيه والمجاز والكناية، ويرىٰ أنّ هذا باب واسع لم تُعبَّد طرقه، وهو بحاجة إلىٰ دراسات جادّة تعتني به[2].

وتحدّث عن المجاز في إحدىٰ مقدّماته[3]، وأشار هناك إلىٰ الخلاف عند المتقدمين في المجاز؛ إثباتًا وإنكارًا. وأنّ المعاصرين قد كثر كلامهم فيه، ونزع بعضهم إلىٰ إنكاره. وقد أراد الدكتور أبو موسىٰ أن ينبه علىٰ أمور في سياق الحديث عن المجاز، وهي:

١- لا يجوز الربط بين مذهب القدماء في إنكار المجاز، والمذهب المقتبس منه عند المعاصرين؛ لاختلاف طريقة استمداد المعنىٰ واستنباطه.

٢- ضرورة التفريق بين مجازين؛ مجاز التبس بنشأة اللغة، ومجاز ذهب إليه البلاغيون وقد نضجت اللغة وتكاملت وسائلها.

٣- تناقل المحدثون من كلام القدماء حججًا في إنكار المجاز، وهذه الحجج بحاجة إلىٰ مراجعة وتمحيص.

٤- «المنكرون للمجاز وإنْ كانوا من أعيان علماء الأمة إلا أنهم لم يتوفروا علىٰ دراسة أسرار الأساليب، وطرائق الناس في الإبانة عن هواجس نفوسهم، وخوالج

(١) قراءة في الأدب القديم ٢٢.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب ١٣.

(٣) ينظر: التصوير البياني ١١ – ١٨.

قلوبهم، وفرق بين تناول الفقهاء والأصوليين وأهل العقائد لمسائل اللغة، ودراسة طرائقها، وبين تناول أهل صناعة الشعر والأدب، وليس هذا قادحًا فيهم؛ لأننا نجدهم فيما نصبوا أنفسهم له»[1]، مستشهدًا علىٰ ذلك بردٍّ للآمدي في "الإحكام" علىٰ حجة من حجج المنكرين، بيّن الدكتور أبو موسىٰ أنها إجابة ضعيفة، ومن الجميل أنْ يكون هذا الاستشهاد منه برجل من القائلين بالمجاز، حتىٰ يكون لكلامه قبول أكبر.

وأمّا علم البديع فلم يكتب فيه كتابة مستقلّة ممّا دعاني إلىٰ سؤاله، فأجابني حفظه الله: «هو علم يجب أنْ يُكتب كتابة أفضل من الكتابة التي هو عليها، ومقامه أكبر من أنْ يكون تابعًا، ولا زلت أتمنىٰ أنْ تتاح لي الفرصة لكتابة هذا العلم كتابة علمية تضعه في موضعه اللائق به»[2].

وبيّن أنّ له في البديع رؤية مختلفة، ويدور في ذهنه كثيرًا التفكيرُ في جذور البديع؛ لأنه يلمح تلاقيًا في جذور بعض فنونه؛ فالجناس والطباق وإن كانا متقابلين، إلا أنهما من عائلة واحدة، فكلاهما ينظر في العلاقة بين كلمتين؛ تضادًّا أو تشابهًا، وهذا باب يستحق أن يُنظر فيه. وكان في ذهنه أن يكتب في منازع الشعراء في بعض فنون البديع؛ كمنازع الشعراء في الطباق، أو غيره.

ويدلّ علىٰ ذلك عنايته في تحليلاته بصور البديع، ووقوفه وقفات غنيّة عندها، كفعله حين وقف عند المقابلة في حديث: «إنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثًا، ويَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا؛ يَرْضَىٰ لَكُمْ أنْ تَعْبُدُوهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وَأنْ

(١) التصوير البياني ١٧.

(٢) وقد ذكرتُ في ترجمته أن تلميذه الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد يعمل في استخراج تحليلاته لصور البديع في جميع كتبه ليخرجها في كتاب مستقلّ.

تُنَاصِحُوا مَن ولّاهُ اللهُ أمْرَكُم، ويَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإضَاعَةَ المالِ»[1].

وقال: «ظلمنا هذه المقابلة لما وضعناها فنًّا بديعيًّا كالتورية، وردّ العجز، والعكس، والتفريع، والإدماج، والتوجيه، وكلّ هذه الفنون ذات قيمة بلاغية، ولكنّ المقابلة أكثر حظًّا منها، ومن كل فنون البيان كالتشبيه والمجاز، وأبواب المعاني كالتوكيد والقصر؛ وذلك لشيوعها شيوعًا ظاهرًا في كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولا أعرف فنًّا بلاغيًّا يشيع في الكتاب والسنة والكلام العالي كما يشيع هذا الفنُّ، وهذا الشيوعُ يجعلنا نراجع جوهرها، وأنّها ليست فقط وضعَ الشيء في مواجهة ما يقابله، وإنما هي في الحقيقة فنٌّ يدعوك لدراسة النقيضين أو المتقابلين، حتىٰ تُفضي بك هذه الدراسةُ إلىٰ مزيد العناية والإمعان والاقتناع بالطرف الذي جاء الكلام ليحثَّك عليه»[2].

وهذه لفتة قوية، حيث حملت بيانًا بأهمية هذا الفن الذي ظلمه إلحاقُ البلاغيين له في علم البديع، فتوارت أهميتها وأثرها في الكلام والمعنىٰ حين تعامل معها بعض البلاغيين بوصفها محسِّنًا بديعيًّا. وفي كلامه إلماحٌ إلىٰ ضرورة إعادة النظر في هذه المحسِّنات، ومواضعها في الدراسات البلاغية، وأنها مما يجب أن يكون له حظٌّ وافر من العناية.



---

(١) صحيح مسلم: كتاب الأقضية، باب النّهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ٣/ ١٣٤٠ (ح١٧١٥).

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٤٤٥.

ميدان البلاغة

لا أعرف قضية شغلت الدكتور محمد أبو موسىٰ كما شغلته قضيتان:

الأولىٰ: الدفاع عن الأمّة وحضارتها وأعلامها.

والثانية: مكانة التطبيقات في البلاغة، وأهميتها في الدراسة البلاغية. وهذا هو لبّ التجديد البلاغي عنده، وميدان البلاغة الحقيقي، والأمر الذي يسعىٰ إلىٰ إحيائه في نفوس الدارسين والباحثين.

لقد رأىٰ البلاغة تنتقل من طور إلىٰ طور؛ فتنتقل من منهج الشيخين عبدالقاهر والزمخشري - وهو المنهج الذي لم يستقم درس البلاغة العربية إلا فيه، بما زخر به من تحليل وتطبيق[1] - إلىٰ منهج سعىٰ إلىٰ تقرير القواعد، وإهمال تحليل الشواهد، ورأىٰ البلاغة تسير في هذا المسار قرونًا استقرت فيه قواعد العلم، ولم تعد إلىٰ المنهج روحُه وحياتُه؛ فانبرىٰ بكل ما آتاه الله من علم وحكمة ليحييَ ذلك المنهجَ الذي آمن به، وليبعثَه من سباته العميق.

ولنضربْ صفحًا عن القضية الأولىٰ - غيرَ مقلّلين من شأنها فقد سبق الحديث عنها[2] - لنرىٰ كيف كانت نظرة الأستاذ إلىٰ أثر التطبيقات في الدرس البلاغي.

فهو يعتقد أنّ من أهداف الدرس البلاغي التي ينبغي أنْ تكون حاضرةً أنْ يُربّىٰ الجيلُ الناشئُ علىٰ أنْ يكون «صاحبَ ملَكَة يَقتدر بها علىٰ تملّك ناصية القول، فيصف شعوره وحسّه وفكره وصْفًا كله صدق ووفاء، وأنْ يكون صاحب ملكة

---

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٩.

(٢) ضمن الحديث عن التجديد وتزكية الثقافة العربية في "الفرائد المنهجية والفكرية".

يقتدر بها علىٰ تبصّر أساليب المجيدين وميزها، مدركًا دلالةَ اللمحة، بصيرًا بخفيّ الرمز ودقيق الوحي، وراءَ كل كيفية من كيفيات البناء، قادرًا علىٰ أنْ يتسلّل من خلال النظر في هذه الكيفيات إلىٰ محيط النصّ الرحيب، وأنْ يعيش في آفاقه، وأنْ يزداد وعيًا وعمقًا بالتجارب الإنسانية التي احتوتها نصوصُ الشعر والأدب، وأنْ يروي قلبه وشعوره بالمواقف الإنسانية الرائعة، والبطولات الشامخة، وأنْ يملأ وجدانه بمعاني الخير والرحمة والتعاطف والبرّ والحق التي جاءت بها هذه النفوس الكبيرة، وكلما ازدادت النفس وعيًا بمعاني الخير، وعمقًا في إدراكها، ازدادت تعاطفًا معها، وشوقًا إليها، فالفطرة الصحيحة لا تشبع من النظر في كريم الخلال»[١]. هو إذن يريد أن تكون البلاغة فاعلةً في الحياة، مؤثِّرة في النفس الإنسانية، ولا يريد لها أنْ تكون قواعد جافّة، وتقريرات جامدة، يحفظها من يحفظها، ويفهمها من يفهمها، من غير أنْ يكون لها وجود في بناء الحياة الكريمة.

كما أنّ من أهدافه إبرازَ خطر الوسائل البلاغية، «وأنها ليست حِيلًا في الأساليب تملأ فراغًا روحيًّا، وليست دراستُها قائمةً في فراغ، غيرَ مرتبطة بدواعي النفس وهواجس الحسّ وأشواق الروح، وإنما يدرسها المشتغلون بها وهم يفهمون خطرها في بناء الشعر والأدب. فالكيفيّات في أسلوب المنشئ صور معانيه، تصف أدقّ إحساسه بهذه المعاني، تصف ألوانَها وأطيافَها، تصف توهُّجَها وحَمْيَهَا، تصف تموُّجَها الصاخب، وترنُّمَها الحالم، تصف ترقرقَها الهادئ واندفاعَها الفائر، تصفها كما أحسَّتها النفس، كما جاش بها القلب، كما اختلجت بها الروح»[٢].

---

(١) خصائص التراكيب ٣٦.

(٢) خصائص التراكيب ٣٩.

ويرشد الدارسين إلىٰ أنّ بداية العمل البلاغيّ، وبداية السير علىٰ طريق علماء البلاغة، أنْ يَنظر الدّارسُ في الكلام المختار ليتعرّفَ علىٰ أسباب الحسن أو الاستهجان؛ وحينئذ يكون شغلُه «تفقدَ اللغة والأحوال والصيغ والخصوصيات والصور والرموز، وكلِّ ما يتصل ببِنية الشعر واللغة والأدب»(١). وهذه نظرة صحيحة؛ لأنّ البلاغة عاشت أزهىٰ عصورها، وجنت ألذّ ثمارها، يومَ كانت ممزوجة بالأدب، ويوم كان النقاد يتتبَّعون شعراء العصر وكُتّابه وخطباءه(٢).

ومن معالم مذهبه البلاغي: أنّ الدراسة البلاغية ليست محصورة في تحقيقات مسائلها، وتحديد الأصول العامة لبلاغة اللسان؛ لأنّ هذا مجال قد فرغ العلماء منه وأشبعوه بحثًا، ولأنّ القواعد أو المادة البلاغية ـ مع فضلها ونفعها وجلالها ـ لا تفيد الدارس ما لم يؤسِّس تناوله لها علىٰ تذوّق الكلام البليغ، تذوُّقًا يطيل الصُّحبة والنّظر، فيستطعم صور النصّ، ويستجلي آفاقه(٣)، ويقول في ذلك: «وهذا هو جوهر هذا العلم وتمام ماهيّتِه، وراجعْ كلامَ البلاغيين يظهرْ لك بجلاء أنّ المادة العلمية التي تكشف لك جوهر كلام البلاغيين ليست في متون البلاغة، وإنما هي في البيان المصقول»(٤).

إنه يرىٰ أنّ للبلاغة ساقين؛ إحداهما هي المعرفة وقواعدها، والثانية هي إدارة المعرفة في النصوص، وتطبيقها عليها، وأنّ حفظ القواعد مجردًا من التطبيق يجعل البلاغة بلاغة عرجاء! وإذا قلْتَ: «إنّ الاكتفاء بتحصيل البلاغة من مصادرها، وعدمَ الخوض بها في معمعان الشعر والخطب والرسائل وكلام أصحاب النفحات البيانية،

---

(١) خصائص التراكيب ٣.

(٢) ينظر: المدخل إلىٰ دراسة البلاغة ٤٩.

(٣) ينظر: خصائص التراكيب ٣.

(٤) خصائص التراكيب ص.

لا معنىٰ له إلا الاكتفاء ببلاغة ذات رئة واحدة، أو الاكتفاء ببلاغة تترنّح علىٰ ساق واحدة ـ لم تكن مجاوزًا للصواب»[(١)].

وقد نعىٰ علىٰ الذين يُحصّلون مسائل البلاغة ويدقّقون فيها ثم يعتقدون أنّ هذا هو ميدانُهم وتخصُّصُهم، وأنّ دراسة الشعر شُغلُ أصحاب الأدب، ويقول لكلّ واحد من هؤلاء: «اطرحْ كتابي فليس بيني وبينك رحم، ولن تنتفع بشيء مما أقول، وإنما أقول ما أقول لمن يحصّل ثم يتدبّر، ثم يعود بالمسائل إلىٰ الشعر الذي هو جَذْمها وأصلها، ثم يعرف كيف يقلّبها بالشعر، ويقلّب الشعر بها، وكيف يذوق، وكيف يتدبر، وكيف يمارس ذلك أزمانًا، ثم يعود إلىٰ البلاغة وعلوم التفسير وعلوم الحديث والفقه، وأنْ يطالع البلاغة في كلّ هذا، وفي كتاب "الأم" للشافعي، وشروح الفقهاء لمتونهم، وتعليقات الحواشي علىٰ الشروح، فإذا وجد لذلك مَذاقًا في نفسه، واستيقن أنه في كل هذا يزداد خبرة بمعرفة مباني الكلام، فذلك هو الذي تُرضىٰ سجاياه، وهو الذي تُفتح له أبواب العلم، التي هي أجلّ وأرفع وأسمىٰ من أبواب الملوك»[(٢)].

وهذا يفيد أنه يرىٰ أنّ أصل البلاغة في الشعر، منه تُستخرج وتُستنبط وتُعرف، وأنّ البلاغة مبثوثة في كتب الفقهاء والعلماء، من خلال معرفة الكيفيةِ التي أداروا بها كلامَهم، والوجهِ الذي استنبطوا منه آراءهم[(٣)]، وهذا يجعل للُّغة ميادينَ رحبةً فسيحةً، تسعىٰ إلىٰ تتبُّع خواص تراكيب الكلام في الشعر والأدب، ومن ذلك: تتبُّع خواصّ التراكيب في حقول معينة عند شاعر؛ لنعرف خصائصه في بناء لغته التي بها يغاير مَن

(١) خصائص التراكيب ص.

(٢) قراءة في الأدب القديم ١٥.

(٣) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٥، وقراءة في الأدب القديم ١٢.

عداه من الشعراء، أو عند عالم؛ لنعرف خصوصياته في بناء لغته وفي فكره، أو في عصر؛ لنعرف بم امتاز عن عصورٍ قبله أو بعده، أو في علم؛ لنعرف صيغه التي تختلف باختلاف العصور. وبهذا يصير حقل اللغة علىٰ سعته وشموله مجالًا للدراسات البلاغية الباحثة عن الخصوصيات المتفرّدة[1]، وهذه لفتة زكية ذكية.

وقد كان البلاغيون المتأخرون[2] واعين بأدقّ أسرار اللسان العربي، وأخصبِ ما في تراث المتقدّمين ((حين جعلوا هذه الكيفياتِ مجالَ البحث البلاغيّ ... وإذا كانت عقلية الأمة ومزاجها وفلسفتها يتجلّىٰ كثير منها في نظامها اللغويّ، وخصائص تركيبها، وهندسة بنائها؛ فإنّ التعمق في دراسة هذه الكيفيات يكشف لنا الكثير من هذه الطبائع وتلك الفلسفة التي ما تزال في دراستنا موضوعًا مغلقًا))[3].

وحين يتحدث عن ذلك كله يرشد القارئ إلىٰ أنّ هذه الأفكار مغروسة في كلام القدماء، لكنّ ((كلَّ هذه الأفكار بقيت كما هي، وإنما نُثيرها ونردّدها فحسب. والواجب أنْ نحقّق هذا من خلال الدراسات التحليلية لنسيج كل شاعر، وأقربُ العلوم تناولًا لهذا هو علم البلاغة، بل إنّ هذا هو مجاله الثاني، أو وجهه الثاني))[4].

هو إذن يعتقد أنّ علم البلاغة له جانبان أو وجهان؛ الأول منهما: جانب نظري، يتعلق بتحقيق المسائل ومناقشتها، وهذا قد استقر في أكثر نواحيه، والثاني: جانب تطبيقي، متعلق بالدراسة التطبيقية علىٰ النصوص، ومعرفة خواص تراكيب الكلام، وهذا هو الجانب الذي ينبغي أن تتجه إليه عناية الباحثين، بعد أن غفلوا

---

(١) ينظر: دلالات التراكيب ٦.

(٢) يعني السكاكي ومن أتىٰ بعده.

(٣) قراءة في الأدب القديم ٢٤.

(٤) دلالات التراكيب ٩.

عنه زمانًا ليس بالقصير، ويتفرّع من هذا الجانب البحثُ عن خصوصية الكاتب أو الشاعر، التي يُعرف بها كلامه ويتميّز.

ولهذا كله يكشف عمّا يمكن تسميته مذهبَه البلاغيَّ الرائدَ حين يقول: إنّ التطبيقات في الدرس البلاغي «هي حياته ونماؤه، وتتركّز فيها قدرة البليغ ومهارته، فقواعد البلاغة وأصولها يمكن أنْ تُجمع في صفحات، والمهمّ هو التطبيق والنظر المتثبّت في النص المدروس، وتحليل تركيبه، وإبراز محاسن صياغته، ودلالات خصوصياته»[1]؛ أي: إنّ تجديد البلاغة عنده يكون في استثمار مسائلها وتطبيقها. كتب لي يومًا بعد أن قرأ بحثًا لي في البلاغة النبوية: «كثرة مزاولة تحليل كلامه ﷺ تمنح مداد الأقلام نورًا، وتمنح نفس الدارس خيرًا كثيرًا، ودرس البلاغة إذا تجلىٰ فيه جانب التحليل كان أكثر نفعًا، وأبرَّ بطلاب العلم».

كما أنّ جوهر العمل البلاغيّ عنده «هو تفقّدُ الأبنية الشعرية، والدراسةُ التي تجعل أبنية الشعر أساسًا لها، ثم تهتدي بكلام العلماء في تصنيفها وتوصيفها، دراسةٌ جليلة؛ لأنها تُمدّ الدراسةَ البلاغيةَ بصيغ جديدة؛ فتغزرَ المادةُ البلاغيةُ وتتنوّعَ، وتكونَ أقدرَ علىٰ استيعاب ما في النصوص من عناصرَ ذاتِ تأثير»[2].

وهذا يعني: أنّ اتجاه الدراسة البلاغية عنده يبدأ من النص البليغ، ويمرّ بكلام العلماء، لينتهي بصيغ جديدة تُغني المادةَ البلاغيةَ، وتَزيدها أَلَقًا وعمقًا. وهذا يخالف المنهج الذي غلب علىٰ قاعات الدرس البلاغي، حين يكون المعتمدُ فيه دراسةَ المسألة البلاغية بشواهدها، ويرىٰ أنّ ذلك لا يكشف جوهر المسألة البلاغية؛ لأنّ

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٧.

(٢) دراسة في البلاغة والشعر ١٨.

الدراسة البلاغية بحث في المعاني، فلا بدّ «من إجرائها في الشعر والأدب وكلِّ ما نقرأ من كلام مصقول، حتىٰ تتضح في نفسها، وفي نفس دارسها»(١).

من أجل ذلك يقرّر أصلًا من أصول منهجه البلاغي، ويرسّخه في نفس القارئ ببيان عذب، أنقله علىٰ طوله لأهميته فيما نحن بصدده، وذلك إذْ يقول: «ميدانُ البلاغة الحقيقي والمقصودُ من دراستها هو تحليلُ النصوص، والتعرُّفُ علىٰ دقائق المباني، والوقوفُ عليها، واستنطاقُها، واستخراجُ ما هجُع في ضباب سراديبها من الحوابس الخُنَّس، والخواطر الكُنّس. واعلم أنّ هذا هو الذي يُحيي البلاغةَ ويَنفحها نضارتَها، فتزيد هي بحيويتها ونضارتها نصوصَ الأدب إشراقًا ووضاءة. العلاقة علاقة تبادل وتشارب بين علوم البلاغة والنصوص الأدبية، البلاغة تُستقىٰ من النص وتسقيه، والنص يُستقىٰ من البلاغة ويسقيها، النص يشحذ أصولها وفروعها، وجذورها وجزوعها، وهي تتسلّل فيه بهذه الطاقة التي استمدَّتها منه، فتنغلّ في مضابئه، وتكشف أسراره، وتفتق مطمور ينابيعه، وتنزع الأستار اللغوية الغامضة عن وجه بيضة الخدر. الفنون البلاغية تحيا ما دامت تتقلب في أدغال النص، وتضرب في مجاهله، وتتولج بمهارة ورياضة ويقظة إلىٰ خفيّ أحواله، ودقيق خصائصه. وإذا عُزلت البلاغة عن هذا ذهبت قيمتها، وصارت عِلمًا عاطلًا، ولو حُفظت دقائقُ متونها؛ لأنّ المقصود من العلم أنْ يُستعمل، والتحليل هو ميدان استعمال البلاغة، وقد قال علماؤنا: "العلم علمان: علم حُمل، وعلم استُعمل؛ فما حُمل منه ضرّ، وما استُعمل منه نفع". وثمرة العلم بمقدار المهارة في استعماله؛ لأنّ الاستعمال درجات وطبقات، فاستعمال الخبير العارف المدرّب غير استعمال من ليس كذلك، وقد قالوا للمهلّب: "بم أدركتَ ما أدركت؟ قال: بالعلم، قيل له: فإنّ غيرك قد علم أكثر مما علمت، ولم يدرك ما أدركت، قال: ذلك علم حُمل، وهذا علم استُعمل".

(١) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٤.

والمطلوب لإحياء هذا العلم هو استعماله في تحليل النصوص، ودراسة الأدب بيقظة شديدة، ووعي شديد، ودُربة تطول ولا تَملّ. المطلوب إعمال العقل في تلبُّس المفردات البلاغية بالنص، وذلك بنقل المدارسة بعد تحليل المسائل البلاغية إلىٰ الشُّبْكة التي بين هذه المسائل المحررة وصنعة البيان. وهذا هو جوهر هذا العلم، وتمام ماهيته، وراجع كلام البلاغيين يظهرْ لك بجلاء أنّ المادة العلمية التي تكشف لك جوهر كلام البلاغيين ليست في متون البلاغة، وإنما هي في البيان المصقول»[(١)].

وتأسيسًا علىٰ هذا الأصل لم يكن في كتبه ينهمك بتحرير القواعد وإيراد الاعتراضات والمحتملات، وهذا ليس لسوء ظن في جدوىٰ مثل هذا العمل، ولكن لاعتقاده أنّ جهودًا محترمة أشبعته بحثًا، ثم لأنه أراد بدراساته أن تقترب من النص، وأن تستثمر هذه الأفكار البلاغية لتكون وسائلَ لبحثه وتحليله؛ لأنّ النصّ «هو الأصل الذي من أجله كانت الجهود البلاغية والنحوية والصرفية وغيرها من العلوم اللغوية واللسانية، قديمها وحديثها»[(٢)]، ولأنّ الأفكار الصحيحة المرتبطة بهذا الجانب اللغوي التحليلي للأدب ثابتةٌ راسخة[(٣)].

فلا عجب إذن أن تكون دعوتُه دعوةً إلىٰ «الرجوع إلىٰ الشعر، والكلامِ الرفيع من النثر، ودراستِه، وتحليلِه، والاستنباطِ منه؛ ليكون ذلك رافدًا يتجدّد به العلم، وتطول به فروعه التي قصُرت، ونرىٰ بين أيدينا مذاهبَ الشعراء عِلمًا مدروسًا، وليس كلامًا مبهمًا»[(٤)].

---

(١) خصائص التراكيب ف.

(٢) التصوير البياني ٢٣.

(٣) ينظر: التصوير البياني ٢٢.

(٤) دراسة في البلاغة والشعر ٢٠.

وإرشادًا للقارئ، وتنبيهًا له، يلفت نظره إلىٰ أنّ ((المادة الأدبية التي تستخرجها الفنونُ البلاغيةُ من النصوص هي معانٍ غامضةٌ جدًا، ومتسترةٌ جدًا، ومتسربلةٌ سربالَ ليل أليل، هي أخفىٰ من النَّمْنَمَات التي لا تراها إلا العيونُ الصحيحةُ جدًّا، ليس منها في شيء كلُّ معنىٰ يجهر به النصُّ، ويعلو به صوتُه، ويسمعه الكافَّةُ، وإنما هي المعاني التي تهمس داخلَ النص، وليس خارجَه، وليس لها طريقٌ نحصّلها به إلا الرَّويَّةُ والفكرُ، يعني التأمّل والتدبُّر والأناة والمراجعة وإعمال العقل. لا ينتزع هذه المعاني من النص ولا يستلّها من تضاريسه الوعرة إلا مَن تدرّب علىٰ الأناة والمراجعة، وعرف كيف يحفظُ بأنامله الرقيقة هذه الخيوطَ المخملية، ويجمعُها ويقدّمُها لقارئ النص))[1]. ولذلك فإنّ علم البلاغة هو أدخلُ العلوم في باب استكشاف أسرار النصوص وخفاياها؛ لأنّ هذا هو مجاله وطَلِبته[2].

وسبب غموض هذه الأسرار البلاغية راجع إلىٰ كونها تمثل اختلاجةَ الحسّ من العبارة[3]، ولكونها ((هي أسرارَ القلوب والعقول، المدسوسةَ في ضمائرها، والتي نراها مدسوسةً أيضًا في ضمائر الكلام، بعيدةَ المغاص، لا تتكشف لك إلا بعد أن تُحوجك إلىٰ طلبها بالفكرة، وتحريك الخاطر والهمّة، وإلا بعد أنْ تكون أهلًا لطلبها)).

وهو يقتنص هذه الأفكار وهذه المعاني من قول عبدالقاهر في الرد علىٰ منتقص هذا العلم والزاهد فيه: ((لا يعلم أنّ ها هنا دقائقَ وأسرارًا، طريقُ العلم بها الرويّةُ والفكرُ، ولطائفَ مستقاها العقلُ، وخصائصَ معانٍ ينفرد بها قوم قد هُدُوا إليها، ودُلُّوا عليها، وكُشف لهم عنها، ورُفعت الحجُبُ بينهم وبينها))[4].



(١) خصائص التراكيب ر.

(٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم ١٤.

(٣) ينظر: دلالات التراكيب ٢١.

(٤) دلائل الإعجاز ٧.

من مجالات البحث البلاغيّ

لم يكتفِ الدكتور محمد أبو موسىٰ بمناقشة القضايا البلاغية، وبيان ميدانها الحقيقي، والردّ علىٰ الشبهات ودحض الاتهامات، بل تجاوز ذلك إلىٰ اقتراح مجالات جديدة للبحث البلاغي، تنسجم مع توجُّهه البلاغي، ومع تنظيره للمسائل، معتقدًا أنها تقدِّم عددًا غير محدود من البحوث البلاغية الرصينة النافعة والمثمرة.

وفي هذا السياق يقول: «من الواجب أنْ نبحث دائمًا عن آفاق جديدة للدرس البلاغيّ، وأن تكون آفاقًا لا يستقيم الكلام فيها إلا لمن صبر وصابر وثابر، وقام وقعد وهو حامل علىٰ كاهله هذا الواجبَ المقدّسَ، وهو الانقطاع لطلب العلم، وكلُّ باب من أبواب العلم مع الجدّ والصبر هو مفيد، وإذا افتقدنا الجدّ والصبر فلن نجد شيئًا مفيدًا»(١).

وقد دلّت مقدّماته بلا جدال علىٰ أنه يسعىٰ جادًّا وجاهدًا إلىٰ ملء الفراغ في الدراسات التطبيقية التي تتناول الشعر والأدب، بصورة تكشف عن خصائصه وأسراره؛ لأنه يرىٰ أنّ هذا هو سبيل التجديد في البلاغة العربية الذي يجعلها تنهض علىٰ قدميها، وتقوم بدورها. وإحياء البلاغة لا تكون إلا «بتفقُّدِ الشعر، والنظرِ في صوره ولغته، والوعيِ برموزه وإشاراته، والتدقيقِ في امتلاك خواطره وهواجسه، والتقاطِ سوانحه، والحسِّ بوقعه ورنينه وأضوائه»(٢).

ويدلّ الدارسَ والناقدَ علىٰ وسائل مهمة في ممارسة العمل النقديّ؛ ومن ذلك: دراسة الأدوات والروابط التي لها علاقة بطرائق العربية في الإبانة عن المعنىٰ؛ كتقديم

---

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٧.

(٢) خصائص التراكيب ٣.

كلمة، أو تعريفها، أو تنكيرها، ومعرفة الفرق بين "واو" تعطف جملة علىٰ جملة، و"واو" تعطف غرضًا علىٰ غرض، و"واو" رُبّ، وكلُّ هذا وأمثاله مما يُنتفع به في تحليل النصوص، والكشف عن حُجبها[1].

ويلفت النظر إلىٰ أنّ تاريخ البلاغة لا زال علمًا مجهولًا في كثير من جوانبه؛ لأنّ الذين كتبوا فيه اعتنىٰ بعضهم بتاريخ الرجال، واعتنىٰ بعضهم بعرض المصنفات، واعتنىٰ آخرون بتحديد المصطلحات، «وبقي أهمّ ما في هذا التاريخ، وهو تأريخ الفنون البلاغية فنًّا فنًّا. وتقوم دراسة هذا الباب علىٰ الاستقراءِ التام لكل ما قيل في كل فن، وتتبُّعِ هذه المادة العلمية في مظانها، ورصدِها رصدًا دقيقًا، ودراستِها ببالغ الأناة والدقة والوعي والتمحيص، حتىٰ تتبينَ قصةُ كلِّ فكرة، ونضعَ أيدينا علىٰ منعطفات سيرها في الزمن، وبأقلام العلماء الجادّين، وفي كل حقول المعرفة العربية والإسلامية التي يأخذ بعضها من بعض، وماذا أخذ اللاحقُ من كلام السابق، وماذا ترك، ولماذا أخذ ما أخذ وترك ما ترك، وماذا أضاف، وماذا حوّر وعدّل، وهكذا ندقّق الأفكار فكرة فكرة، ونستقصي سيرتها وحركتها ونموّها وتوقُّفها، إلىٰ آخره. كلُّ هذا في كلّ فنٍّ من فنون البلاغة، في البيان والبديع والمعاني، ولا أشكّ في أنّ كثيرًا من الأصول البلاغية لا تزال غائبة، وكلما ظننت أني فرغت من الكلام في عبدالقاهر ظهرت لي نصوص لا يدفع المرءُ الاعتقادَ عن نفسه بأنها كانت بين يدي عبدالقاهر وهو يقرّر أصلًا من أصول علمه، وكذلك قُل مع كلّ عالم. ثم إنك قد تجد الكاتب لم يذكر مصنّفًا ولا صاحبه، ثم تفاجأ بأن بعض كلامه راجع إلىٰ هذا المصنف الذي أهمله، ثم لا أشك في أنّ المؤلف قرأ هذه المادة العلمية في كتاب آخر اقتُبست فيه، وهكذا تجد نفسك في عالم مليء بالغموض والأسرار والمتعة والكشف

(١) ينظر: الشعر الجاهلي ١٣.

أيضًا. ولهذا أقول: إنّ هذا الباب الذي هو دراسة تأريخ فنون البلاغة فنًّا فنًّا لا يقوم به واحد ولا جماعة، وإنما تقوم به الجماعة في إثر الجماعة؛ لأنّ الكتبَ كثيرةٌ والتراثَ متَّسِعٌ، ولأننا قد نقرأ الكتاب مرتين أو ثلاثًا ولا نفطن إلىٰ أنّ هذه الفكرة فيه قد جاءته من كتاب فلان، وإنما نفطن إليها بعد طول المراجعة، وهذا من نعم الله علىٰ أهل العلم، حتىٰ تظلّ أقلامهم في أيديهم يفتح الله لهم بها باب رحمته، ويظل يُجري مدادَهم علىٰ أوراقهم، فيكثر لهم أجر دماء الشهداء»(1).

ولا ينسىٰ وسط هذه الدعوة العميقة أنْ يُنبّه علىٰ أمر دقيق قد يفوت الدارسين، وهو أنّ عليهم أنْ يكونوا يقظين لوجود «لفتة زكية في كلام واحد من العلماء القدماء أهملها من جاؤوا بعده؛ لأنهم كانوا متجهين إلىٰ غاية في بحثهم لا تدخل فيها هذه اللفتة، فتظلّ أمرًا نفيسًا منسيًّا يمكن أنْ يُستثمر ويَفتح بابًا جديدًا من أبواب هذا الفن، ويكون رافدًا جانبيًّا أصيلًا من روافد هذا العلم»(2).



ويسارع إلىٰ استثمار إحدىٰ اللفتات النفيسة المنسية للمبرّد بفتح ميدان من ميادين البحث البلاغي، فيدعو إلىٰ استخراج التشبيهات التي تكرّرت لمشبّه واحد عند كل شاعر، وفي كل جيل، وفي كل عصر، وسواء أكان ذلك في المعاني كالشجاعة والكرم، أو في الأعيان كالمرأة والسيف، ومثل هذه الدراسة ستمدّنا بعلمٍ كثير عن الشعر والشعراء، وتعرّفنا الكثير عن حقائق الأشياء في شعر الشعراء(3).

---

(1) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٧.

(2) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٨.

(3) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٩.

ويرىٰ أنّ فائدة مثل هذه الدراسات لا تعود علىٰ الباحث نفسه، ولا علىٰ العلم وحده، بل تعود علىٰ اللغة بكاملها؛ "لأنّ اللغات لا تتسع وحدها، ولا من حيث هي ألفاظ وتراكيب تتعاورها ألسنة العامة، أو المواهب المحدودة، وإنما تتسع وتتعمق وتغزر وسائلها بقدرات الطاقات المتفرِّدة من شعرائها وأدبائها، فهم الذين يُفرغون في كلمات اللغة أضواءَ جديدة، ويستخرجون من صيغها صورًا جديدة، ويرقّقون من حواشيها، ويبعثون الرَّهافة واللطافة ودقَّة الحسّ في إمكاناتها"(١).

ودراسة تطور الفنون البلاغية في ألسنة الشعراء، من ميادين البحث البلاغيّ النافعة جدًّا، كما صنع عبدالقاهر حين عُني ببيان الفرق بين مذهب القدماء في السجع والجناس ومذهب المحدثين، "وإنه لمن النقص الظاهر في الدراسة البلاغية أنْ نسكت عن هذا الباب، وإنْ كان عذرُ القدماء أنهم شُغلوا بوضع القوانين العامة لمسائل العلم، واعتقدوا أنّ هذه العوارضَ التي تحدث والتغييراتِ يمكن استيعابُها من خلال هذه القوانين العامّة، ولكنّ هذا لا يغني عن إفراد هذا الباب بالبحث المتقصّي، ووضع اليد علىٰ مظاهر التطور في كل فن من فنون البلاغة، وإننا لنجد فرقًا شاسعًا بين طباق وطباق، وبين مقابلة ومقابلة، وبين جناس وجناس، هذا فضلًا عن التشبيه والمجاز. ولا شك أنّ هذا الباب أغمضُ من الباب السابق وأدق، وأنّ له وجوهًا كثيرة من النظر؛ فقد تدرس تطور تشبيهات السحاب والبرق والمطر بين الجاهلية وعصر بني العباس، أو تطور تشبيهات الخيل، أو المرأة.

ومن الضروري أنْ نعلم أنّ فنون البلاغة لا تتطور من عصر إلىٰ عصر إلا وهي جزء من تطور الشعر والبيان؛ لأنها جزء من مكوِّنات هذا الشعر، ولن نستطيع أنْ ندرك

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ١٢.

المدىٰ الذي تطور إليه الشعر إلا بوضع النماذج بين أيدينا وتأمُّل مكوّنات الشعر، يعني كلّ ما داخله من لفظ ومعنىٰ وتركيب وخواطر وأخيلة وأفكار ومنازع وهواجس وغرائز وشيم، وكل ما تحرَّك في داخل النفس مما يروم الشعرُ أو البيانُ الإبانةَ عنه، وحينئذٍ نرىٰ فنون البلاغة جزءًا من هذا النسيج الحيّ المتحرّك»[1].

وفي جانبٍ مقابل يدعو إلىٰ دراسة أبواب المعاني في الشعر كالوصف والفخر والنسيب وغيرها، ويبيّن أنّ الموازنة بين هذه الأبواب في العصور المختلفة يكشف الشيء الكثير مما داخَلَ الشعرَ، وأحدث فيه تغييرًا وتطويرًا، ويعتقد «أنّ استقصاءَ هذه الأبواب في العصور المختلفة، ودراستَها دراسةً علمية جادة، من الضروري لمعرفة تاريخ الأدب معرفة تَخرج بنا من هذا التكرار المملّ في هذا الباب، الذي هو ألصق أبواب الدرس الأدبي بجوهر الأدب، وبعناصرها المتحركة والثابتة. وأهمّ من هذا أنني أجد القرآن الكريم الذي أنزله الله بلسان عربي مبين تتكرّر فيه أبواب المعاني التي هي مقاصد القرآن، كالحديث عن آيات الله سبحانه، والحديثِ عن القيامة والبعث والنفخ في الصور والأرضُ جميعًا قبضتُه، والقصص، إلىٰ آخره، وكل هذا قد تكرّر في القرآن العظيم. وكل سورة من هذه السور التي تكرّرت كأنها عالم وحده، ولا يمكن أنْ نجد جملة ـ فضلًا عن آية ـ يفي غيرُها بمعناها، وكذلك الشعر الجاهلي لا أجد فيه بيتًا واحدًا يسدّ غيرُه مسدَّه، وهذا مشروط بوعي الدارس الذي لا يتفقّد المعاني العامة، وإنما يتفقّد صور المعاني، وطرائقَ العبارة عنها»[2].

ويلفت النظر إلىٰ مجال آخر يمتّ إلىٰ هذا بصلة، وهو مجال من الممكن والنافع للباحثين الجادّين النّابهين أن يُعملوا فيه عقولَهم، ويُشرعوا أقلامهم، وكان مما هدتْه

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ١١.

(٢) الشعر الجاهلي ٢١.

إليه فكرةُ مفهوم "النسخ" في الدراسات القرآنية، وهو: "تطور الوسائل اللغوية في ديوان شاعر"، أو: "تطوّر الخصائص البلاغية في شعر الشاعر ورصد هذا وقياسه وضبطه"، ويؤكّد علىٰ أنه لا يعرف دراسة واحدة في أدب العربية تناولت هذا البحث.

وهذا مجال غنيٌّ ونافع؛ لأنّ دراسة شعر الشاعر في ضوء ترتيب زمنيّ متقن، دراسةٌ تنظر في وسائل الشاعر، وأدواته اللغويّة، وطريقة تصريفه لها، ومنازعه العامّة، والنظر هل كان ذلك يمضي في خطٍّ متصاعد صارت به أواخر شعره مغايرة لأوائله من حيث الرقيّ والتطوّر؟ أم أنها انتهت عند النقطة التي بدأت بها؟ «وهذا البحث لو أتقنّاه لكان بحثًا ممتعًا؛ لأنه يحكي لنا قصة الشاعر مع الشعر، يعني قصة إبداعه وخواطره وصوره وما داخل شعره في هذه المرحلة الزمنية التي شُغل فيها بالشعر. وكلُّ ذي صنعة ولُوعٌ بها، صابرٌ عليها، منقطعٌ لها، لابدّ أنك تراه وهو في قمة نضجه ينكر كثيرًا مما كان عليه في بواكير صنعته»[(١)].



ويبقىٰ الميدان الذي وجّه له جهده، وأولاه عنايته، وهو ميدان دراسة تطور تراكيب الكلام في الشعر والنثر[(٢)]. فإنّ كل كلام يدل علىٰ عصره، وعلينا أنْ نصل إلىٰ عناصر التطوير، ويرىٰ «أنّ الإسناد هو المنطقة التي يطوِّعها كل متكلم لمقاصده ومعانيه؛ لأنه هو مناط الفائدة كما قال علماؤنا، ولأنه هو عمل المتكلّم في الكلام؛ لأنّ المتكلّم لا يصنع ألفاظًا ولا تصاريفَ ولا مجاريَ أواخر الكلمات؛ لأنّ كل ذلك من الثوابت، وإنما الذي يصنعه ويصير به متكلّمًا هو الإسناد. ومن هنا كان الإسناد

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ١٠.

(٢) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ١٩.

هو البابَ الذي ندخل منه في دراسة هذا التطوّر، ولأنّ الإسناد لا يصنعه المتكلّم إلا بما في نفسه من معانٍ وصور وأخيلة وخواطر، فهو إذن صورة هذه النفس، وهو حامل ميسمِها، وحامل ميسم ثقافتها واهتماماتها، وزمانها ومكانها، إلىٰ آخره»[1]. مشيرًا إلىٰ أنّ دراسة هذا التطور لا وجه لها «إلا وضعُ النصوص في العصور المختلفة بين أيدينا، وطولُ مراجعتها، وتفقّدُها بيقظة وبصيرة وصبر، وطولُ تكرارِ هذه المراجعةِ، فقد يبدو لنا اليوم ما استترَ عنّا بالأمس»[2].

وهو مدرك صعوبةَ البحث في هذا الميدان، وأنه يحتاج إلىٰ جهد جهيد، وعمل جادّ؛ لعلمه أنّ «معرفةَ مذاهبِ الكلام وطرائقِه، ومذاهبِ المتكلّمين وطرائقِهم، وما يَنْفُضُه الزّمانُ علىٰ الكلام من سمْت وطبع، لا يستطيع أنْ يفتحَه باحث، وإنما تفتحه جهودُ جيل، وربما أجيال؛ لأنه أدقّ أبواب الدراسات الأدبية وأجلُّها وأكرمُها وأخصبُها»[3].

ويتسع البحث البلاغيّ، ويمتدّ عمله حين يكون سعيه نحوَ تحديد الخصوصيات الدقيقة التي تحدّد أدب كل أديب، وشعر كل شاعر، وينسب فضل هذه الفكرة إلىٰ الباقلاني، الذي كان وهو يدرس الإعجاز يبحث في كلام الله عن الله. «وكان قبل أنْ يدلّك علىٰ البحث في كتاب الله عن الله يدلّك علىٰ البحث في كلام كل ذي كلام عن صاحبه، يعني أنْ تبحث في كلام زهير عن زهير، وفي كلام النابغة عن النابغة، وفي كلام أبي العلاء عن أبي العلاء، وهكذا؛ لأنّ الكلام الصادر عن متكلم مبين ببيان بليغ يحمل ـ لا محالة ـ أدقَّ ملامحه، يعني ترىٰ فيه من الأحوال النفسية واللغوية وطرائق

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٢٠.

(٢) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٢٢.

(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٣.

التأتي وغير ذلك مما يدخل في بنية الكلام ويشكّل هذه البنية، وكل هذا ينتهي بك إلىٰ تحديد المتكلّم ووسمه وطبعه، وهذه الدلالة لا يخطئها العلماء»[1].

فالحقيقة القارّة أنّ اللغة لا تشِبّ عن أطوار أهلها، ولا تنقص عنهم، وهي صورة صادقة لحال أمّتها؛ «لأنها ليست إلا وعاءً لخواطرهم وأفكارهم وعقائدهم وقيمهم، وما يجري في نفوسهم؛ من خير وشر، ووفاء وغدر، وعدل وجَوْر، وقسوة ورحمة، ولن تستطيع أنْ تعرف أحوال الناس في عصر من العصور بقراءة التاريخ السياسي وحده، وإنما بقراءة مدوَّناتهم الأدبية؛ لأنها هي كل ما في ذواتهم»[2].

وهو لا يخصّ مثل هذه الدراسات الدقيقة بالشعر، بل إنّ مجال البحث يتسع ليشمل الأدبَ بمختلف أشكاله، والعلومَ بمختلف فروعها؛ لأنّ كل علم له صِيغُه الخاصّةُ به، وطرائقُ المتقدمين تختلف عن طرائق المتأخرين، ولكل عالمٍ خصوصياتُه في لغته وفي فكره[3]. «ولهذا نقول إنّ الخصوصيات الأسلوبية أو التركيبية يجب أنْ يُنظر إليها نظرةً واعية، حتىٰ لا تُعزل اللغةُ عن خواطر النفس وحركة العقل، وحتىٰ نقول في فهم ووعي: إنّ الخصوصيات الأسلوبية هي خصوصيات عقلية ولغوية وفكرية وروحية، وكلّ ذلك معًا»[4].

ويلفت النظر إلىٰ أحد ميادين البحث في هذا الاتجاه، وهو باب واسع، وميدان فسيح، ووادٍ خصب أغنّ، لا تزال أرضه بكرًا، ودياره مشرعةً لقاصديها، «وهو أننا في

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢٨.

(٢) الإعجاز البلاغي ١١.

(٣) ينظر: دلالات التراكيب ٨.

(٤) دلالات التراكيب ٩.

دراستنا الأدبية لم نوفِّ كلامَ الجيل الذي نزل فيه القرآنُ حقَّه؛ وذلك لاتجاهنا نحو الشعر الجاهليّ، وإهمالِنا كلامَهم الآخَر، وهو صِنْو الشّعر في جودة بيانه وصفائه، وصحّة لغته، واتخذنا الشعر وحده سبيلنا إلىٰ فهم الإعجاز وفهم القرآن، وتركنا هذا الباب مع أنّ مِن علمائنا القدامىٰ مَن كانوا يجمعون كلام رعاة الأعراب في بواديها، وما تراجزوا به علىٰ أفواه القُلُب، وما تماتن به قراضبة نجد وتهامة، فكيف نُغَيِّب عن الدرس الأدبي كلامَ أصحاب رسول الله ﷺ؟ وإذا كان الشعر الجاهلي قد عبَر مع الشعر عصورَه كلَّها حتىٰ لا تزال أنفاسٌ من أنفاسه تتردّد في شعرنا المعاصر؛ فإنّ نثر هذا الجيل قد عبَر وبصورة أوضح مع النثر في الأجيال اللاحقة، وخصوصًا في كلام التابعين ومَن تبعهم مِن أهل القرون المفضَّلة، وهي قرون مفضَّلة ليس في الدين والأخلاق والعلم فحسب، وإنما مفضَّلة في الأدب والبيان أيضًا. هذا نبعٌ من ينابيع الأدب والبيان أغفلناه وتوهَّمنا أنّ كلام الصحابة والتابعين كلام في الوعظ لا غير، ولو أنصفْنا في بحثنا، ونظرنا نظر المتثبِّت، وبرئنا من الهوىٰ وأمراض القلوب لقلنا إنه أفضل من حيث هو بيان وأدب من كثير من الذي شُغلنا به ... كيف نُغيِّب كلام هذا الجيل ومن تبعهم بإحسان عن الأجيال التي نربِّيها؟ أيّ أدب يستطيع منصف أنْ يقدّمه علىٰ أدب عليّ وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وقيس بن الأحنف وغيرهم؟ إنّ أدبَ هؤلاء بصائرُ يُهتدىٰ بها، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أنْ نضع أصحابه في الهداية مواضع النجوم، وهو حين يبلّغنا ذلك إنما يبلّغنا وحيَ ربِّه، ولم يبق لنا من أصحابه إلا بيانهم؛ فهو النجم الذي يُهتدىٰ به، والساري إذا ترك المنارات ضلَّ، وقد أوقدوا لنا المنارات!»[1].

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٣.

وقد يأخذ البحث البلاغي منحىً أكثر خصوصيةً وخصوبةً حين يهتم بدراسة نسيج التشبيه والمجاز والكناية عند كل شاعر ومتكلم مبين، وبمثل هذا الاتجاه "نستطيع أن نجد لكل شاعر معجمَ تشبيه ومجاز وكناية يتحدّد فيه ما اقتبسه من غيره، وما أضافه، وإلىٰ أيّ مدىٰ كانت صور الآخرين تتعدّل عنده، وتتأثّر بسليقته وطبعه، وإلىٰ أيّ مدىٰ بقيت قريحة الصحراء ناشبةً في اللسان. وهكذا يُنظر إلىٰ الشعراء الذين يجمعهم مذهب واحد أو طبقة واحدة، أو بيئة ميّزتهم كشعراء نجد والحجاز، أو شعراء قيس وتميم، وسوف نجد ـ لا محالة ـ عواملَ جامعة في باب التشبيه والمجاز والكناية؛ لأنّها أشدّ وسائل الكلام رقّة ورهافة وتأثّرًا بالأحوال والطّباع، وهكذا يُنظر إلىٰ المتكلمين في كل طور متميز من أطوار الحياة الأدبية. وتجتهد الدراسات في أنْ تضع معجم التشبيه والمجاز والكناية لكل طبقة أو قبيلة أو جيل، ومحصّل ذلك كله تجده معجمًا عامًّا للتشبيه والمجاز والكناية، وبذلك تتحدّد لنا نشأة كثير منها، وأوليات كل شاعر ومتكلم، وأوليات كل جيل أو طور أو بيئة، وما شاع عند كلٍّ مِن صور"[1].

ولا يغفل عن الإشارة إلىٰ إشارات عبدالقاهر في هذا الباب، وجهد الشريف الرضي في "تلخيص البيان في مجازات القرآن"، وفي "المجازات النبوية"، وجهد ابن ناقيا البغدادي في "تشبيهات القرآن"، وجهد الزمخشري في "أساس البلاغة"، وتنبيه ابن خلدون في مقدّمته إلىٰ هذا الميدان[2].



(١) التصوير البياني ٩.

(٢) ينظر: التصوير البياني ١٠.

ردُّ شُبُهات

وقف الدكتور محمد أبو موسىٰ في مقدّماته وقفات عديدة يدفع عن البلاغة شبهاتٍ أثيرت حولها، وتهمًا رُميت بها، كاشفًا بالحجة والبرهان زيفها وبطلانها. ومن أهمّها:

١- اهتمام البلاغة العربية بالألفاظ المجرَّدة:

وهذه التهمة أكثر التهم التي ردّ عليها، وبين خطأها وعَوارها[1]. وكان له رأيه الذي أكّده في مواضع كثيرة من مقدّماته، حيث أبان فيه أنّ العناية بالألفاظ تبعٌ للعناية بالمعاني، وأنّ العرب لا تنظر إلىٰ الألفاظ مجرّدة عن المعاني التي تحملها، بل الألفاظ أوعية للمعاني، ومستودعات لها[2]. وهو الأمر الذي عليه أغلب النقاد قديمًا وحديثًا؛ لأنّ النظر «في النصّ ينبغي أنْ يُربط بالمعنىٰ، وقدرة اللفظ علىٰ الإيحاء، وقوة المعنىٰ علىٰ التأثير، وعمق الدلالة علىٰ الغرض»[3].

ولذلك كان «منهج القدماء في التحليل البلاغي يقوم علىٰ الإدراك الواعي للفروق بين أحوال التراكيب، وأنّ هذه الأحوال قادرة علىٰ أنْ تكون مساربَ جيدة تنساب منها مواجيدُ النفس»[4]. ولتوضيح ذلك وقف علىٰ كلام العلماء فيه، شارحًا ما قد يلتبس من كلامهم، ويُظنّ خلافًا لذلك.

---

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٥.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٥، وقراءة في الأدب القديم ٢٢، ودلالات التراكيب ١١، ومدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٤.

(٣) فصول في الشعر ١٤١.

(٤) دلالات التراكيب ٢٤.

فانتقد ابن قتيبة الذي أهدر القيمة الأدبية لأبيات كثيّر المشهورة: "ولما قضينا من منىٰ كل حاجة"، لـمَّا اهتمّ بالمعنىٰ بمعناه الشائع الذي هو الفكرة العامة، ولم يلتفت إلىٰ المعنىٰ بمعناه البلاغي الأدبي، الذي يستوعب الصور والخيالات. ولذا تراه يشيد بعبدالقاهر الذي التفت إلىٰ الصور في الأبيات، وأدرك معنىٰ المعنىٰ في الشعر والأدب، ورأىٰ أنّ الأبيات غنية بالصور وصنعة الشعر، مشيرًا إلىٰ موقف العقاد الذي يلتقي مع تحليل عبدالقاهر في جوانب كثيرة[1].

ووقف عند كلمة الجاحظ: ((إنما الشعر صناعة، وضرْب من النسج، وجنسٌ من التصوير))[2]، مبيّنًا أنّ كثيرًا من الدارسين قد ساء فهمهم لهذه العبارة؛ ((فتوهموا منها دعوةً إلىٰ بلاغة الأفواه والأشكال، وأنّ ذلك مما جعل التراث الأدبي في كثير من جوانبه أدبَ ألفاظ وصيغ، وقد عكف عبدالقاهر علىٰ فهم وتحليل هذه العبارة واستخراج ما فيها من قيم بلاغية، ونعتقد أنّ دراسته الخصبة في "دلائل الإعجاز" ليست إلا تحقيقًا لمعنىٰ هذه الكلمة، أو حاشيةً علىٰ هذا النص))[3].

ويقف مع أبي الفتح ابن جني الذي كان له قول فصل في هذه المسألة، فقد عقد بابًا في كتابه عنونه بـ "باب في الردّ علىٰ من ادّعىٰ علىٰ العرب عنايتَها بالألفاظ وإغفالها المعاني" وقال فيه: ((اعلم أنّ هذا الباب من أشرف فصول العربية، وأكرمها وأعلاها وأنزهها، وإذا تأملته عرفت منه وبه ما يؤنقك، ويذهب في الاستحسان له كلُّ مذهب بك. وذلك أنّ العرب كما تُعنىٰ بألفاظها، فتصلحها وتهذّبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخطب أخرىٰ، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف

(١) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٣.

(٢) الحيوان ٣/ ١٣١.

(٣) قراءة في الأدب القديم ٢٢.

استمرارها، فإنّ المعاني أقوىٰ عندها وأكرم عليها، وأفخم قدرًا في نفوسها. فأول ذلك عنايتها بألفاظها؛ فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقًا إلىٰ إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتّبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة علىٰ القصد ... فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسّنوها، وحَمَوا حواشيها وهذّبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترينّ أنّ العناية إذْ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني»(١).

والدكتور أبو موسىٰ في تعليقه علىٰ هذا الكلام يبين أنّ كلّ نظر في المباني لا غاية له إلا النفاذ إلىٰ المعاني، وأنّ مقالة ابن جني «أصل الدراسة العربية كلها، فليس هناك عناية باللفظ من حيث هو لفظ، وإنما العناية به من حيث هو معبِّر عن خواطر القلوب، فإذا فرغ البناء اللغويّ من هذه الودائع، كان الحلْيُ في لفظه كالحلي علىٰ السيف الدَّدان كما يقول الشيخ عبدالقاهر، والسيف الدَّدان هو السيف الذي لا يعمل في الضريبة ولا يقطع، وحليته تُزري به، ولا يضعها عليه إلا أخرق»(٢).

ويقول في القضية ذاتها: «لا يعرف أهل العلم أنّ في الكلام شيئًا يُساق لتحلية الأسلوب، أو للتفنُّن، أو الطرافة، أو الجدّة، أو للقيم الجمالية كما يقول أهل زماننا، وإنما كل شيء في كلام أهل الطبع ركن فيه لا ينهض إلا به، فإذا رأينا تشبيهًا أو مجازًا أو كناية، وليس موقعه في الكلام موقعَ ما لا يُتحصَّل الشيء إلا به؛ فهو تكلّفٌ ساقط»(٣).

---

(١) الخصائص ١/ ٢١٥.

(٢) قراءة في الأدب القديم ١٤.

(٣) التصوير البياني ٧.

بل يذهب إلىٰ «أنّ الدراسة البلاغية يترصّدها خطأ مبين، لو وقعت فيه تكون قد وقعت في هُوّة تُفقدها جوهرَها، وهذا الخطأ هو الوقوف عند التركيب اللغوي، والانتهاء عنده، مهما بالغنا في تحليله وتشريحه والبحث في مطاويه؛ لأنّ هذا وإن كان لازمًا لزومًا لا ترخّص فيه، فإنّ القصد هو المعنىٰ الذي أمّه الكلام، وقصد اللسان المبين الإبانة عنه»[1]. وهذا بلا ريب هو القول الفصل في هذه المسألة.

٢- انحصار البلاغة العربية في دائرة الجملة:

من خلال نظره الفاحص في كتاب "الكشاف"، عرف أنّ دراسة الزمخشري لِتناسُب المعاني هي ثمرة النظر الشامل في النص والخروج عن دائرة الجملة؛ إذْ كان الزمخشري لا يكتفي بالوقوف عند الدراسة التحليلية للجمل، بل يتجاوز ذلك إلىٰ وصف النص، والإشارة إلىٰ بعض الظواهر البلاغية في الأسلوب، ويجعل الدكتور أبو موسىٰ ذلك رفضًا صريحًا للقول بأنّ بلاغتنا انحصرت في دائرة الجملة، ولم تخرج عنها إلا في مبحث "الفصل والوصل"[2].

ويتناول هذه الشبهة بشيء من التفصيل في موضع آخر، فيفنّدها بكلام علمي دقيق؛ لافتًا النظر إلىٰ أنّ النص عبارة عن مجموعة من الجمل، والدرس البلاغي حين يدقّق في تحليل الجملة يضع بين يدي الدارس أو القارئ مفتاح دراسة النص الكامل؛ لأنه ينتقل بهذه الأداة من جملة إلىٰ جملة حتىٰ يستوعب النص[3].

---

(١) مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر ١٤.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٥.

(٣) ينظر: خصائص التراكيب ط.

كما أنه يستدلّ بما ذهب إليه البلاغيون وقرّروه من وجوب وجود جهة جامعة بين المتعاطفات علىٰ أنّ الكلام البليغ والشعر الجاهليّ متَّسمٌ ولا ريب بوجود هذا الجامع؛ لأنّ الاهتمام بالنصّ كاملًا أولىٰ من الاهتمام بمجرّد جملة فيه؛ فلا يُعقل أن ينصبّ اهتمام البلاغي علىٰ التناسب في الجملة الواحدة، ويهمل هذا التناسب في الكلام.

ومن جهة أخرىٰ فإنّ كثيرًا من المسائل البلاغية والأصول المقرّرة في علم البلاغة قامت علىٰ النظر في النص، كبابِ الفصل والوصل؛ الذي منه "عطف جملة من الجمل علىٰ جملة من الجمل"، وواو الاستئناف التي تفيد عطف قصة علىٰ قصة، ويريدون أنّها تعطف معنىٰ متكاملًا تدور جمله الكثيرة حول أصل، علىٰ معنىٰ آخر تدور جمله حول النص، فيصير النص كأنه دوائر متشابهة ومتناسقة ومتضامّة إلىٰ بعضها. وتعريف علم البلاغة، وهو "مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال"، يعني أن تتناغم الأحوال البلاغية مع الحال الداعي إلىٰ القول، وتتآزر هذه الأحوال في الكشف والإبانة، ومن هنا تولَّدت فكرةُ السياق التي تُفسّر في ضوئها كل الأبنية البلاغية الواردة في النص. بل إنّ فكرة السياق التي عليها المعوّل في الدرس البلاغي تتصادم مع القول إنّ البلاغة وقفت عند الجملة؛ لأنه لا معنىٰ للسياق إنْ لم يكن نظرٌ لحركة المعنىٰ داخل النص كله[١].

ثم ينظر في مسألة الإعجاز القرآني ليجعلها دليلًا علىٰ دحض تلك الشبهة، وذلك بالتذكير بأنّ من أهداف علم البلاغة معرفةَ الإعجاز، وقد دلّ الكتاب العزيز علىٰ أنّ التحدّي ليس بالجملة، ولا بجزء من السورة، بل بالسورة كاملة، وبيّن العلماء أنّ الحكمة في ذلك عائدة إلىٰ أنّ الإعجاز يظهر في البناء الكامل للسورة[٢].

---

(١) ينظر: خصائص التراكيب ي.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب ي.

يقول الطاهر ابن عاشور ﷺ في هذا المعنىٰ: ((وإنما وقع التحدّي بسورة ـ أي: وإنْ كانت قصيرة ـ دون أنْ يتحدّاهم بعدد من الآيات؛ لأنّ من أفانين البلاغة ما مرجعه إلىٰ مجموع نظم الكلام وصوغه، بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه، وانتقال الأغراض، والرجوع إلىٰ الغرض، وفنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض))(١).

كما أنّ من علماء البلاغة من ذهب إلىٰ أنّ الإعجاز القرآني يكمن في مناسبات الآيات، وهذا لا يكون إلا في دراسة متكاملة لكلام متكامل. وتكلّموا في مناسبة المطالع للمقاصد والخواتيم، وهذا لا ينظر إليه علىٰ مستوىٰ الجملة بمعزل عن غيرها. بل إنّ علماء علم المناسبة ذكروا بأنّ دراسة التناسبِ داخل السورة، أو التناسبِ بين السور، لا يستطيع الخوض فيه إلا من كان له حظ وافر في علم المعاني(٢).

٣- فساد البلاغة حين داخلت موضوع الإعجاز:

يتعجّب الدكتور أبو موسىٰ ـ وحقَّ له أنْ يتعجّب! ـ من هذا القول، ويبيّن سبب تعجبه بقوله: ((لو تصوّرنا وجود بلاغة بعيدة عن الإعجاز، وهي عندنا بلاغة صالحة، ثم لما داخلت الإعجاز فسدت، نكون قد تصوّرنا وهمًا محضًا؛ لأنّ البلاغة لم تولد إلا تحت عنوان "دلائل الإعجاز" الذي كتبه عبدالقاهر، وهو المؤسّس لهذا العلم؛ لأنّ مباحث البلاغة التي نقصد إليها حين نتحدث عن البلاغة لم توجد قبل كتاب "دلائل الإعجاز"، وإذا كانت قد أنشئت ووُلدت من رحم الإعجاز، فكيف يُتصوَّر القول بأنها لما شُغلت بالإعجاز فسدت! هذا كلام لا يلتئم أبدًا، وهو محضُ وهْمٍ))(٣).

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٠٤.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب ك.

(٣) خصائص التراكيب ل.

ويشير إلىٰ جانب مهمّ في ردّ هذه الشبهة، وهو أنّ «قضية الإعجاز لها جانب يعالجه علماء العقائد ويغلب عليه علم الكلام، ولا شأن للإعجاز البلاغيّ به؛ لأنّ الإعجاز البلاغيّ يخوض في الشعر وبلاغة البيان من ألفه إلىٰ يائه، ولم يُغفل علماؤنا التنبيه إلىٰ ذلك، وإنما كانوا يقولون إنهم يدرسون الإعجاز علىٰ طريقة أهل الأدب»(١).

٤- ضيق مجالات البحث البلاغيّ:

يرىٰ أنّ هذا الزعم فيه بعض الصواب لو نظرنا إلىٰ البلاغة من وجهها الأول ـ الذي يعني به مسائلَها وأبوابَها المعروفة ـ لكننا حين نُدير درس البلاغة في الوجه الثاني ـ الذي يعني به تتبُّعَ خواصِّ التراكيب في الشعر والأدب ـ فإنّ موضوعات البحث تبدو غيرَ متناهية؛ لأنّ الكلام البليغ ذاتَه غيرُ متناهٍ، فهو وجه فسيح يبسط ظِلَّه ووحيَه علىٰ كل ما أبدعه أصحاب اللسان المبين من شعر وأدب وفكر وفلسفة ومعرفة(٢).

فالجانب النَّظري في الدراسات البلاغية بما يحويه من مناقشة لفروع العلم ومسائله جانب نضج إلىٰ حدٍّ بعيد، واستوفىٰ شُرّاح "التلخيص" كثيرًا من قضاياه، في دراسات عميقة خصبة تقوم علىٰ منهج علميّ دقيق في المراجعة وتنقية الأفكار وغربلتها(٣).

لكنْ لفروع علوم البلاغة ميادينُ رحبة فسيحة، هي تتبّع خواص التراكيب في الشعر والأدب، «لا للوصول إلىٰ الأصول العامة لبلاغة اللسان لأنه أمر قد فرغوا منه، وإنما للوصول إلىٰ تحديد خواص تراكيب الكلام في حقول معيّنة ومجالات معيّنة عند هذا الشاعر وهذا الكاتب، وفي هذا العلم وهذا العصر»(٤).

---

(١) خصائص التراكيب م.

(٢) ينظر: دلالات التراكيب ١٢.

(٣) ينظر: التصوير البياني ٢٣.

(٤) دلالات التراكيب ٦.

وحينذاك يتسع الميدان ويصبح بحرًا لا ساحل له، لأنّ كلّ كلام بليغ يصبح ميدانًا لمئات البحوث البلاغية التي تستشرف بلاغته، وتتأمّل تراكيبه، وتستنبط دلالاتها وآثارها. وشعر امرئ القيس ليس كشعر النابغة، والشعر في العصر الأمويّ مختلف عن الشعر في العصر العباسي، وذلك كائن في الخطب والرسائل كما هو في الشعر والقصائد، ولك أنْ تطبّق ذلك في الفقه والنحو، وفي الفلسفة والتاريخ. ثم إنّ اختلاف صياغة المتأخرين وطرائقهم في كل علم عن صياغة المتقدّمين وطرائقهم، هو اختلافٌ ينبئ عن خصوصيّات في اللغة. ((وهكذا يصير حقل اللغة بكل سعته وتنوعه مجالًا للدراسات البلاغية الباحثة عن الخصوصيات الخاصة المتفرّدة في هذا التنوع الزاخر!))(١).

٥- صعوبة البلاغة:

لا يناقش أستاذنا هذا الأمر علىٰ أساس أنه تهمة، بل يناقشه علىٰ أساس أنه واقع يعاني منه بعض طلاب العلم المبتدئين، الذي يشكون بصورة عامة من صعوبة علوم اللغة العربية، ومن جفافها وجمودها. ويرىٰ أنّ التغلب علىٰ هذه الصعوبة، وتحويلها إلىٰ سهولة واستمتاع يكون ((بتفقّدِ الشعر، والنظرِ في صوره ولغته، والوعيِ برموزه وإشاراته، والتدقيقِ في امتلاك خواطره وهواجسه، والتقاطِ سوانحه، والحسِّ بوقعه ورنينه وأضوائه، ولا يكون شيء من ذلك بالقراءة المتساهلة، وإنما يكون بالصبر والتنظيم والانقطاع ... ومن كان بمعزل عن الذي نطق به أصحاب اللسان فلن يكون موصولًا بعلوم هذه اللغة، فإنْ حفظ متونها وشروحها كان قد حصّل علمًا معلَّقًا في الهواء لا يثبت علىٰ قاعدة من بيان أصحاب اللسان، ولا يرجع في المدارسة والتدقيق إلىٰ طرائق القوم ومذاهبهم))(٢).

---

(١) دلالات التراكيب ٧.

(٢) خصائص التراكيب ٤.

٦- بُعد البلاغة عن الحياة والتأثير فيها:

بيّن الدكتور أبو موسىٰ أنّ هذه النظرة للبلاغة مبنية علىٰ قصور نظر، لم يَسمح لأصحابه بالنظر فيما وراء الحواشي والتقارير، فرمت هذه الكتبَ بكل حجر، جاهلة أنّ الحواشي والتقارير ـ علىٰ ما فيها من منهج دقيق في إيراد النظر وضبط الفكرة وتحديدها وإحكام العبارة عنها ـ ليست من الكتب المجتهدة المبتكرة التي تحسّ فيها الحياة والكدّ، وإنما هي تراث أمة خبا فيها وهج الفكر، وهدأت ثائرته وابتكاره. وأنّ الوجه المشرق للبلاغة يتجلّىٰ في التحليل والدراسة الكاشفة للنصوص، الذي يهدف إلىٰ تربية النفس الشاعرة بحلاوة اللسان وجلال الفن، وإبراز خطر الوسائل البلاغية وأنها ليست حِيلًا في الأساليب تملأ فراغًا روحيًّا، وليست دراستها مُنبتّةً عن دواعي النفس وهواجس الحس وأشواق الروح[١].

إنه يعتقد أنّ درس البلاغة يجب أنْ يدور كله حول تحليل الأساليب، وفحص الأصول الأدبية؛ ليزداد الدارس «وعيًا وعمقًا بالتجارب الإنسانية التي احتوتها نصوص الشعر والأدب، وأنْ يروي قلبه وشعوره بالمواقف الإنسانية الرائعة، والبطولات الشامخة، وأنْ يملأ وجدانه بمعاني الخير والرحمة والتعاطف والبر والحق التي جاءت بها هذه النفوس الكبيرة، وكلما ازدادت النفس وعيًا بمعاني الخير، وعمقًا في إدراكها، ازدادت تعاطفًا معها، وشوقًا إليها، فالفطرة الصحيحة لا تشبع من النظر في كريم الخلال»[٢].

وفي السياق نفسه أشار إلىٰ مقالة سوء استفاضت، تزعم بأنّ البلاغة العربية «عتادٌ قديم، وأنّ من يتسلّحون بها كمن يدخلون معركة اليوم علىٰ جواد مُطَهَّم[٣]، وفي أيديهم

(١) ينظر: خصائص التراكيب ٣٩.

(٢) خصائص التراكيب ٣٦.

(٣) أي: حَسَنٍ، بارعِ الجمال. (ينظر: لسان العرب ١٢/ ٣٧٢، مادة "طهم")

رماح وقسيّ لها أزاميل وغمغمة (أصوات القسيّ). وقالوا: إنها عجوز شمطاء شوهاء بلغت حدّ اليأس، وقالوا أكثر من ذلك. وهذا شرّ ما ترمىٰ به العلوم، ولم يكن ذلك في البلاغة وحدها، وإنما كان في كل علوم العربية، بل وفي كل علوم المسلمين، وهذا شرّ ما ترمىٰ به الأمم، وأسوأ ما تُربىٰ عليه أجيالها، وأفضل ما يمكِّن لأعدائها منها»[1].

٧- علم المعاني هو علم النحو:

أشار إلىٰ هذه الشبهة بقوله: «لا يزال بعض علمائنا يُردِّدون أنّ علم المعاني هو علم النحو، وأنّ كتاب "دلائل الإعجاز" كتاب في النحو، وصفحةٌ جديدة فيه، كتبها عبدالقاهر ليُخرج النحو من سيطرة منهج سيبويه، وأنّ عبدالقاهر قصد إلىٰ هذا قصدًا، وأنّ دراسة التراكيب دراسةٌ واحدة، هي "نحو" فحسب».

وقد أحسن الدكتور أبو موسىٰ بالرد علىٰ ذلك من كلام عبدالقاهر نفسه، فأبان أنّ عبدالقاهر هو الذي فصَل في المسألة، حين أشار إلىٰ أنّ فضل كلام علىٰ كلام لا يرجع إلىٰ النحو؛ لأنّ النحو لا يتغير في أيّ كلام عربي. وأنّ عبدالقاهر إنما كتب "دلائل الإعجاز" ليتعرف علىٰ الشيء الذي تجدّد بالقرآن، وقامت به الحجة وظهرت، وبانت وبهرت، وهو بالقطع ليس نحوًا، ولكنه دقائقُ وأسرارٌ، طريقُ العلم بها الرويَّةُ والفكر، ولطائفُ معانٍ مستقاها العقل، وخصائصُ معانٍ ينفرد بها قوم دون قوم. وكُتب عبدالقاهر في النحو منشورة متداولة، وهي ماضية علىٰ طرائق النحاة[2].

لكنّ هذا لا ينفي أنّ جهة النظر في كلا العِلمين واحدة، فكلاهما ينظران في التراكيب، إلا أنّ طبيعة تعاطي كل منهما مع هذه التراكيب مختلفة، وقد ألمح إلىٰ

---

(١) دلالات التراكيب ٣.

(٢) ينظر: دراسة في البلاغة والشعر ١٤.

ذلك عبدالمتعال الصعيدي بقوله: «وإذا كان علم النحو ينظر في بعض ما ينظر فيه علمُ المعاني من الذكر والحذف والتقديم والتأخير وغير ذلك؛ فإنما ينظر فيها من جهة بيان وجوه صحتها وامتناعها، وأمّا علم المعاني فإنما ينظر فيها من جهة بيان الوجوه التي تُرَجِّح بعضَها علىٰ بعض»(١).

٨- تغيير مصطلحات "التشبيه والمجاز والكناية":

يرىٰ أنّ مصطلحي "الصورة والخيال" يجدّان في مطاردة فنون التشبيه والمجاز والكناية من حياتنا الأدبية، ويرىٰ أنّ المسألة ليست مسألة ذكر مصطلح بدل آخر - وإنْ كان هذا لا ينبغي أنْ يكون إلا بحساب دقيق - بل المسألة تتعدّىٰ ذلك إلىٰ طمس المادة العلمية المرتبطة بهذه الأبواب، وهي مادة فيها نفع كبير لم يُحسن استخراجها.

ثم يبسط الحديث في هذا الجانب، مبيّنًا أنّ مصطلح "الصورة" له مدلول أوسع من التشبيه والمجاز والكناية في كلام القدماء، إلا أنه عند المحدثين «ينصرف إلىٰ مدلول أعجميّ، فيه شوب من كلام القدماء، يؤتىٰ به لتأكيد أنّ مفهوم الصورة عندهم مفهوم شائه، ولا غناء فيه، فضلًا عما فيه مما يفسد الذوق، ولهذا يجب علىٰ طالب علم الأدب أنْ يخفّ إلىٰ مفهومها عند الرمزيين، أو الرومانتيكيين، أو البرناسيين، أو السرياليين، أو إلىٰ مفهوم مستنبط من هذه المذاهب وجامع لها. وكذلك مصطلح "الخيال" يُراد به مفهوم أعجمي فيه من العربية شوب أقلّ من سابقه، وهو منصرف مباشرة إلىٰ كلام "كونت" و"كولردج" وغيرهم ممن لهم رأي في الخيال، ولا يُذكر من تراث المسلمين إلا ما يقوم به البرهان علىٰ جهلهم هذه الملكة، وأثرها في بناء الكلام وتذوقه. وهذه الفنون فضلًا عن أنها وسيلة من الوسائل الأساسية في تذوق

(١) البلاغة العالية ٤١.

الشعر ونقده ـ علىٰ حدّ ما نرىٰ عند الجاحظ وقدامة والآمدي وعبدالقاهر وغيرهم من أهل الرأي في هذا الباب ـ ارتبطت بالقرآن، وكانت بابًا من أبواب فهمه وتذوّقه، وهذا وحده كافٍ في وجوب الاتجاه نحوها، واستخراجها وتمحيصها))[1].

٩- علم الأسلوب بديل لعلم البلاغة:

يبدأ بالإشارة إلىٰ أنّ حجة القائل بهذا القول هي أنّ البلاغة بلغت حدّ اليأس وتجمّدت، وعقُمت، وأصبحت كالجذع القديم. ويرىٰ أنّ هذا قول لا يؤبه به؛ ((لأننا لم ننشئ علم الأسلوب، ولم نستخرجه من لغتنا، حتىٰ يصحّ أنْ يكون بديلًا لعلم من علومنا. وبديهة القول تقول: إنّ الذي يسدّ لا بدّ أنْ يكون مستوعِبًا لمسائل هذا العلم، ومستخرَجًا من اللغة التي استُخرج منها هذا العلم، ومؤدّيًا الوظائفَ نفسها التي كان يؤدّيها هذا العلم، وأن نطمئنّ علىٰ قدرته علىٰ شرح طرائق العربية، وتحليل سَنَنها في الإبانة عن معانيها قبل أن نئد هذه البلاغة التي قامت بهذه المهمة هذا الزمن الطويل. وإذا جاز لمن استخرجوا علم الأسلوب من لغاتهم وعلومهم أنْ يقولوا هذا بناء علىٰ رؤيتهم، وأنهم حِراص علىٰ لغاتهم، فلا يجوز لنا أن نقوله في بلاغتنا وليس عندنا علم أسلوب))[2].

ويتعجّب من أن يكون القائلون بدفن البلاغة، وغرس شجرة علم الأسلوب في رفاتها هم الذين يُكبرون فِكرَ عبدالقاهر، وأنه سبق عصره، وسبب تعجبه من ذلك أنّ عبدالقاهر لم يكتب شيئًا يُذكر به إلا هذه البلاغة!

كما يتعجّب من بعض المتحمسين لعلومنا وثقافتنا حين يدافعون عن علم البلاغة، وأنه يجب أنْ يبقىٰ، وأنه من العلوم التي ندخل بها "المعاصرة"؛ لأنّه يتضمن

---

(١) التصوير البياني ١٩.

(٢) خصائص التراكيب و.

مسائل تشبه علم الأسلوب؛ مثل "العدول" و"الاختراق" و"الانتهاك" و"البنىٰ التحويلية" و"التكرار النمطي" و"السياق" وغير ذلك، وسبب تعجبه أنّ ذلك يعني أنه لا منازعة في أنْ يكون علم الأسلوب علمًا من علومنا التي تُدرّس لأبنائنا، وأنّ علم البلاغة لا يُدرّس لأنه تحليل لطرائق لغتنا في الإبانة، ولا لأنه لا غنىٰ عنه في أعزّ علومنا وأعرقها، ولكن لأنّ فيه مسائل تشبه ما في علم الأسلوب[1]. معقّبًا بقوله: ((إنّ القول بوأد البلاغة ـ مع شناعته وبشاعته وجاهليته وغشمه ـ أكرمُ من القول ببقائها لأنها تشبه في بعض أطرافها علمًا صاغه غرباء من لغة غريبة وآداب غريبة، ثم هو العدوّ الألدّ))[2].

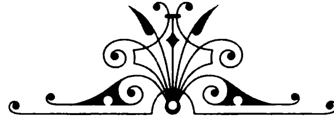
ويبيّن أنّ الموقف الحق أنْ ((يكون الأسلوب أو علم الأساليب فرعًا من فروع علوم البلاغة، أو وجهًا من وجوهها، تُمدُّه ويُمدِّها، وتُثريه ويُثريها، وليس بلازم أن يكون بديلًا لها، أو وريثًا لا يقف في ساحتها إلا بعد أن تواريٰ ثرىٰ قبرها))[3].



(١) ينظر: خصائص التراكيب ح.

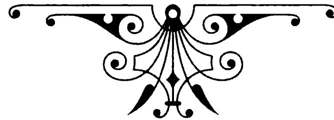
(٢) خصائص التراكيب ط.

(٣) دلالات التراكيب ١٩.



الفرائد النقدية

- معالم في النقد
- الدعوة إلى الشراكة والاستثمار
- خصوصيّات الأدب والأديب
- الشعر الجاهليّ



الفرائد النقديّة

يخطئ من يصنّف الدكتور أبو موسىٰ علىٰ أنه بلاغيّ، والحق أنه ناقد فذّ كما أنه بلاغي محقّق؛ فقد رأينا كيف كان يدعو إلىٰ أن تكون البلاغة عملًا حيًّا تُدار به النصوص، وكيف كانت دعوته إلىٰ التحليل دعوة دائبة لا تهدأ، وكيف كانت مؤلَّفاته تحليلاتٍ دقيقةً لنصوص مختلفة، وهذا له علاقة وثيقة بنظرته إلىٰ العلوم العربية بوصفها منظومة متكاملة[1]. لكنّ العلاقة تزداد وتتوثّق حين يكون الحديث عن البلاغة والنقد، الذي ذهب بعض الباحثين إلىٰ أنهما شيء واحد، علىٰ أساس أنّ كلًّا منهما يقوم بمهمة واحدة، هي تقويم الأساليب والتراكيب والمعاني[2].

وقد كان يَنظر إلىٰ النقد بوصفه علمًا، لا فنًّا، فهو يشيد بابن سلام بوصفه ناقدًا عتيقًا عريقًا، ((جعل العلم بالشعر صَناعة وثقافة يعرفها أهله كسائر أصناف العلم والصَّناعات، وأنّ مردّ العلم بصناعة الشعر وثقافته ليس إلىٰ قوانين يوقف عليها، وإنما الملابسة والمدارسة وحدها هي التي تُعدي علىٰ العلم به))[3]. وكثيرًا ما يصف النقاد القدماء الذين وضعوا أصول النقد بأنهم علماء نقد الشعر وصناعتِه[4].

---

(١) ينظر: من أسرار التعبير القرآني ١٠.

(٢) ينظر: المدخل إلىٰ دراسة البلاغة ٥١.

(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٠.

(٤) ينظر: الشعر الجاهلي ٧.

والذي أودّ أن نقف عليه في هذا الجزء من البحث هو تلك اللفتاتُ الوضيئة، والممارساتُ العملية، والأصولُ الدقيقة للنقد وجوانبه، وهو حديث قد يتداخل في جوانب منه مع بعض الحديث السابق، إلا أنّ فصله وإفراده بالدراسة أمر تفرضه الدراسة المفصّلة.

معالم في النقد

الشيخ شديد العناية بالشعر، وهو أشدّ عناية بالشعر الجاهليّ. ويُرجع جذور الدراسة البلاغية إلىٰ الشعر الذي وضع لبنات صالحة للعلماء لينظروا في البلاغة ويحدّدوا معالمها، ويرىٰ أنّ الشعراء هم من ألهم العلماءَ تلك المعاني التي حملتها ألفاظ ثمانية نهضت الدراسات البلاغية علىٰ قواعدها، وهي: النظم، والترتيب، والتأليف، والتركيب، والنسج، والتحبير، والصياغة، والتصوير(١).

ومن آرائه الدقيقة العميقة أنّ أصول نقد الشعر مستخرجة من الشعر نفسه، ويذكر بأنّ الذي بقي من تراث الأجيال هو الشعر وحده، وأنّ «فيه ما يكفي، وعلينا أنْ نستخرج منه علم صناعته ونقده، وأنْ نستخرج منه الأصول النقدية التي سكنت في صدور من أنتجوه، ولو قلتَ: إنّ شعر كل شاعر يتضمّن في طرائق صنعته رؤيةَ صاحبه لأصول نقد الكلام، لم تكن بعيدًا عن الصواب. وقد عبّد لنا علماؤنا طريق استنباط أصول نقد الشعر، من الشعر نفسه، وراجعْ ما شئت من كتب نقد الشعر، من "الموازنة" و"الوساطة" و"الصناعتين" و"عيار الشعر" وغير ذلك، تجد أنّ مادة هذه الكتب مستخرجة من الشعر ... ثم إنّ علماء نقد الشعر وصناعته لما رجعوا إلىٰ الشعر لاستخراج علمهم لم يكونوا بدعًا في ذلك، وإنما شقّ هذا الطريقَ قبلهم النحاةُ الذين

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٣٢.

كانت صحائفهم بيضاء، وإنما كتبوها من النظر في الشعر وما نطق به العرب لا غير، ثم إنّ علماء الشعر لم يتركوا هذا لنستنبطه، وإنما أشاروا إلىٰ مصادرهم وأنّ هذه المصادر هي تتبع كلام العرب، أو تتبع خواصّ تراكيب كلام العرب»[1].

ولعلّ مما يؤيّد هذه النظرة أنّ الشعراء في الجاهلية وصدر الإسلام كانوا مصدرًا لكثير من الأحكام الفنية[2]. كما أنّ ذلك كان رأي الأوائل الذي كانوا أشدّ منّا قربًا إلىٰ اللغة، فهذا ابن خلدون يشير إلىٰ هذه الحقيقة بقوله: «واعلم أنّ فن الشعر ـ من بين الكلام ـ كان شريفًا عند العرب، ولذلك جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، وشاهدَ صوابهم وخطئهم، وأصلًا يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحِكَمهم»[3]. وقبله قال ابن سلام: «وللشعر صَناعةٌ وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصَّناعات»[4]، ونقل قولَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كان الشعر علمَ قوم لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه»[5].

ويتمنىٰ الدكتور أبو موسىٰ لو استمرّ هذا المنهج في استخراج أصول النقد حتىٰ اليوم؛ «لأنه يقوم علىٰ حقيقة قوية، وهي: أنّ الشعر المتميز هو الذي يتضمّن أصول نقده، ومناهجَ درسه؛ لأننا حين نفعل ذلك نكون قد درسنا الشعر من داخل الشعر نفسه، ولم نفرض عليه شيئًا من خارجه. وقد واجهتني مبهمات في الشعر، ولم أجد مدخلًا لبيانها إلا الشعر نفسه؛ لأنّ فيه مفاتيح غوامضه. والمشكلة أنّ البحث في هذا الجانب في الشعر بحث في خفايا لا تظهر إلا بعد طول المراجعة، والشعر يعطيك القليل بعدما

---

(١) الشعر الجاهلي ٧.

(٢) ينظر: في تاريخ البلاغة العربية ٤٤.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٢/ ٢٧٣.

(٤) طبقات فحول الشعراء ١/ ٥.

(٥) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤.

تعطيه الكثير. وقد وجدت في كلام حازم القرطاجنّي ما يؤكّد أنّ ما استخرجه علماؤنا من الشعر من أصول نقده وبلاغته هو نفسه الذي كان في صدور أهله، وكانوا يحفظون هذه الأصول، ويتعهدون ملَكَاتهم بالصقل، كما كانوا يتعهدون ألسنتهم بالتقويم»(١).

ويحذّر من الزعم «بأنّ ما في كتب علم الشعر ونقده ليس مستخلصًا من الشعر، وإنما هو من علم اليونان، وقد راج هذا القول رواجًا شديدًا جدًا، وقد ساعد علىٰ رواجه ضعفُ الصلة بين الجيل وعلوم أمّتهم»(٢).



وهذا العمل الدقيق، والنظر العميق، المتمثل في تحليل النصوص ونقدها، لابدّ لمن يريد القيام بحقه من استيفاء مقوّمات ومواصفات، «والذي يعين علىٰ ذلك الحسُّ المرهف، والذوقُ المتمرِّسُ البصيرُ، وهذا التحليل المبني علىٰ التذوق هو أصحّ المناهج وأقومها في دراسة البلاغة، فإذا تخلّف الذوق كانت أصولًا علمية شاحبة كما هي في كتاب "المفتاح"، وإذا تخلّفت القدرة علىٰ التحليل والتفسير كانت ضربًا من التحكُّمات الشخصية، تدفع بها إلىٰ متاهات غير منضبطة»(٣).

لكنّ هذا التذوق المهم في الدراسة الأدبية لا يعني «الاستمتاع بجمال العبارة فحسب، وإنما هو مع ذلك وعي بما تحتويه العبارة من فكر وحسٍّ، وما ترمي إليه من مرام قريبة أو بعيدة، وما تفصح عنه بصوت مسموع، أو توسوس به وسوسة خفية، أو تغمغم به غمغمة مكتومة، لا تلامس إلا قلة من ذوي البصَر بأحوال هذا اللسان»(٤).



(١) الشعر الجاهلي ٨.

(٢) الشعر الجاهلي ٩.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٧، وينظر: خصائص التراكيب ٣.

(٤) دلالات التراكيب ٢٦.

كما أبان عن رأيه في قضية نقدية كبرىٰ حين ذكر بأنّ من مسؤولية الناقد وعمله أنْ يكشف عن الخلائق الكريمة التي يتضمنها الأدب، وألّا تكون العناية منصبَّةً علىٰ الشكل، وهذا منه تأكيد علىٰ أهمية المضمون في العمل الأدبي، وفيه إيماءة إلىٰ رأيه في الالتزام في هذه الأعمال؛ لأنه أوجب أن يكون مع تحليل جوهر صنعة الشعر بيانُ ما فيه من جميل الأخلاق(١). وأعني بالالتزام أنْ يكون الشعر معبرًا عن معاني الخير والفضيلة، حاثًّا عليها، محذّرًا من أضدادها، وقد ذهب الدكتور محمد غنيمي هلال إلىٰ أنّ المراد بالتزام الشاعر: «وجوب مشاركته بالفكر والشعور والفن في قضايا الوطنية والإنسانية، وفيما يعانون من آلام وما يبنون من آمال»(٢).



(١) ينظر: الشعر الجاهلي ١٨.

(٢) النقد الأدبي الحديث ٤٥٦.

الدعوة إلى الشراكة والاستثمار

يتطور النقد عند أستاذنا الكبير، وتتسعُ آفاقُه، حين يَستثمر ما في علوم أخرىٰ، ويُدخِلها حقلَ الدراسة الأدبية، وقد ذهب مذهبًا رائدًا جديدًا حين دعا إلىٰ نقل بعض مفاهيم علوم القرآن إلىٰ حقل الشعر؛ ليكون فكرًا أدبيًّا جديدًا. وفي صُلب كتبه تأكيد علىٰ ذلك، كمثل قوله: ((لم أجد وجهًا واحدًا يقبله العقل في إبعاد علوم القرآن والحديث والتفسير عن الدراسة الأدبية، ولكل معرفةٍ جذورُها، ولكل أدب أصولُه الفكرية والعقائدية، ومسألة انبثاق الآداب والفنون كلها من معدنها الأول ــ وهو اللغة والعقيدة ــ أمر لا يجهله من له فهم في الأدب والفكر ... ومقدّمة "البرهان" حديث محض في أسلوب القرآن وبلاغته، وهذا لا معنىٰ له ألبتة إلا أنّ الزركشي كان يعتقد أنّ علوم القرآن دراسة في البلاغة والأسلوب))[1].

ولم يقف عند الفكرة المجرّدة، أو الدعوة النظرية، بل سارع إلىٰ تطبيق عدد من أصول علوم القرآن علىٰ الشعر، وهي "النسخ"، و"تفسير القرآن بالقرآن"، و"علم المناسبة"، و"تسمية السور"، وهي مسائل قد يبعد عن الذهن إقامة علاقة بينها وبين الدراسات الأدبية[2].

فأمّا "النسخ" فقد اختاره الأستاذ لشدة بُعده، فإذا أمكن الإفادةُ منه كانت الإفادةُ من غيره أيسرَ. وهو حين يُعمله في الدراسة الأدبية لا يكتفي بأنْ يبحث هل نفىٰ الشاعر ما أثبت، أو أثبت ما نفىٰ، أو رضي ما كره، أو كره ما رضي، وهذا بحث لا يخلو من فائدة. لكنه يحرّك الفكرة لترشدنا إلىٰ دراسة الديوان دراسة تاريخية مرتّبة ترتيبًا زمنيًا

---

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٢٦٩.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٨ – ٢٦.

مضبوطًا، وهذا في الشعر القديم عمل شاق، ثم ندرس الشعر في ضوء هذا الترتيب، وهذه الدراسة ستتناول وسائل الشاعر، وأدواته اللغوية، وطريقة تصريفه لها، ومنازعه العامة في بناء قصيدته، ثم أكان ذلك يمضي في خط متصاعد صارت به أواخرُ شعره مغايرةً لأوائله، أم أنّ تشبيهاته ـ مثلًا ـ في أول القصيدة مثلُها في آخرها. وهذا بحث ممتع؛ لأنه يحكي لنا قصة الشاعر مع الشعر[1].

ومسألة "تفسير القرآن بالقرآن" لها علاقة بقولنا: "لكل شاعر معجمه"، والمراد من ذلك أنّ دلالة اللفظة في شعر شاعر قد تختلف عن دلالتها في شعر شاعر آخر، كما أنها قد تختلف من موقع إلىٰ موقع في شعر الشاعر نفسه؛ لأنّ السياق وجوّ المعنىٰ مختلف لا محالة، وهو الذي يحرّك الكلمات ويفرغ فيها مذاقه. وهذا يتضح أكثر في الصور والمجازات والتشبيهات وكل ما هو داخل في صنعة الشعر، والعين الواعية ستجد لكل شاعر سمتًا واحدًا.

وتفصيل هذا المسار يكون في خطوتين؛ الأولىٰ: تحديد مفردات الشاعر، ووضعها في نظام معجمي، تظهر فيه الكلمات التي تكرّرت، والكلمات التي لم تتكرّر، مع تحديد المعاني الجانبية للكلمات المتكررة التي انفرد بها موقع دون موقع. والثانية: استقصاء صور الشاعر من تشبيهات ومجازات وكنايات[2].

وإذا انتقلنا إلىٰ "علم المناسبة" فإننا نجد الأستاذ ينفحها من عقله وفكره ما يجعلها كأنها فكرةٌ أدبية خالصة. فهو يدعو ابتداء إلىٰ إعادة التداخل والانتقال بين المعارف، موضحًا أنّ ذلك بحاجة إلىٰ ذكاء ولقانة في حوار الأفكار. ثم ينتقل إلىٰ

---

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٨ – ١٠.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ١١ – ١٢.

حديث المناسبة، وأول ما يتبادر إلىٰ الذهن منه عند دراسة الشعر البحثُ الذي يكشف المناسبة بين العناصر المكوّنة للقصيدة.

ويلفت النظر إلىٰ أنّ الشعراء حين تحدّثوا عن معاناتهم في شعرهم واجتهادهم في إبداعهم، كانوا يضمّنون ذلك محاولتَهم التأليف والمواءمة بين مكوِّنات الشعر، ولا يكون هذا معتدًّا به إلا حين يكون متميّزًا نادرًا عصيًّا، ولا يكون كذلك إلا حين يكون بين مختلف، ومن هنا ظهر مصطلح "تأليف المختلف" عند الباقلاني الذي هو من وجوه الإعجاز عنده، وأفاد عبدالقاهر منه كثيرًا. ثم آل المصطلح عند حازم القرطاجني إلىٰ "حسن الاقتران"، ثم آل ذلك إلىٰ علم المناسبة في علوم القرآن(١).

وفي دراسة الشعر يتجه النظر في علم المناسبة إلىٰ جهات أربع؛ الأولىٰ: نظر في الغرض وتحديده، والثانية: نظر في المقدّمات، والثالثة: نظر في مراتب تلك المقدّمات، والرابعة: النظر في حركة الكلام وما تثيره من الهواجس والأحوال والأشجان، ويمضي ذاكرًا أمثلة تطبيقية عديدة في هذا الباب(٢).

وأمّا تسميات السور فهو يستثمرها في الدراسة الأدبية من خلال فَلْي الشعر مقطعًا مقطعًا، وحرفًا حرفًا، وإحصاءِ الأفعال والأسماء، والجمل الفعلية والاسمية، والجمل المؤكَّدة والمرسَلة، والجمل الخبرية والإنشائية، وأيّ هذه الخصوصيات يغلب علىٰ لغته، ثم النظر في الخصوصيات المتعلقة بالمفرد، وأدوات الربط، وتشبيهاته ومجازاته، وكل هذا يُعدّ عدًّا، ويُحصر حصرًا دقيقًا، ويُدرس دراسة تتبيَّن بها الفروقُ الدقيقة. وبهذا تتبين لنا سماتُ الأديب، وسماتُ كل قصيدة، حتىٰ نضع

(١) ينظر: مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٤٠.

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ١٣ – ٢٤.

اليد علىٰ ما كان خافيًا من أسرارها[1]. ومراده من هذا أنْ نستخرج من القصيدة اسمًا أو عنوانًا علىٰ غرار أسماء السور؛ لأنّ بعض علمائنا يرون أنّ اسم السورة يمثّل قُطبَ الرَّحَىٰ لمعانيها.



وكما استثمر مفاهيمَ العلوم الأخرىٰ، فقد استثمر إشاراتِ العلماء القدماء، وبنىٰ من إشاراتهم أصولًا، ومدّ منها جسورًا تَصِلُ الدراسة الأدبية الحديثة بذلك التراث العظيم. وكان من أبرز هذه الأصول ما استخرجه من "الكشاف"، الذي بيّن أنه حوىٰ الكثير من الأصول النقدية، ومنها:

١- ((دراسةُ المعاني، والقولُ في صحتها وتناقضها وأنواعها وأجناسها وتآخيها وتناسبها، ومحاولةُ الكشف عن الأسس التي سار عليها نسق الجمل والآيات، وكيف تترابط وتتوحّد حتىٰ كأنّ بعضها يأخذ بحجز بعض ... ولم يُفد نقادُ الأدب من هذه الدراسة القرآنية؛ لذلك جاء كلامهم في تناسب أجزاء النص كلامًا ضعيفًا باهتًا يُعنىٰ فقط ببيان حسن التخلص والانتقال، فظلّت القصيدة العربية في منظور النقد تنطوي علىٰ ألوان عديدة من الأغراض والمقاصد في غير رباط شعري واضح))[2].

٢- ((كانت دراسةُ تناسُب المعاني ثمرةَ النظر الشامل في النص والخروجِ عن دائرة الجملة، فقد كان الزمخشري بعد الدراسة التحليلية للجمل وبيان ترتيب معانيها وتناسقها ينظر نظرة أوسع، يصف النص ويشير إلىٰ بعض الظواهر البلاغية في الأسلوب ... ولا شك أنّ هذا رفض صريح للقول إنّ بلاغتنا انحصرت في دائرة

---

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢٥ – ٢٦.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٤.

الجملة، ولم تخرج عنها إلا في بحث الفصل والوصل، كما أنه رفض صريح للقول إنّ بلاغتنا بلاغة لفظية لم تُعنَ بالمعاني ولم تلفِت إليها في دراستها»(١).

٣- أدرك الزمخشري ما يُسمّىٰ "تطور الشكل الأدبي" أو "مبدأ النموّ الموحّد"، «الذي هو أصل هام في مفهوم النص، فيحدّثنا عن نموّ الفكرة وتصاعدها، والمعاني التي يتولّد بعضها من بعض، ويهيئ بعضها لبعض، حتىٰ كأنّ السابق منها بساطٌ للاحقِه، ووِطاءٌ لذكره»(٢).

٤- «هدَىٰ الزمخشري إلىٰ طريقة التشخيص والتجسيم، كما درس طريقة التخييل الحسي في أسلوب القرآن، وتنبه إلىٰ أنّ القرآن يعتمد في بنائه علىٰ هذه الوسائل التعبيرية، وأنّ هذه الوسائلَ هي الطريقةُ المفضّلة في أسلوبه ... وكان أولَ من أدخل دراسة التخييل في محيط الدرس القرآني، واستجاب في ذلك لحسِّه الرهيف، وإنْ أغضب علماءَ عصره»(٣).

٥- حدّثنا الزمخشري في "كشافه" عن «أثر التمثيل بالحركات والأفعال في حياتنا الأدبية والنفسية، فالتمثيل الحي المتحرّك قادر علىٰ الإيحاء والتهذيب، ولفتُ النفسِ إلىٰ عيوبها ونقائصها عن طريق الوحي والرمز ألطفُ وأنفع. ويشير إلىٰ أنّه من الواجب أنْ يكون في المشهد التمثيلي رمز يشير إلىٰ الغرض الذي يدور حوله هذا المشهد، ويتحدث عن الحكاية التي تصوّر الأشخاص، وتُبرز ملامحها النفسية واضحة وقوية، ويرىٰ أنها أقدر الوسائل والأشكال علىٰ توجيه النشء نحو الخير والجمال»(٤).

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٥.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٥.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٦.

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٧.

٦- كانت للزمخشري ((إشارات حسنة في كشف النسق النفسي لأسلوب القرآن الكريم ... إنّ اعتماد الزمخشري الأكبر في بحث البلاغة القرآنية كان يرتكز علىٰ خبرة بأحوال النفس وشؤونها))(١).

٧- بحث ملاءمة الكلمة لمقامها، وما يؤديه وجودها في موضعها من معانٍ وإيحاءات، وهذا من أدقّ بحوث النقد الأدبي؛ لأنّ ((الكلمة في النص هي التي تهدينا إلىٰ كل آفاقه، ومنها نبدأ، فإذا لم نُحسن درسها وفهمها عجزنا عن دخول عوالمه، وكان عملنا ضلالًا وضياعًا))(٢).

إنّ هذه الأصول النقدية المهمة التي استطاع الدكتور أبو موسىٰ قبل حوالي أربعين عامًا أن يستخرجها من أحد كتب القرن الهجري السادس تعدّ نقلة في تاريخ النقد، لو أنّ دارسيه استثمروا ذلك، ورجعوا إلىٰ تراثهم، وفكر سابقيهم.



---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٧.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٩.

خصوصيّات الأدب والأديب

وإذا كانت تراكيب الكلمات ودلالاتها دليلًا علىٰ ما تحمله النفوس من خواطر وخفايا وهواجس وأشجان، كان كل كلام دالًّا علىٰ صاحبه ولا ريب، وكان لكل أديب وكل شاعر خصوصيات دقيقة تميزه عن غيره من الأدباء والشعراء، وكان من البحث الجاد المثمر أنْ يسعىٰ الدرس البلاغي إلىٰ تحديد هذه الخصوصيات عند كل أديب، أو البحث في كل كلام عن صاحبه[1].

وليس المراد من ذلك البحثَ عن أحداث حياته، وإنما المراد معرفة الضوء الذي في داخله يضيء له مسارب اللغة، ويهديه في دروب الكلام، ويأخذ بيده وهو يتلمّس طرائق مبانيه، وفي كل نفس قبَس «من الضوء ينْزع بها منازعَ تختلف لا محالة عن القبس الذي في الأخرىٰ، والذي يهديها هداية مغايرة في الاختيار والتركيب، والصياغة والتصوير»[2]؛ «وذلك لأنّ كل ما في النفس من قلق ونبض، وكلَّ ما تحسُّه الروحُ ويفور به القلب، لا يجد له مَسربًا إلا هذه الكلماتِ وهذه التراكيبَ، وكلَّ ما في هذه الأحوال النفسية من خفاء والتباس منعكِسٌ لا محالة علىٰ تلك التراكيب، وليس هناك شك في أنّ الأسرار اللغوية أسرارٌ نفسية، وأنّ ما في الثانية من إيماض وتفلّت، أو سنوح ونعومة، وكلَّ ما تجده من أحوال الحس كائنٌ في الأولىٰ، وهو ما نعبّر عنه مجازًا بالإشعاع والإيحاء والإشارة، وما شابه ذلك مما نحاول به أنْ نلتقط اختلاجة الحسّ من العبارة ونسمّيه أسرارًا بلاغية»[3].

---

(١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢٨.

(٢) دلالات التراكيب ٨.

(٣) دلالات التراكيب ٢١.

وبعد هذا تكون النتيجة أنّ «العبارة الممتازة تحمل أنفاسَ صاحبها، وتشي بخفايا هواجسه، وتصف أطياف خواطره، وأنّ النفس الصادقة في الحسّ والشعور، الممتلئةَ بالمعاني والأفكار تصوغ العبارة القوية المفعمة، والتي تنهض بأداء ما تعانيه هذه النفس مما يُثقلها من أوزار الفكر وأعباء الشعور، وليست مفرداتُ اللغة وحدها بقادرة علىٰ حمل هذه الأثقال واستيعاب تلك الأطياف، وإنما تستعين اللغة علىٰ ذلك بخصائصَ وأحوالٍ وكيفياتٍ لتصف المعنىٰ وما حول المعنىٰ»[1].

وأدب الأديب وشعر الشاعر إنما يتميز «بمقدار ما يستطيع تحديده من هذه الخصائص الإنسانية العامة، وتضييقِ هذه الدائرة حتىٰ يكون أدبه دالًّا عليه هو، وأحوالِه هو، وطبعِه هو، وإنما تكون منْزلته بمقدار ما يصيب في هذا الباب؛ فهناك من تراه غائمًا في أدبه، تائهًا فيه، تلوح لك منه شيات مبهمة، وصفات غامضة، هو إنسان يصدق عليه أنْ يكون زيدًا وعمْرًا وبكرًا وخالدًا؛ لأنه لم يستطع بعد أنْ يتخذ له سمتًا خاصًا به، ونهجًا دالًّا عليه، وإنما لا يزال ينهض بجناح غيره، ويستقي من سحائب غيره. وهناك من استقام له نهجه الخاص به، ومذهبه الذي يسلكه، وهو الذي تراه في كل بيت يقوله. وقد أشار الفرزدق إلىٰ هذا حين ذكر شعر الفحل علقمة بن عبدة في قوله:

والفحـل علقمـةُ الـذي كانـتْ لـهُ   حُلَـلُ الملـوكِ كلامُـه لا يُنحـلُ»[2]

أي: إنّ كلامه خاصٌّ به، لا يستطيع أحد أنْ ينسب شيئًا منه إليه، وتأمّل كيف هداه تحليله للكلام إلىٰ استنباط هذا المعنىٰ الجليل من كلمة للفرزدق.

---

(١) خصائص التراكيب ٣٥.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٢.

وهذه الفكرة يمكن التقاطها من مواضع كثيرة من كلام عبدالقاهر الجرجاني، ولذلك علاقة وثيقة بما يطلق عليه في النقد الحديث "المنهج النفسي"، مما جعل رائدًا من روّاده، وهو محمد خلف الله يذهب إلىٰ القول: إنّ ((الفكرة الرئيسية التي تبرز في كتاب "أسرار البلاغة" لعبدالقاهر، والتي يصحّ أنْ نعتبرها نظريته في الأدب هي: "أنّ مقياس الجودة الأدبية تأثيرُ الصور البيانية في نفس متذوّقها"))[1].

ولَمّا كانت كيفيات الكلمات وأحوالها هي الأوعية الدقيقة التي تحمل خالص الإحساس وخفيّ الخواطر ودقيق المشاعر، وكان الأديب يتميز بمقدار ما يكون أدبه دالًّا عليه، كان من البدهيّ القول بأنّ جودة الأدب راجعة إلىٰ استغلال هذه الكيفيات والأحوال استغلالًا ذكيًّا واعيًا؛ فوفرة هذه الأحوال والكيفيات في اللسان العربي هي التي أتاحت له أنْ يعبّر تعبيرًا معجزًا بثرائه وتركيبه[2].

وهذه النتيجة يمكن تعميمها علىٰ العصر والزمان والبيئة، فيقال: إنّ كل شاعر يمثل عصره وبيئته، وإنّ لكل زمان صبغةً تصبغ أهله به. ((وهذا يعني أنّ التغيير الذي يداخل تراكيب الكلام هو ذاته التغيير الذي يداخل الحياة العقلية والنفسية، وكلّ ما يداخل حياة الناس ويكون له أثر في الطباع والأفكار والصور وضروب المعاني))[3]. كما أننا ((لا نستطيع أنْ ندرس تطور الشعر بكل مكوّناته بمعزل عن تطور الحياة العقلية، وما يداخل تطورَها من بيئة زمانية ومكانية وثقافية، وأحداث وأحوال، وكلّ ما له صلة بحياة الإنسان مما تتغير به أفكاره واهتماماته ونظرته إلىٰ الحياة، وكلّ

---

(١) من الوجهة النفسية ٩٢.

(٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٢.

(٣) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ٢٠.

ما يداخل تكوينَه الداخليّ من رؤىٰ وخيالات، مما يكون له أثر في تلقّيه للأحداث والأحوال المثيرة لقول الشعر»[1].

وحين نعالج ما قال شاعر أو أديب فينبغي أنْ نُدخل في حسابنا ما يحيط به من أحداث، ولا يجوز إهمالُ شيء من هذه الأحداث في دراسة واحد ممن عانوها، وعلينا أنْ نتلمّس أثرها فيما كتب[2]. وهذا رفض واضح من أستاذنا لفكرة "موت المؤلف" التي نادت بها بعض المذاهب النقدية الغربية، والتي ألغت كون المؤلف منشئًا للنصّ أو مصدرًا له، فأصبح المعنىٰ يعتمد علىٰ القارئ، الذي يستمدّ معرفته وقدرته علىٰ قراءة النصّ وفهمه من الدربة والممارسة[3]. وقد جعلت هذه النظريةُ النصَّ مرتعًا لاختلاف التأويل، تبعًا لاختلاف الفهم، وفصلته عن واقعه، وعن مبدعه، وجعلته كيانًا مستقلًّا، وهذا ـ بلا شك ـ أفرز قراءات خاطئة، وهي سبب لأنْ يغنّي كلٌّ علىٰ ليلاه!

ومما هو بمنْزلة البرهان من هذا أنّك «تجد أبواب معاني الشعر تتباين في درجات الاختلاف والتطور، فباب الوصف مثلًا أوسع تطوّرًا من باب النسيب؛ لأنّ باب الوصف يستمدّ عناصره من المشاهد التي تقع عليها عيون الناس، وهي غير ثابتة، وغير موحّدة، وباب النسيب يستمدّ معانيه وصوره وأخيلته من أحوال النفس، وهي أقرب إلىٰ أنْ يشبه بعضها بعضًا، مع الاختلاف الشديد الذي يداخلها، وهكذا»[4].

وتتطوّر هذه النظرة عند الدكتور أبو موسىٰ لتكون بابًا من أبواب البحث الجديد والجليل؛ لأنّ «هذا الباب الذي هو معرفة مذاهب الكلام وطرائقه، ومذاهب

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ١١.

(٢) ينظر: تقريب منهاج البلغاء ٤.

(٣) ينظر: دليل الناقد الأدبي ١٥٢.

(٤) مراجعات في أصول الدرس البلاغي ١٢.

المتكلمين وطرائقهم، وما يَنْفضه الزمان علىٰ الكلام من سمت وطبع، لا يستطيع أنْ يفتحه باحث، وإنما تفتحه جهود جيل، وربما أجيال؛ لأنه أدقّ أبواب الدراسات الأدبية وأجلّها وأكرمها وأخصبها ... ولا تكنْ أيها القارئ من الذين يلومون الناس ويعيبونهم وهو متكئ علىٰ أريكته، وإنما غامرْ بخوض اللجة، فإذا هالَكَ أنْ تُلقي نفسَك في غمرتها فضعْ قدميك في شطآنها، أو خُلجانها، وهذا أكرمُ بك من مَضْغ كلام لا ثمرة له. وإذا لم أكن قد فتحت الباب ولم أطرقه فحسبي أنني طرقت الطريق إليه، وإنك لتراني كثيرًا ما أسكت عن الإشارة إلىٰ سمت الكلام؛ وذلك لأنني أرىٰ الدلالة علىٰ السمت ليس بقولي: "هذا من سمت الكلام الأول"، وإنما بالتحليل والتدقيق في بناء الكلام، وبناءِ الجمل، وما بينها من علاقات وروابط وأشباه في المعنىٰ وحذو البناء، وكلُّ تدقيق في بناء الكلام إنما هو درس في سَمْته))[1].

وشعر الجاهلية مثال جليّ علىٰ الشعر الذي لا يلتبس بغيره؛ ((لأنّ له ميسمًا يدلّ عليه، وهذا الميسم ظاهر ويمكن الدلالة عليه ووضع اليد عليه، ويؤكّد هذا الذي يجده دارسُ هذا الشعر أنّ التحدي بالإعجاز البياني لكتاب الله المنزّل كان موجَّهًا إلىٰ هذا الشعر))[2].



(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ٢٣.

(٢) الشعر الجاهلي ٦.

الشعر الجاهليّ

وهو يمثّل قضية مهمة في سياق الحديث عن جهوده وآرائه النقدية، إذْ كانت له عنايةٌ شديدة بالشعر الجاهلي، وحفاوةٌ بالغة به، حتىٰ جعل أقطاب البحث البلاغيّ قائمةً علىٰ دراسة البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية وبلاغة الشعر الجاهليّ. وهو الأمر الذي أبرزه بتخصيص كتاب من كتبه الأخيرة ليكون الشعر الجاهليُّ ميدانَه ومجالَه، فضلًا عما ضمّنه كتابًا من أوائل كتبه ـ أعني: "قراءة في الأدب القديم" ـ من نظرات في الشعر الجاهلي.

فهو ينقل ((إجماع أهل العلم بالشعر من علماء الأمة علىٰ أنّ شعر الجاهلية وبيان العربية في عصر المبعث قد بلغ ذِروة ما يمكن أنْ يصل إليه البيانُ الإنساني، وأنّ شعر هذا العصر الذي نسميه العصر الجاهلي هو الأصلُ والرافدُ للشعر العربي في العصور التي تلت الجاهلية إلىٰ يومنا هذا، وأنّ من يُحسن فهمَ الشعر ويصبر علىٰ مراجعته لا يتردّد في القطع بأنّ شعر الجاهلية هو أصفىٰ شعر العربية وأسخاه وأسراه))[1]. وغير خافٍ أنّ هذا رفض منه لفكرة "الانتحال"، وردٌّ ومواجهة لها.

ثم يقدّم بعض الظواهر المهمة في الشعر الجاهلي، ومنها: أنّه لا يرتضي القول إنّ بدء القصيدة بذكر الصاحبة والديار والرحلة والناقة مقدّمةٌ للهجاء أو المديح الذي لا يأتي إلا في أبيات قليلة في ذيل القصيدة، أو بحسب ما وصف أحد النقاد المعاصرين: أنّ القصيدة الجاهلية تتألّف ((من أبيات متجاورة متناثرة كأبيات الحي وخيامه، فكل بيت له حياته واستقلاله، وكل بيت وحدة قائمة بنفسها، وقلّما ظهرت صلة وثيقة بين بيت سابق ولاحق))[2].

---

(١) الشعر الجاهلي ٥.

(٢) في النقد الأدبي ١٥٥.

ويرىٰ الدكتور أبو موسىٰ بعد طول مراجعة ودرس للشعر نفسه أنّ «الشاعر يُضمر غرضَه في كلّ ما قاله مما نسمّيه تسامحًا مقدّمة، وأنّ حديث الصاحبة والديار والرحلة والناقة، كل ذلك بمثابة المنوال الذي ينسج الشاعرُ عليه غرضَه ببراعة ويقظة ولُطف حيلة، وأنّ كلَّ كلمة وكلَّ تركيب وكلَّ صورة وكلَّ حدث وكلَّ حركة من أي حيوان أو التفاتة، كلُّ ذلك من صميم الغرض، حتىٰ إنه خُيّل إليَّ أنّ الصاحبة والديار والرحلة والناقة والوحش وغير ذلك مما نراه يتكرّر في الشعر، كلّ ذلك من طرق الإبانة في الشعر كالتشبيه والمجاز والحذف والتقديم، وإنما هي تختلف عن الطرق اللغوية؛ لأنها صور وأحداث اجتلبها الشعرُ من خارج اللغة وجعلها بمثابة اللغة»[1].

واستطاع من خلال المنهج التحليلي أن يدرك طابعًا عامًّا ودقيقًا يحدّد باعثَ القول في بعض القصائد ومثير المعاناة فيها، كما في قصيدة الحادرة "بكرت سمية"، التي توصَّل إلىٰ أنها ليست في الفخر بنفسه ولا بقومه كما تصفها دراسات كثيرة، وإنما هي في النسيب والصبوة[2].

«ومن أوضح ما يراه دارس الشعر الجاهلي أنّ كثيرًا منه ـ ومن أجوده ـ كُتب بعد فوات الشباب، وأنّ هذه القصائد التي كُتبت بعد فوات الشباب غالبًا ما تكون حديثًا عن الشباب، ورجوعًا إلىٰ أيامه وأحداثه، واسترجاعًا لمناقبه ومسرّاته وفواضله»[3]. وبالإضافة إلىٰ الحديث عن الشباب فإنّ معاني هذه القصائد تدور حول الصبوة، والصيد، والحرب، والخمر، واستشراف المطر، والرحلة، والغالب في هذه القصائد خلوّها من الهجاء والمديح. وقد لاحظ «أنّ الشاعر حين يتذكر أيامه وشبابه وأحداثه ويسترجع

(١) الشعر الجاهلي ١٢.

(٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم ٢٦.

(٣) الشعر الجاهلي ١٣.

ما فات يكون كلامه أكثرَ جودة، وأكثر صقلًا؛ لأنه رجع إلىٰ هذه الأيام والأحوال بحنين أكثر دفئًا، وبشوق أكثر توهّجًا؛ فجوّد وحسّن، وارتفع كلامه بمقدار ما وجد»[(١)].

وقد وجد أنّ للشعر الجاهلي مهيعًا واحدًا، لا يكاد يختلف، وهو أنْ يذكر الشاعر حديث صاحبته إليه بذكر شيخوخته، ثم يبدأ بذكر حاله مع العذارىٰ ورمحه وطعنه ورحلته، وهكذا. كما أنّ الشاعر كثيرًا ما يصوغ «مناقبه ومناقب قومه، ويصوغ مروءته ونجدته وكرمه ورعايته للفقير، وإطعامه الناس في أيام الجدب، وحربه، ودفاعه عن حوزته، إلىٰ آخر هذا الفيض من فضائل النفس، ثم ينشده بين يدي صاحبته، وكأنها هي الراعية لهذه المناقب، وأنّ مقدار اكتساب الرجل من هذه المناقب هو الذي يرشِّحه لها»[(٢)].

ويصل إلىٰ نتيجة اجتماعية مهمة، حين «يؤكّد أنّ المرأة في الجاهلية كانت قد بلغت درجة عالية من الرقيّ، وأنها كانت مولَعةً بمكارم الأخلاق، ورعاية ذوي الحاجات، وكلِّ ما يُكسب المرءَ نُبلًا وشرفًا، وأنها كانت عند الرجل كذلك، ولم تكن ساذجة ومتاعًا حيًّا كما تصوّرها كتاباتنا التي تتحدّث عن هذا العصر وعينُها علىٰ كلام المستشرقين». قال لي: «لما قرأت أنّ أمّنا عائشة تحفظ شعر لبيد، تفرّغت لقراءته كله وفهمه؛ باحثًا عن سرّ ذلك، فلم أجد فيه كلمة واحدة تخدِش حياء امرأة، وهو أمر لم يَخلُ منه شعر جاهلي».

ويدعوه هذا إلىٰ نتيجة أخرىٰ مهمة، وهي أنّ هذا الشعر هو شعرٌ عامرٌ زاخرٌ بصور رجالٍ أولي أحلام ونُهىٰ بصورة لا توجد في غيره[(٣)]، وهذا يدلّ علىٰ أنّ ذلك

---

(١) الشعر الجاهلي ١٥.

(٢) الشعر الجاهلي ١٦.

(٣) ينظر: الشعر الجاهلي ١٩.

العصر كان عصرًا «زاخرًا بمكارم الأخلاق وبالمروءات وفضائل النفوس»[1]، قاطعًا «بأنّ كلمة "جاهلية" إنما يراد بها جاهلية العقيدة، فقد ارتكس الناس في وهدة الوثنية، وقد طال زمن النبوات عليهم»[2].

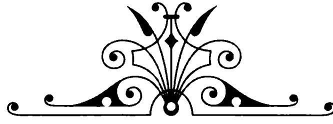


هذه أبرز القضايا النقدية التي أثارها أستاذنا الكريم في مقدّماته، وهي قضايا لها ارتباط وثيق بالدراسات البلاغية؛ لأنه لا يفصل بين البابين فصلًا تامًّا، ولأنّ الغاية منهما تحليل الكلام، وتجويد صناعته.

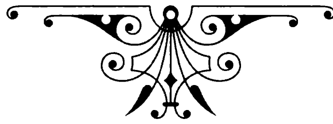
---

(١) الشعر الجاهلي ١٧.

(٢) الشعر الجاهلي ١٨.



الخاتمة



الخاتمة

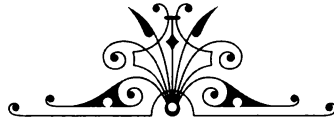
رأينا فيما سبق كيف كانت نظرة الأستاذ الدكتور محمد أبو موسىٰ ـ حفظه الله ورعاه ـ إلىٰ بعض القضايا المنهجية والفكرية، وقضايا الإعجاز القرآني، وقضايا الدراسات البلاغية، والقضايا النقدية، وأنه لم يكن يعزل قضية من هذه القضايا عن غيرها، بل كان يجعلها مزيجًا متلاحمًا؛ فيفيد من العلوم اللغوية الأخرىٰ، ومن علوم الشريعة، ويجتني أفضل ما في كتب المتقدمين، وينبّه علىٰ محاسن مناهجهم أو مساوئها، ويلفت النظر إلىٰ أهمية الدراسات القرآنية، وأهم وجوه الإعجاز البلاغي، منبّهًا علىٰ بعض القضايا البلاغية المهمة، ومؤكّدًا علىٰ أهمية التطبيقات في هذا العلم، وكاشفًا عن مجالات جديدة رحبة لبحوث بلاغية نافعة ومثمرة، مع الردّ علىٰ شبهات أثيرت حول البلاغة العربية في مسيرتها الطويلة، مبرزًا مكانة تحليل النصوص، وأنها لبّ العمل البلاغي والنقدي، مشيرًا إلىٰ قضايا ذات أثر في النقد الأدبي.

والبحث بطبيعته لم يتجه إلىٰ دراسة آراء الشيخ، أو مناقشتها، بل اقتصر علىٰ النظر فيما حوته مقدّمات كتبه، وما أفاض به في لقاءات شخصية، وما أشار إليه في هذه أو تلك من قضايا ومسائل.

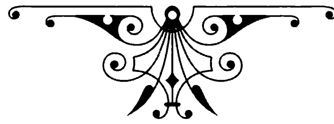
ولذا فهو يوصي بمزيد من الدراسة لآثار الشيخ، في دراسات تختصّ كل منها بمسائل علم المعاني، أو علم البيان، أو الشعر، أو تحليل النصوص، ويوصي بالسعي إلىٰ النظر في طريقة تطبيقه في كتبه لما دعا إليه في مقدّماته؛ للتعرّف علىٰ الجانبين

النظري والتطبيقي في منهجه البلاغيّ، كما يوصي بدراسة متعمّقة تتناول منهج الشيخ في مقدّماته، وهو الأمر الذي أشارت هذه الدراسة بإيجاز إلىٰ أطراف منه في تمهيدها.

ومن الله ـ سبحانه ـ نستمدّ العون والتوفيق، وعليه التكلان، وهو ـ وحده ـ المستعان، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.



مصادر البحث ومراجعه



مصادر البحث ومراجعه

أولًا: مصادره

مؤلفات الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسىٰ:

١. **الإعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

٢. **آل حم: الشورىٰ ـ الزخرف ـ الدخان: دراسة في أسرار البيان**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

٣. **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٤. **التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان**، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.

٥. **تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجنّي المتوفىٰ ٦٨٤هـ**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

٦. **خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

٧. **دراسة في البلاغة والشعر**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

٨. **دلالات التراكيب**: دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

٩. **شرح أحاديث من صحيح البخاري: دراسة في سمت الكلام الأول**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

١٠. **الشعر الجاهلي**: دراسة في منازع الشعراء، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

١١. **قراءة في الأدب القديم**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

١٢. **القوس العذراء وقراءة التراث**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣ = ١٩٨٣م.

١٣. **مدخل إلىٰ كتابي عبدالقاهر الجرجاني**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

١٤. **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

١٥. **المسكوت عنه في التراث البلاغي**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ٢٠١٧م.

١٦. **من أسرار التعبير القرآني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب**، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

ثانيًا: مراجعه

١. **أساس البلاغة**، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ)، دار النفائس، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

٢. **أسرار البلاغة**، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

٣. **أطواق الذهب في المواعظ والخطب**، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ)، شرح ألفاظه اللغوية: محمد سعيد الرافعي، مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ.

٤. **الاعتصام**، أبو إسحاق إبراهيم بن موسىٰ اللخْمي الشاطبي الغرناطي (٧٩٠هـ)، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

٥. **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفىٰ صادق الرافعي (١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

٦. **إعلام الموقعين عن ربّ العالمين**، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، رتبه وضبطه وخرج آياته: محمد عبدالسلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١ = ١٩٩١م.

٧. **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.

٨. **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، عبدالمتعال الصعيدي (بعد ١٣٧٧هـ)، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز.

٩. **البلاغة العالية: علم المعاني**، عبدالمتعال الصعيدي (بعد ١٣٧٧هـ)، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٥هـ.

١٠. **البلاغة العربية: تاريخها، مصادرها، مناهجها**، د. علي عشري زايد، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

١١. **البلاغة تطور وتاريخ**، د. شوقي ضيف (١٤٢٦هـ)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٨٣م.

١٢. **البيان والتبيين**، الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١٣. **تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية**، د. مهدي صالح السامرائي، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

١٤. **تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ)، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

١٥. **التبيان في علم المعاني والبديع والبيان**، شرف الدين حسين بن محمد الطيبي (٧٤٣هـ)، تحقيق وتقديم: د. هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

١٦. **تفسير ابن كثير= تفسير القرآن العظيم**، الحافظ ابن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور وعبدالعزيز غنيم، دار الشعب، القاهرة.

١٧. **تفسير التحرير والتنوير**، محمد الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٨. **التلخيص في علوم البلاغة**، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني الخطيب (٧٣٩هـ)، ضبطه وشرحه: عبدالرحمن البرقوقي (١٣٦٣هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٩. **الحيوان**، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٩م.

٢٠. **الخصائص**، أبو الفتح عثمان ابن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي.

٢١. **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني (٤٧٤هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ= ١٩٨٩م.

٢٢. **دليل الناقد الأدبي**، د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت.

٢٣. **الرسالة**، محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٥هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٣٥٨هـ = ١٩٤٠م.

٢٤. **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٧٥هـ)، إعداد وتعليق: عزّت عبيد الدعّاس وعادل السيد، دار الحديث، حمص، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

٢٥. **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، ضبط وترقيم: د. مصطفىٰ ديب البُغا، مكتبة دار ابن كثير، واليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق وبيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٢٦. **صحيح مسلم**، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، إستانبول.

٢٧. **صحيح مسلم بشرح النووي**، شرح: الإمام أبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، عُني بنشره: محمود توفيق، مطبعة حجازي بالقاهرة.

٢٨. **طبقات فحول الشعراء**، محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ)، قرأه وشرحه: أبو فهر محمود محمد شاكر، ١٩٧٤م.

٢٩. **عون المعبود**، محمد شمس الحق العظيم آبادي (١٢٧٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

٣٠. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، حقق الأجزاء الثلاثة الأولىٰ منه: الشيخ عبدالعزيز بن باز، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولىٰ.

٣١. **فصول في الشعر**، د. أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي ببغداد، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٠م.

٣٢. **في النقد الأدبي**، د. شوقي ضيف (١٤٢٦هـ)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٨م.

٣٣. **في تاريخ البلاغة العربية**، د. عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت.

٣٤. **كتاب سيبويه**، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنبر (١٨٠هـ)، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون، دار الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٣٥. **الكشاف عن حقائق غوامض التنْزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ)، رتبه وضبطه وصححه: مصطفىٰ حسين أحمد، مطبعة الاستقامة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ.

٣٦. **لسان العرب**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ١٤١٢هـ.

٣٧. **المتنبي**، محمود محمد شاكر (١٤١٨هـ)، دار المدني بجدة ومكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٣٨. **مجالس ثعلب**، أبو العباس أحمد بن يحيىٰ ثعلب (٢٩١هـ)، شرح وتحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٠م.

٣٩. **المدخل إلىٰ دراسة البلاغة**، د. فتحي فريد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٨م.

٤٠. **مُشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية**، د. سعد مصلوح، أحد البحوث في "قراءة جديدة لتراثنا النقديّ"، من إصدار نادي جدّة الأدبي الثقافي، الجزء الثاني ص ٨٢٠-٨٧٥.

٤١. **المطول**، سعد الدين التفتازاني (٧٩٢هـ)، تحقيق: عبدالعزيز بن محمد السالم وأحمد بن صالح السديس، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٤٠هـ.

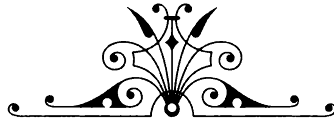
٤٢. **معالم المنهج البلاغي عند عبدالقاهر الجرجاني**، د. محمد بركات حمدي أبو علي، دار الفكر، عمّان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٤م.

٤٣. **مفتاح العلوم**، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد ابن علي السكاكي (٦٢٦هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ = ١٩٨٧م.

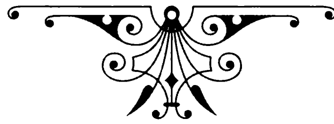
٤٤. **مقدّمة ابن خلدون**، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨هـ)، تصحيح وفهرسة: أبي عبدالله السعيد المندوه، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.

٤٥. **من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده**، محمد خلف الله (١٤٠٣هـ)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٦هـ= ١٩٤٧م.

٤٦. **النقد الأدبي الحديث**، د. محمد غنيمي هلال (١٣٨٨هـ)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٧٧م.



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات